



كاظم أبو جويذة

الماجدية



المأجديّة
رواية

عنوان الكتاب : المأجديّة
المؤلف : كاظم أبو جويدة
التصنيف : رواية
الطبعة : الثانية / ٢٠٢٥
مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي : فلاح العيساوي
تدقيق: د. جبار ماجد البهادلي
مراجعة: الروائي ضاري الغضبان
تصميم الغلاف: عامر



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٣٧٥١) لسنة ٢٠٢٥م

ISBN : 978-9922-8499-1-1

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - بغداد - شارع المتنبي

هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤ / ٠٧٨٧١٩٧٨٥٢٠

بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com

Facebook: رياض داخل

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

كاظمُ أبو جويذة

الماجدية

رواية

٢٠٢٥

٨١٣ / ٩٠٥٦٣

أ ٣٩٩

أبو جويده ، كاظم
المأجديّة / كاظم أبو جويده

ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٥ .

٣٧٨ ص ، ١٤ × ٢١ سم .

١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

رقم الإيداع

٢٠٢٥ / ٣٧٥١

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٧٥١) لسنة ٢٠٢٥م

الْإِهْدَاء...

إلى الرَّاحِلَةِ الفنَّانَةِ الْقَدِيرَةِ د. إقبال نعيم: التي لم تَمُتْ، إِنَّمَا
انفجرت نورًا في كُلِّ الاتجاهات.
كلما تنفستُ عبيرَ الحُرِّيَّةِ في كتاباتي أدركتُ مليًّا أنكِ موجودةٌ
في كل سطرٍ أُعيدُ كتابته، وفي كل حوارٍ أهدمه ثم أبنيه مِنْ جَدِيدٍ.
الموت؟ حاشيةٌ في نصِّ حياتكِ الممتدَّة، فذكراكِ تتجلى في كل
زاويةٍ من زوايا الروح، ترقصُ كأشعةٍ شمسيِّ تلامسُ أرواحنا الدافئة.
هذه الرواية هي لكِ، حروفُها تمشي بموازاةِ خطواتكِ بِسَكْرِبَتِ
دقيقٍ على خشبةِ المسرح، وَجُمْلُها تتنَفَّسُ بإيقاعِ ضحككِ الأَسْرَةِ،
ذلك الإيقاعُ الذي لا يزالُ فتيةً ماكثًا في الذاكرة.
ملاحظةٌ للقارئ: إذا لم تعرف د. إقبال نعيم، أغلق الرواية الآن.
هذا الكتابُ غيرُ مخصَّصٍ لكِ.

مقدمة

الماجدية: شاهد سردي على هوية الآخر الثقافية

بقلم: د. جبار ماجد البهادلي

وُلِدَ الكاتبُ الروائيُّ العراقيُّ كاظمُ أبو جريدة في الماجدية - العمارة - محافظة ميسان - عام ١٩٦٨، وقد تخرّج في أكاديمية الفنون الجميلة في الإخراج المسرحي، كما درس هندسة الحاسبات. أسهمت هذه الثنائية المعرفية - الجمالية الفنية والدقة الهندسية - في تشكيل نسيج سرديّ متفرّد يجمع بين عمق البناء المحكم وجمالية التصوير البصري، فانعكست تقنيات الإخراج المسرحي على تشييد مشاهد الروائية بواقعية حقيقية ملفتة للنظر، بينما وفّر له التفكير الهندسي المنطقي بنية سردية متماسكة ومعمارية دقيقة للحبكة والشخصيات.

نشط في المشهد الثقافي العراقي عبر أعمال مسرحية مهمة وأفلام سينمائية قصيرة، وأصدر إبداعاته القصصية والشعرية في دور عربية متنوعة. وأسهم ناقدًا في بلورة مدرسة مسرحية عراقية نقدية مهمة.

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة نقدية معمّقة لرواية (الماجدية)، هذا النصّ السردّي الذي يتجاوز حدود الحكاية

التقليدية ليؤسس لخطابٍ روائيٍ يحتفي بالمكانِ كهويّةٍ وبالإنسانِ كشاهدٍ على التحوّلاتِ الكبرى.

تُمثّل رواية (الماجدية) للروائي العراقي كاظم أبي جويده الحلقةَ الأسمى في مسيرته الإبداعية، والوليدَ السرديّ الأوّل الذي صعد به من فضاء القصة القصيرة - عبر مجموعتيه المؤسستين (إيولا) حيثُ اعتمدَ على استعارةِ الوباءِ كمدخلٍ لتشريحِ العلاقاتِ الاجتماعيةِ الهشّة، و(الطيرانِ على جناحِ ذبابة) بتوظيفِ الأسطورةِ كمنظورٍ تفكيكيٍّ للهويّةِ إلى عوالمِ المتخيّلِ الروائيّ الشاسع، مقدّمًا لنا سرديّته المغايرة "الماجدية".

لا شكّ أنّ القارئ الواعي والمتلقّي الذكيّ، أو الناقدَ الألمعيّ النابه الذي يُطالعُ رواية (الماجدية) - الرواية التي ابتدأت مسارها التعبيريّ (الأفقيّ والعموديّ) وبناءها الزمكانيّ الأوّل من "الماجدية" المكان، وانتهت إلى "الماجدية" الفكرة الكونية الكبيرة - ثم يحاولُ جاهدًا الغوصَ عميقًا في أعماقها السردية، والنبشَ الفكريّ في أغوارِ وحفرياتِ فصولها السبعة، ويُمعنُ النظرَ والتأمّلَ في مكوّناتِ وآثارِ نصوصها ووحداتها السردية وجواهرِ موضوعاتها المترابطة؛ لا يمكنُ له أن يضعها تحتَ خانةٍ تصنيفيّةٍ معيّنة، أو تحتَ تصنيفٍ نوعيٍّ أو مُسمّى سرديٍّ ما؛ وذلك لكونها روايةً متكاملة البناءِ في النوعِ والتأسيسِ والتكريسِ السرديّ الشموليّ، ومن رواياتِ الحداثَةِ ("ميتا-سرد") وما بعدَ الحداثَةِ التي تجمعُ كلّ التصنيفاتِ والأفكارِ والرؤى والتطلّعاتِ الذاتية والموضوعيّة التجديدية؛ فيمكنُ

لنا أن نطلق عليها: "رواية التوثيق السيري والتاريخي الحديث والمعاصر"، وهي رواية بوليفونية متعددة الاتجاهات الموضوعية، كثيرة الأنساق والمرجعيات الثقافية المثمرة الراجعة.

و(الماجدية) بالدرجة الأولى، هي رواية الأيديولوجيا والواقع الحياتي المعيش وتبعات مواجهة تحدي الراهن. وهي محفز لسرديات ما بعد الواقعي السحري والأسطوري والخيالي، أو للتجلي الغرائبي والعجائبي الوجودي الفريد الذي يستمد مصادره الفنية ووظائفه الثقافية والفكرية من ظلال الواقع الوارف، وكذلك من صميم تقاطعات تجلياته الوجودية الظاهرة والخفية.

الماجدية: تعدد الأبعاد الروائية...

(الماجدية) رواية يمكن أن نعدّها توصيفيًا: "رواية الارتحال الشخصي" أو "أدب الرحلات السردية". ويمكن أن تكون تركيزًا نصيًا لافتًا على سرديات الحبس الأمني والاستخباري والبوليسي القمعي لنفوذ أجهزة الموساد الإسرائيلي والأمريكي، والمحيط الإقليمي لدول الجوار العراقي التي لا يمكن الشك بها خارجيًا.

(الماجدية) رواية المكان والزمان والشخصيات والصراع والحوار والعقد والتعقيدات التي تتجلى فيها سرديات الأدب التأصيلي الممزوج بـ"ميلودراما" الفن الحركي البصري والمسرحي. وهي رواية الماضي القريب والحاضر الأنّي المعيش الذي يؤرّخ لنصف قرن من تاريخ مدينة أو حي شعبي فقير يقطنه الكثير من المتعبين والكادحين والمناضلين الذين يسعون لمستقبل زاهر حرّ

كريم العيش يُسمّى (الماجديّة)؛ إحدى مناطق مدينة العمارة ذات التاريخ المدينيّ السومريّ الأصيل، التي ترقد على ثلاثة أفرع من نهر دجلة تتنعم بالحب والجمال.

(الماجديّة) رواية المدينة الفاضلة ("يوتوبيا") في السرد الإنسانيّ، والكاشفة للمدينة الفاسدة ("دستوبيا") في الواقع التعسفيّ المُمرّ، والمضادّ لتلك المدينة التي تُقاوم سهام الشرّ وتُحارب كلّ اتجاهاته الدنيئة المختلفة.

البعدُ الإنسانيّ والاجتماعي...١٠

(الماجديّة) أعمق من مجرد رواية تتألف من مجموعة حكايات وأفكار فاعلة متنامية وموضوعات سردية جريئة طموحة فحسب؛ إنّما هي في واقع الأمر رواية المثقف الواعي والإنسان البسيط المكافح العاديّ، الذي كان شاهداً على جريمة العصر وعلى هويّة الآخر بين عتبات الماضي ومؤشرات الحاضر الأسر، وبين الحاكم الأمر الجائر والمحكوم المأمور.

من يتتبّع بوعي وإدراك ثاقبين سطور رواية (الماجديّة) ويتأمل معاني صفحات فصولها الكلية؛ سيقراً بوضوح أنّها سرديات ومرويات شعبية ووثائقية حقيقية تُعبّر عن عدل وإنصاف موضوعيين، لثلة طيبة من نماذج المناضلين والأحرار، وشخصيات خيرة من المهمّشين والمغيّبين والمُعْدمين والمسكوت عنهم عن قصد، من رجال ونساء مدينة لا تعرف الذلّ والخضوع والاستسلام

والْيَأْس: شخصياتٌ حركيّةٌ تنشُدُ التحرّرَ وترفعُ رايةَ الوجودِ والأمنِ والأمانِ والسلام: "أكونُ أو لا أكونُ".

الشخصياتُ: بين الواقعِ والرمز...

إنَّ أغلبَ شخصياتِ روايةِ الماِجِديّةِ الرئيّسةِ والثانويّةِ، هي شخصياتٌ واقعيّةٌ حقيقيّةٌ بحثيّةٌ؛ ما زالت سيرُهم الذاتيّةُ وذاكرتهم المرتبطةُ بالأحداثِ تحتفظُ بها ذاكرةُ أجيالٍ فذّةٍ من أهلِ العمارةِ الطيّينِ، تلكَ المدينةِ الجنوبيّةِ الضاربةِ جذورها التاريخيّةُ بعيداً في الأرض. ومن منّا لا يتذكّرُ شخصيّةَ الرجلِ (كريم شيشة) المثيرةَ للجدلِ، وشخصيّةَ (جميلة الكحّاحة) المتسوِّلةِ الشعبيّةِ.

أمّا القسمُ الآخرُ من شخصياتِ الروايةِ، فقد ألَبَسَها المؤلّفُ كاظم أبو جويده أسماءَ رمزيّةً تُناسبُ إحياءِها الفاعلةُ مشاهدَ الواقعةِ السرديّةِ وصورها التاريخيّةِ في حركتها، مانحةً الروايةَ فضاءً تخيليّاً يؤثّرُ في بناءِ السردِ ويشغلُ فكرَ القارئِ بفرادتها الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ.

عتبةُ الروايةِ المركزيّةِ...

(الماِجِديّة) هي عتبةُ الروايةِ المركزيّةِ ومفتاحُ الدخولِ إلى أساسِ مدينةِ السردِ الفاضلةِ، التي كُتبتَ نصوصُها تيمّناً باسمِ هذه المدينةِ الثائرةِ؛ وفاءً لأهلِها وأناسِها. وهي تُعدُّ من الرواياتِ "البوليفونيّةِ" (متعدّدةِ الأصواتِ) والرموزِ والشخصياتِ المؤثّرةِ.

فهذا هو النهجُ الأسلوبِي الذي التزمت به الروايةُ في فصولها الأولى؛ بيدَ أنها بفعلِ الوهجِ السردِيّ والتطوّرِ العموديّ الخطِيّ المتشظّي الاتجاه - أخذت تعتمدُ على تكتيكِ المشهدِ الأقربِ إلى بناءِ المشهدِ المسرحيِّ؛ فبدأ حضورُ هذه التقنيةِ واضحاً بينَ ثنايا نصوصٍ وأحداثٍ فصولِ الروايةِ؛ لكونِ كاتبها مختصّاً بالفنِّ المسرحيِّ.

الأساليبُ الفنيّة... ..

ومن اللّمساتِ الفنيّةِ الأسلوبيّةِ: قيامُ الروائيِّ في كلّ فصلٍ بوضعِ "عتبةٍ نصيّةٍ" تمهيديةٍ تُناسبُ موضوعاتِ الفصلِ، وهي عباراتٌ وأقوالٌ مختارةٌ لمفكرينَ وأدباءَ عالميينَ وعربٍ؛ وهذا دليلٌ على ثقافتهِ الواسعةِ.

وفي جانبٍ أسلوبِيٍّ آخر؛ عمدَ المؤلّفُ في بناءِ جُمْلِهِ وصياغةِ حواراتهِ إلى توظيفِ مفرداتٍ من اللهجةِ العراقيّةِ الدارجةِ؛ لكونها تُضفي على السردِ لوناً من التلقائيّةِ وتمنحهُ تأثيراً مباشراً يُلقي بظلاله الجماليّةِ على نفسِ المتلقّي.

القيمةُ التوثيقيةُ للرواية... ..

وبقي أن نذكرَ أنّ عملاً روائياً كهذا يُعدُّ عملاً فنياً استكشافياً ("أركيولوجياً") مهماً يكشفُ عن حقائقٍ تاريخيّةٍ مهمّةٍ من عهدِ نظامِ الحكمِ السابق؛ للتعرفِ على حياةِ أناسٍ أنقياءَ قدّموا أنفسهم قرباناً للوطنِ ولهذه المدينةِ الصامدةِ.

وعلى وفق ذلك النهج الإبداعي الذي اعتمده الكاتب (أبو جريدة) في مشروعه الروائي الأول، وبوصفه شاهدًا عيانًا وصادقًا على أحداث عصره التي جال بها داخليًا وخارجيًا بطريقة ممتعة تنم عن ثقافة واسعة؛ يمكن أن نعد رواية (الماجديّة) عملاً توثيقياً إبداعياً، ومرجعاً وصفيّاً نوعياً مهماً في أدب الفنّ الروائي العراقي الحديث.

همسات نقدية إضافية...

لعلّ من أكثر ما يلفت النظر في رواية "الماجديّة" تلك المراوحة البارة بين الواقع التاريخي والمتخيّل السردّي، حيث استطاع الكاتب تطويع الحقائق التاريخيّة وصهرها في بوتقة السرد الروائيّ دون أن تفقد مصداقيّتها أو قيمتها التوثيقية.

ويبرز في الرواية حضور شخصيّة "نسرین" كبؤرة مركزيّة تتجلى من خلالها إشكاليّة الهوية المتشظيّة، فهي اليهوديّة العراقيّة التي تتنقل بين هويّات متعدّدة (سارة/نسرین/جميلة/عنيدة/صوفي/ماري) وفق تحولات المكان والزمان والظروف السياسيّة، لتصبح رمزاً للهويّة العراقيّة المتحوّلة والمضطربة.

كما تتجلى براعة الكاتب في توظيف المكان (الماجديّة) ليكون أكثر من مجرد خلفيّة للأحداث، بل بطلاً حقيقياً ينمو ويتطوّر ويتفاعل مع ساكنيه. وتحضر النهايات المفتوحة للشخصيّات كتقنيّة سردية تعكس حالة عدم اليقين التي تعيشها الشخصيّات في ظلّ تقلّبات المشهد السياسي والاجتماعي العراقيّ.

أما البناء الزمني للرواية فيتميز بتقنية الارتداد الزمني (الفلاش باك) التي تكسر خطية السرد وتمنحه بعداً جمالياً وفكرياً، إذ تنتقل السرد بمرونة بين محطات زمنية متعددة ممتدة من خمسينيات القرن العشرين حتى ما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق.

خاتمة...

حقيقة ما أراد قوله الروائي كاظم أبو جريدة من خلال رائعته الماجدية يكمن في هذا الجزء المقتطع منها: «الهوية أكبر من كونها دماءً وجينات، الهوية أكبر من ذلك بكثير. هي روح تتنفس، وذكريات تنبض، وألم يصقل، وحب يُنير، واختيار مسؤول، وإرادة تقاوم».

ويبقى أن نشير إلى أن رواية (الماجدية) بخصوصيتها المكانية وعمقها الإنساني وثنائها السردية، تمثل إضافة نوعية للمشهد الروائي العراقي المعاصر، وتكشف عن كاتب متمكن من أدواته الفنية، قادر على صهر تجربته الذاتية والجمعية في بوتقة النص الروائي.

العمارة - أيلول ٢٠٢٥ م.

الفصل الأول

”الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وإنما ما يتذكره وكيف
سيتذكره ليرويه”

”غابرييل غارسيا ماركيز”

(١)

العمارة / ١٩٥٩

صباحًا، بعد هدوء أعقب أحداث طيّ صفحة الملكيّة في العراق، استيقظت مدينة "العمارة" على وقع هتافات حماسية تردّد صداها في الأزقة الضيقة بجلبة وضجيج، فانساب الجماهير نهرًا بشريًا متدفقًا يتراقص مع صدى الصيحات المؤيدة للجمهورية؛ ضمت بين صفوفها جميع الملل والأطياف وبمختلف الأعمار، حاملةً بشغف كبير صورَ الزعيم "عبد الكريم قاسم" عاليًا، ولافتات تُمجّد عامه الثوريّ الأوّل.

«عاش زعمي عبد الكريمي!»

"المسكوف"، سوق المدينة الكبير الذي اعتاد في ساعات صباحه الأولى على دعة رومانسية متوارثة، تحوّل إلى بحر غاضب امتزجت فيه أصوات الباعة بأناشيد الأزقة في سيمفونية شعبية:

«بعد شهر ماكو مهر... ونذب القاضي بالنهر!»

حانقًا صرخ تاجر حبوب كان يقف أمام دكانه يتابع الحشود: «هذا زمن بوليسي! وين رايعين بينا ذولي؟ تفضّل! هذا الي نابنا من الشيوعيّة! تاليها الأخو يتزوّج أخته!»

رمقه أحد المتظاهرين: «ماكو مؤامرة تصوير والحبال موجودة!»
تراجع التاجر إلى الداخل متجنّبًا الصدام، فيما الهتافات آخذة في الانفجار: «اعدم، اعدم، جيش وشعب يحملك من كل خائن!»

وسط هذا الطوفان البشريّ المحتقن، انسلَّ شابٌّ مُرهَق الملامح. يرتدي قميصًا أبيضَ مطويَّ الأكمام حتى الزند، وبنطالًا أسودَ ضيقًا عند أسفله. حذاؤه مهترئ يكشف عن فصول فقر مُدقع. آثار السهر والقلق بادية على وجهه، وبين ذراعيه طفلة في الثانية من عمرها متشبّثة برقبته، سعالها المتقطع يخترق ضجيج السوق.

حاول اجتياز الحشود المتلاطمة، يلوي جسده بين الكتل البشرية الهائجة، يحمي الطفلة من رفيف العباءات النسائية، والخاچيّات الرجالية، والأأيادي المرفوعة بالهتافات. دفعه أحد المتظاهرين فتعثر عند سلال الخُضر المبعثرة، وكاد أن يفقد توازنه قبل أن يشدّد قبضته على الطفلة ويسند ظهره لحائط أحد الأكشاك. دعس حذاؤه المهترئ دون قصد سمكة "شليح" معروضة أمام امرأة بدينة كانت تجلس وراء سطل من السمك وتدخن سيجارة "مزّين" استقرت على جانب فمها.

انتفضت في وجهه صارخة: «عمى!» - الكلمة ذاتها التي ظلّت ترددها طوال الصباح في وجوه المتظاهرين الذين أفسدوا عليها عملها وشتتوا زبائنهما. ثمّ شيعته بكلمة خجولة تاهت وسط حدة هتافاتهم: «شجّاب شدة الريحان، لباغة الفجل!»

تجاوز الأكشاك متجنّبًا نظرات المتظاهرين، ودلف حاشرًا نفسه بين الزبائن داخل مقهى البؤساء في سوق النجّارين. جلس في زاوية قصيّة، ومن خلال زجاج واجهتها راح يراقب مرور المتظاهرين بهتافاتهم، تلك التي كانت تصل إليه كهمماتٍ بعيدة،

كان ثمة ما يستحوذ على انتباهه بعيداً عنها: ربما وخزة ضمير تُنذرُهُ، أو ربما صرخة استغاثة تتردد في أعماقه، وقد يكون حُلماً ظلَّ ينتظرُهُ طويلاً.

حصّن عزلته ضدَّ كلِّ ما هو مرئي ومسموع، وأغلق نوافذها في وجه صخب الهتافات. غفل عن منفذٍ واحد لا يرى ولا يلمس؛ منه تسلَّل ذلك الدخيل الذي فتق ستار خلوته. رائحة هيل مقدس سبقت كل شيء، ثم تبعها لحن قصير في هيئة صوت دافئ اخترق ضجيج ما حوله: «وهذا چاي مهيل... لأستاذنا وأفندينا».

تأمل استكان الشاي أمامه، فتكشَّف له عن مرساة ذهبية في محيطه الهائج، وعن هُدنة خاطفة في حربه التي لم تضع أوزارها. ارتشف الشاي ببطء، مُلتمساً فيه دفئاً مفقوداً، فتسلَّل إليه إحساس خفي بحضور يقترب. حينها استقرت يدٌ ثقيلة على كتفه الناعم.

«بلاعيمك أفندينا».

التفت ببطء، فوجد نفسه أمام جاسم البيّوض واقفاً خلفه كظلِّ كثيف. البيّوض ذلك الرجل الذي صقلته دكاكين اليهود في العمارة حتى أصبح خبيراً في المتاجرة بالمستحيل. منذ أن كان فتى يكنس محلّ موشيه داود تاجر الشاي اليهودي، تعلَّم أن لكلِّ شيء ثمناً، وأن البشر أغلى البضائع وأندرهما.

هاجر أساتذته في الفترة الممتدة من ١٩٥٢ وحتى هذه اللحظة،
ومن بينهم موشيه داوود، فتولّى عنهم إدارة الأعمال السرية التي لا
تُسجّل في دفاتر التجارة، واشترى بعض ممتلكاتهم بثمن بخس.
عند دخوله المقهى كان بصحبة رجلٍ أنيق في مطلع الثلاثينيات،
تنمُّ أناقته عن ثراء أصيل. علّت وجهَ البيّوض ابتسامةً مصطنعة،
ماتت في منتصف الطريق إلى عينيّه، وجذبَ كرسيًا نحوه وجلس
دونَ انتظارٍ دعوةٍ. أما رفيقه فظلّ منتصبًا في مكانه صامتًا، تتفحّص
عيناه الحادثان كلّ تفصيلٍ في المشهد. انتفضت الطفلة بسعلةٍ
عفيفةٍ، فتناثر مخاطها على صدر الشاب، لكنّه لم يُحرِّك ساكنًا، غير
مكتربٍ بالبقعة التي شوّهت قميصه.

«هو؟»

ألقي الرجل السؤال وهو يشير بذقنه نحو الشاب. ابتسم جاسم
تلك الابتسامة الصفراء التي تكشف عن أسنان صبغها التبغ بلون
العسل الفاسد، وكانت كافية لتبعث الطمأنينة في قلب الرجل
وتخبره أن كل شيء يسير على ما يرام.

وقف الشاب متلعثمًا، بينما أخذ الرجل يتفحص الطفلة كمن
يعاين بضاعة قبل الشراء.

«هاي البنية، مو؟»

أوما الشاب برأسه. «أريد لها مستقبلًا يتّسع للأحلام، ولا أملك
ما ينقذها».

اهتزت الصغيرة بسعال متقطع، فشدها إلى صدره وقبل جبينها الساخن، كأنه يودعها أو يستسمحها عما سيفعل.

«بتنك؟» سأل الرجل بنبرة حادة.

«ها... إي... بنيتي، والله العظيم! لولا العوز ما بعثها رخيصة. أريد لها كنفاً يحميها من المرض والتشرد». عاد السعال يخنقها.

تردد الرجل للحظة، استدار نحو الباب، لكن يد جاسم كانت أسرع. أمسكه من كوعه بلطف محسوب، وانحنى يهمس في أذنه "آية الفسفس" - كلمات تعلّمها من سنوات احتيال طويلة في هذه المهنة. كلمات تعرف أين تلمس نقاط الضعف في النفوس. توقف الرجل، نظر مجدداً للطفلة، ثم عاد.

من الشارع جاء هتاف جديد يخترق جدران المقهى: «سبع ملايين تصيح... فدوه لابن قاسم!»

مسح الرجل شعر الطفلة: «أصدقه. أرى في عينيه يأساً حقيقياً وحباً خفياً». ثم سحب من جيبه الداخلي حزمة أوراق نقدية مطوية بعناية، فرشها على راحته وبدأ يعدّها ببطء مدروس، ورقة تلو الأخرى، ثم مدّ يده نحو الشاب: «ثمن كافٍ؟ ها، ما قولك...؟» انقضّ الشاب على المال بحركة متشنجة، أمسكه بكلتا يديه، ثم دفع الطفلة برفق مصطنع نحو الرجل. «خذها... هي لك». صفّق جاسم بيديه مرة واحدة، صفقة جافة قاطعة: «تمام، خلصنا. مبارك للطرفين».

تشبثت أصابع الطفلة الصغيرة بقماش قميص الشاب، تعلقت به بكل ما تملك من قوة.

بدأ ينزع أصابعها واحدًا واحدًا، يدها ترتجفان رغم محاولته السيطرة عليهما. «سيكون لك أكثر من أب». قالها بصوت مبحوح وهو يسلمها للرجل.

حملها الرجل بحذر شديد، وفي عينيه لمعة غريبة، كأنه عثر على كنز ضائع. أطلقت الطفلة صرخة مكتومة، مدّت يديها الصغيرتين نحو الشاب في توسل آخرس. شدّها الرجل إليه خوفًا من سقوطها، لكن عينها ظلّتا معلقتين بالشاب، وفيهما استغاثة جعلت شيئًا ينهار في صدره.

لم يحتمل. استدار بسرعة وانطلق نحو باب المقهى، هرب منها قبل أن ينهار. ابتلعه الزحام في الشارع، مضغه، ثم لفظه وحيدًا على رصيف جسر الماجدية، يحمل في جيبه نقودًا ملطخة بالعار.

في تلك اللحظة، التقت كل خيوط المأساة في عقدة واحدة: الشاب غادر المقهى حاملاً عاره في جيبه، والرجل الأنيق يحاول تهدئة الطفلة التي راحت تصرخ كعصفور مكسور الجناح، وجاسم البيّوض مشغولاً بعد حصته من الثمن الملطخ بالدموع. في الخارج، بائعة السمك البدينة ما زالت تشتم المتظاهرين «عمى! عمى!» وتعالّت أصواتهم نكاية بها: «سبع ملايين تصيح... فدوه لابن قاسم!»

استجابة للفوضى راحت المدينة تصرخ بجميع سكانها، كلُّ بطريقته: الطفلة بخوفها، والمتظاهرون بأحلامهم، وتاجر الحبوب بغضبه، والشاب بصمتِ يأسه الذي يقطر ندمًا. وبين ركام "الكافونيا" من الصرخات المختلطة، اختفت جريمة صغيرة وسط جلبة التاريخ، مثل "بوله بشط".

«هناك حكاية ستلد أخرى... وطفلة ستغيّر مسارات الماجدية».

همس جاسم البَيَّوض وهو ينسحب قابضًا على ثمن وساطته، مبتعدًا عن عميله - الرجل الأنيق الذي اختفى بالطفلة في غياهب المدينة كأن لم يكن.

(٢)

"الماجدية، ١٩٨١"

"الماجدية" مدينة ولدت مُلتبسة الوجود بين عصرين، تستحضر
أيام كهنة الدم حين كان العُدُّ بالضحايا لا بالساعات، وأيامًا كان فيها
الخوف هوية وطنية.

كانت الوسائد تنوء بالأسرار في لياليها المُلبدة بالإشاعات،
والناس ينتظرون خُطى مترددة في أزقة ذاكرتهم لتختم حكاياتهم
بجَلبة وعويل.

في واحدة من هذه الليالي، حين غُرز الهلال وسط الماء كخنجرٍ
متدلٍّ، توقّف الحاجّ زكي متسمّرًا عند زقاق ضيق بين شارعي
الملعب والجامع.

«فدّوه...»

ارتعدت فرائصه، ثمّ انهار على ركبتيه أمام الشبح. «خذ كل
شيء: المحفظة، الساعة، خاتم زواجي». الشبح لم يكن لصًا
يكتفي بلفّة سجائر من نوع "المزّين". كان الوجه الآخر للمدينة،
الظلّ المتحرّك الذي حدّر منه الآباء أبناءهم.

«اخرس!»

«أطفالي؟»

تحرّكت فوهة المسدّس راقصة على جمجمته.

الخوف في المآجِدِيَّة ليس من الموت بعينه، إنما من تفاصيله
الملغمة بالأسئلة: أين ستسقط جثتك؟ مَنْ سيحمل نعشك؟ كم يومًا
ستبقى مرميًا في الشارع؟ أي شائعة ستلصق باسمك؟ وهل سيُكتب
اسمك على شاهدة قبر أم ستُدفن برقم مجهول؟
اندفع الحاجّ هاربًا نحو الجامع. صهلت خلفه رصاصة حاسمة.
تناثر الدم على الجدار الأبيض المقدس راسمًا بخطّ كوفيّ أنيق:
«الله أكبر!»

فَرَّتْ أسراب الحمام من المئذنة وتبعثرت في السماء. انفتحت
أبواب البيوت فتدفق منها الأهالي إلى الشوارع الترابية في موجات
متتالية. النساء يجرين بشعور سافرة انسدلّت على أكتافهن، وبأثداء
تتمايل وتخفق، والرجال يتعثرون بملابس نوم غريبة كشفت عن
ارتباكهم المفاجئ. الأطفال اتسعت عيونهم حتى بدت وجوههم
الصغيرة مسرّحًا لمعركة صامتة بين الفضول والخوف.
«حرامي!»

صرخة مجهولة فضّت بكاراة المشهد، فتلاشى الجميع مثل دقيق
فرّقته الريح، تاركين الجثة للعدم والتأويلات. تشيعهم داخل بيوتهم
كلمات المجنون چوبلّه، البطل السابق في رياضة المصارعة:
«كِلْمَن مَيَطُش لبيت أمّه - خنجر مكسور بكسّ أمّه».

خرجت الحروف من فمه أشبه بشظايا زجاج، إعلانًا لانكسار لا
رجعة فيه. السباب لم يمسّ مقدّس أمهاتهم فحسب. كان أعرق
وأقسى. طعن قلب وجودهم الهشّ.

لجنون چوبله حكاية تفجّرت ساعة مشهد الإعدام الذي نفّذه رجال "البعث" في المتنّزه، لمجموعة من الهاربين من الحرب يتقدمهم عليّ معيدي والسيد حسن، كانا من أشهر شقاوات الماّجديّة. ما هي جريمتهم الكبرى؟ يا لسخرية الحياة! التخلّف لاثني عشر يومًا عن مرافقة قافلة الموت في حرب إيران. حينما أبصر چوبله تفاصيل هذا الوجع، تكشّفت أمامه هشاشة كل شيء، وسيطر عليه سؤال واحد: «هل الجنون فينا منذ الأزل، أم إننا نختبئ خلف قناعه رهبةً من وحشة الوجود؟» صرخ بصوت يتلاشى حرفًا بعد آخر، وظلّت شفتاه مُطبقتين دون حياة.

«كلّمن ميّطش لبيت أمّه - خنجر مكسور بكس أمّه!» تحوّل چوبله إلى طيفٍ مُخيفٍ يجوب أزقة المدينة، سلاحه الوحيد صرخته البذيئة التي تحوّلت مع الوقت إلى طقس يوميّ ينتظره الناس بمزيج من الخوف والترقب. صرخة بخنجر افتراضي يشهره في وجه الجميع مع كل إعلانٍ رحيلٍ لأحد أبناء المدينة بفعل حماقات السلطة. خنجر ذو نصل أعمى... أي نعم لا يعيد الماضين مع الرذاذ، لكنّه يُحمّل الناس مسؤولية فقد أحبتهم، فصمتهم أمام المنايا خنجر يقطع أوداج وجودهم. الماّجديّة ظلّت مُلتحفة بعباءة صمتها واستسلمت لغفوة سرمدية موروثه مع صاحب الظلّ المستطيل الذي يطول ويقصر حسب مزاجه.

وخذها لم تغف تلك الليلة امرأة كانت تحتضن الوجد في غرفة ضيقة فوق سدة النهر، تنتظر زوجها الحاج زكي، تعدّ دقائق الساعة بحبات مسبحتها:

«الله، ومحمد، وعلي، والحسين ويانه». وأربعة أطفال يغفون على وسادة الأسئلة البريئة: «يمّه، يمّه: يمتّه يرجع ابونه؟» في مقهى حسين الرّسن المتصدّر لفلكة الماجدية، كانت تُحاك الحكايات "مشاور!" يُخلّق بها دخان السجائر والنراجيل ملتويًا بهيئة أفاعٍ زرقاء تتسلق فضاء المقهى. الرّواد يخوضون تحليلاً وتأويلاً في بحر مقتل الحاج زكي دون وصول لحقيقة تشفي غليل أسئلتهم. وفي زاوية في أقصى المقهى وقف رجل عجوز يرتشف الحامض دفعة واحدة، ثم أطلق سرّ الرؤوس المفقودة: «يخزنونها في جزر الهور الغامضة».

خيّم صمّت ثقيل على المقهى. ظلال الزبائن تتراقص على الجدران مع كل نفس وقرقرة نرجيلة، ومع كل جدال بين متهرب من الدّفع وصاحب المقهى.

أضاف العجوز: «أغنياء الخليج يشترونها بالذهب. يحقنون سوائلها في أجسادهم ليعيشوا مرّتين». وقبل أن تكتمل الصدمة، قطع صوت حجر الدومينو المشهد. أحد الزبائن كان غائبًا عن كل هذا الصهيل، منشغلًا بمنازلة مصيريّة: «دوشيش، قفلت!»

في سرداب المَلاية سعدية، تزيّنت الجدران بنقوش حملت
ذاكرة طقوس قديمة. جئن العجائز يحملن صور ذويهن، يبحثن عن
رؤوسهم التي اختفت في ظروف غامضة لم تُفسرها السلطات
كالعادة متلبسة بغموضها. أشعلن الشموع في دائرة واسعة ووضعن
في المتصف قبعات وعمائم وشماعات، آخر ما لامس رؤوس
المفقودين.

«الرؤوس تعرف طريق العودة». تنهدت الملاية سعدية، ثم
أضافت: «تحتاج إلى من يناديها بالاسم الصحيح».

امرأة طاعنة في السن والوجع فرشت سجادة الصلاة المطرزة
وارتمت فوقها ساجدة. فتاة شابة أعدت المبخرة النحاسية، العود
والبخور يفوحان منها. راحت تطوف فوق الرؤوس بحركات
الدرأويش، حتى ختمت الملاية سعدية طواف الشابة بصراخها
الهستيري: «الرأس مسكن الروح».

وعند ركن قصي، جلس الصبي "رهيف" ابن الخمس سنوات
تحت قدمي أمّه "علاهن". اعترضت النسوة على وجوده بينهنّ،
فطمأنتهنّ بأنّه مصاب بعشى ليلي، لا يبصر شيئاً.

أشرقت في عيني الصبي الواسعتين رغبة بافتراس المشهد. غاب
عنه مغزى الطقوس، غير أن إيقاع أصواتهنّ سحره فأثار فضوله.

توسّطت المجلس امرأة سمراء تردّد أدعية من كتاب مفاتيح
الجنان. غمست أصابعها في الحنّاء المعجون بماء الورد والزعفران،
ورسمت على الجدران علامات مستعارة عن شيوخ صابئة المدينة.

«هذه العلامات حفظتها عن أمي، وهي عن جدتي، نساء عرفن كيف تُحمى الرؤوس من السرقة».

انضمت إليهنّ زوجة الحاجّ زكي وهي تقول: «سبع حبّات من ملح الفاو» راحت تنثر بلّوراته في زوايا السرداب. «وسبع ورقات سدر منتزعة من شجرة مزروعة في كربلاء». ثمّ تمتت: «راسك بالدمع يا حسين لو يرضون أغسلنه».

انحدر دمع عينيها فتلاّأت فيه صورة الحاجّ، فتصاعدت زفرات النساء فجأة. بدأن باللّطم، فتهدّل الزيج عن صدورهنّ كاشفاً عن بياض كالحليب. تهادت علاهنّ من بين الجموع، فانصهرت روحها في النواح المشتعل.

الانحناءات المتمايلة للأجساد حرضت رهيف للاندفاع مختلساً النظر إلى تفاصيلها المثيرة، ارتعشت أجفانه أمام مشهدٍ لم تألفه عيناها من قبل - مشهد تلك الأجساد المتحركة مع كل ضربة كفّ.

سرت في جسده رعشة غريبة، وشعر بحرارة مفاجئة، ثمّ ضُعن بتغيّر طراً على قضيبه الصغير. نظر إلى أسفله بخوف، محاولاً فهم ما يحدث له. زحف إلى زاوية مظلمة في أقصى السرداب، وهو يضغط على ملابسه بكفّه الصغيرة خجلاً.

انتبهت له المرأة السمراء. لم تتوقّف عن اللّطم، مُصوبة نظراتها إليه. تأملت ارتباكها، فارتسمت على شفيتها ابتسامة غامضة.

انسدل ثوبها بحركة متعمّدة، فلم تسارع لإصلاحه. تمايلت مع إيقاع النحيب بطريقة مقصودة، وكانت حركاتها متقنة أشبه برقصة صامتة موجّهة للصبيّ الذي شخصت عيناه ذهولاً.

تسارعت أنفاسه، وتصبّب العرق من جبينه الصغير. فجأة، انتفض وسقط أرضاً مغشياً عليه. لم تلحظ علاهين حال ولدها الذي غاب في مملكة سحرية بين النوم واليقظة.

انحنت المرأة السّمراء ولا مست خلسةً بأطراف أصابعها المُلطّخة بالحناء قضيب الصبي، راسمةً عليه علامة سرّية، ختمًا قديمًا ستظلّ روحه تحمله للأبد، كحدّ فاصل بين طفولته التي انتهت، وحياة أخرى تنتظره.

في يوم آخر من أيام الماجدية، اكتسى المحطّ، ذلك السوق الصغير، بهالة من الترقّب. كان يمتدّ رابطاً شارعي المدينة من وسطها، تمامًا مثل قطعة قماش ملوّنة حول خصر راقصة. تشابكت فيه ظلال الفواكه والخضر مع صياح الباعة وهمسات الهلع. تجمهر الناس حول الصبيّ رهيف الذي وقف يلهث كعصفور مذعور، متشبّثاً بأطراف عباءة أمّه علاهين.

صرخ الصبيّ بصوتٍ يرتجف، ووجهه يَمُور شحوبًا:
«شُفْتُ بعيني! رجلًا يرقص بلا رأس، بلا ملابس "بس بلبول متلوح" يشغل منبر الجامع العالي! كان جسده يلمع تحت ضوء القناديل المُعلّقة، ثم صار شفافًا مثل قطعة زجاج تذوب في الهواء! تاركًا أثرَ فضلاته العفنة فوق المنبر». تناقلت الأفواه الرواية،

مُضَخَّمة تفاصيلها، ما بين سخرية وخوف، مُضيفة إليها من مخزون
كبار السنّ من حكايات الجنّ والعفاريت.

(٣)

السماء لم تُنذر. انفجرت غضبًا ووحشية كجرح قديم، ينزف،
يتفتّح الآن. العواء يخترق المدينة، يمزّق الصمت، يطعن الجدران
والذاكرة. الغبار: فوج من المجانين المتطائرين، يرقصون، يغنون،
يصعدون وينهارون فوق كل شيء. الأشجار بجذورها الهشة
تتطاير، الذكريات تتطاير، الأسماء تُقتلع، الوجوه تُمحي. المدينة
تنفجر داخل نفسها.

تقول الأساطير القديمة: إن مقام "سيّد مديح" القابع على أطراف
الماجدية هو المأوى الذي كانت تغفو فيه الرياح. وفي عاصفة
اليوم، هناك من أيقظ شيطانًا في مهده، فانفجر الفضاء بثورة لا
ترحم. خرجت من جوف المقام قوةً غاضبةً، بدأت تلتهم وجه
الأرض، لتعلن بصوت مزمر أن زمن الحكايات الهادئة قد ولى.
صار المقام بوابة للجحيم.

يرى الأهالي أن كل عاصفة تتفجر هنا تحمل خبرًا عن سيّد
هاشمي جديد سقط برصاص السلطة تحت لافتة «خائن، عميل».
تواطأت الطبيعة مع الدم. صار الموت كمضغ علكة. يسخر
الناس بمرارة: «سيّد لكلّ يوم؟» يضحكون وضحكهم نواح. في
الأيام الهادئة، يتبادلون التهاني: «جرّوا صلوات! فلا ميّت لهذا
اليوم!»

السلطة تظلّ مُحصّنة في برجها العاجي، تصدر بياناتها المُخدرة عن استتباب الأمن. وآل البيت يدفعون كعادتهم ثمن كل عاصفة. هناك، على تلة بارزة، وقف حمدان الشاب الثلاثيني يراقب المقام الذي أحاطت به مجموعة قبور لأطفال المدينة. وجه القديس المنحوت في أعلى القبة كان يتأمله بعينين تعرفان سرّ المستقبل.

فكّر ساخراً: «أي جدوى من زجّ أجسادهم الصغيرة في حُفر حول مقامه؟ هل ليقاسمهم حلاوة النذور، أم ليلعب معهم "غميضة الجيجو" و"المخلق"؟»

حمدان، بقامته الطويلة المنتصبة كعلامة استفهام متمائلاً مع الريح، شعر بالخوف. امتدّت يده نحو الحربة الموروثة عن أبيه. أدرك أنها أكبر من مسمّى سلاح. غدت عصا ملكٍ منفيّ. هيمن عليه هاجس مراقبة الزوّار وقرابينهم: ديوك قرمزية في أقفاصها، وخراف سمينة موزّعة بين يد الناذر ويد السارق.

تردّدت في رأسه كلمات رفيق السلاح "رزگار": «لا تسرق نذورهم، اسرق سذاجتهم وارمها في الشطّ».

كلّما اقترب واحدة من غاراته المقدّسة غشيته روح متمرّدة، روح تأبى أن تُباع الجنة بديك أو خروف. كم من طفل يموت جوعاً في هذا العالم المتناقض؟ وعند اللحظة ذاتها اختار حمدان قدره: شبح ليليّ يحمل في صدره نوراً، يوزّع غنائم النذور على أبواب الفقراء، لا يُبقي لنفسه سوى ما يديم شعلة روحه.

في جميع جدالاته الفلسفية مع أمّه فضّة في مقبّل فتوّته، كان صوتها صداداً قاتلاً يتجول في صندوق أفكاره: «يّمّه، حمار السيّد ما يركب».

يتناثر جوابه الأبدي حكمة تطيح بالسكون الماكث بينهما: «أليس الحيّ، بنبضه وأسئلته وتمرّده، أحقّ بالبقاء من سكون الموتى؟»

سؤال واحد أطلقه حمدان في عتمة الليل في أسمع أمّه. سؤال حوّل يتيم الخامسة عشرة ذنباً. فكانت اللحظة الحاسمة: حربة الأب ترتجف في قبضة الابن، صرخة الأم تستنجد به، ودم السركال الآثم ينزف بين كواهين الهور.

تلك الحادثة كانت بداية لفصل جديد من حياتهما. أدّت إلى انبطاح كبار القرية. تمّ نفيهما خارج حدودها - قاتل وأمّه سارا في دروب الغربة: حمدان الذي كان يحمل ثقل تلك الذكريات، وفضّة قنديل الصبر الذي يضيء دربهما.

اقتربا من قرية الشيخ هلال الواقعة على أطراف العمارة. أمسكت فضّة برأس ابنها: «لا تخف يا ولدي، الله الذي أخرجنا من ضيق الهور سيجعل لنا فرجاً عاجلاً قريباً كلمح البصر أو هو أقرب من ذلك».

«في بيتي متّسع لمن يرفض الذلّ ويأبى الرذيلة». هكذا استقبلهما الشيخ هلال بصوت عميق.

وبين ممرّات قصره حيث كانت تتراقص ظلال زوجاته الأربع،
اختزنت الجدران أسرارًا. أربع نساء تقاسمن سقفًا، كل تحمل
قصّتها. الثانية والثالثة غادرتا بمرض غامض. ثمة شكوك بإدانة
صريحة تحوم حول أم صقر - الزوجة الأولى، التي تتكىء على قوّة
أمومتها. والرابعة الصغيرة تحمل في عينيها دموع عُقم ونسبًا
مقدّسا.

دخلت فضة المشهد بحنكة. في عُقم الزوجة الرابعة رأّت فيه
مفتاحًا تطلّ من خلاله على أبجديات العائلة، متسلّحة بمعلومات
الخادمة عنيدة، وما ورثته من جدتها من علاجات شعبية. همست
للزوجة الرابعة: «رأيتُ في المنام طفلًا يشبه الشيخ، يملأ القصر
ضحكًا، وآل البيت يباركونه».

برزت الخادمة عنيدة، تجسيدًا حقيقيًا للقبائل المقهورة. في
عينيها كانت تتلألأ نجوم متمرّدة وعقّة نادرة. مقابلها صقر ابن
الشيخ هلال من زوجته الأولى - شابّ نزق، اخترق حمّام القصر
حيثُ كانت تغتسل عنيدة فيه بعد يوم شاقّ من العمل في خدمة
الزوجة الرابعة. وبحركة واحدة، شجّ حجر الخفاف الأسود المتكور
في راحتها رأس صقرٍ. أدماه. لم ترتعب. وقفت بوجهه عارية إلا
من كبريائها. في يدها يلوح الحجر مُتأهبة لضربة أخرى:
«النمور لا تُصطاد، إنّها تَفترس».

سعيًا منهما لستر العار الذي أحاط بالقصر، اتّحد رأيُ الشيخ
وحكمة فضة على أن تزويج حمدان من عنيدة هو السبيل الوحيد

لإطفاء تلك الجذوة المستعرة. همس الشيخ: «الزواج ستر يا فضّة... يؤلّف القلوب ويضمّد الجراح». أجابته بحكمة الكبار: «تدهده الجدر ولكه قبغه!».

ثمّ أضافت: «قد تتهاوى الجدران، لكن القلوب التي من طينة واحدة ستجد بعضها».

بعيداً وقف صقر متّكئاً على الجدار، يلتهم المشهد بنظرات حاقدة متوعداً برّد أنكى من اقتحامه الحّمّام على عنيدة.

ببادرة إنسانية نادرة من الشيخ وأهالي قريته شُيّد على أطرافها بيت للزوجين بمشاركة الجميع، الذين أحاطوه بهبات بسيطة. هناك نهلت عنيدة من حكمة فضّة، وامتزجت رائحة الخبز بضحكاتها الخجولة.

«الحياة تُعطي بيدٍ وتأخذُ بأخرى، أما اليوم فهي تمنحُ بكلتا يديها».

هكذا تمتّمت فضّة لنفسها، قبل أن تنادي ابنها بصوت متهدّج. أمسكت كفيّه، ارتعشت حروفها في أذنيه:

«عنيدة في شهرها الرابع يا ولدي... وصبيّ مشاكس يتجوّل داخل بطنها، أقسم لك بدم أبيك». لمعت عينا حمدان بفرح حذر. «ستسمّيه ريحان، ها، ريحان لا تنسى» ثمّ أضافت: «زارني طيفه نهراً يروي العطش ويحيي الأرض».

انطفأ في وجهها وهج الرؤيا. ارتخت يدها. انحنى جذعها فجأة. أسندها إلى الفراش. ابتسامة باهتة علّت شفتيها: «أديت رسالتي...

ستكون أبا. اذهب، أخبرها بالبشارة بقدوم ريحان... بس ها... لا تعلمه شرب العرگ مثلك!﴾

جحظت عيناه، مدرگًا وداعًا نهائيًا. أشارت له أن يمضي. انسلّ مثقلًا بمزيج من فرحة الأبوة ويتم الابن. أغمضت عينها، ثم أخرجت مسبحتها وتمتمت بحروف مقطعة: «نادِ عليًا مظهر العجائب...»

استسلمت للريحيل دون مقاومة مثل نهر أنهى رحلته عند سدّ كبير لا تنفذ منه قطرة ماء واحدة وإن صغرت. عاد ليطمئن. وجدها ساكنة.

﴿عنيدة!﴾

كانت صرخة رجل لم تُبكه الأيام. هرعت عنيدة، ارتمت على معلّماتها، هزّتها. حين أيقنت أن روح فضّة قد غادرت دون رجعة، انتفض فيها حزن موروث.

تجمّع أهل القرية بعدها. بكى الشيخ وزوجته الرابعة بصدق من فقد شيئًا ثمينًا. خرجت جنازتها محمولة على أكتاف الرجال. اصطفّ الجميع يلقون كلمات الوداع: «رحلت فضّة التي كانت تعجن الخبز لكلّ جائع!»، «رحلت تلك القديسة التي كانت تهدهد أطفالنا!﴾

وعند عودتها للبيت، جلست عنيدة، واضعة يدها على بطنها: «سيعرف كل شيء عن جدّته فضّة، كل شيء».

الحياة لم تعفِ حمدان من الألم. لم يمضِ وقت طويل حتى أدرك أنّه شاخ سريعًا بعد وفاة أمّه. بدأ يشعر بثقل الفراق يعصف بروحه. الذكريات تشدّه إلى الوراء بسلاسل ثقيلة تكبل حركته. فراق عنيدة ضاعف وجعه. خدمة المؤسسة العسكرية التي لا تعرف الرحمة حطّمت روحه. غدا داخلها شبحًا يتلاشى، تحاصره جدران الاغتراب، لا يراه أحد.

رزگار الكرديّ كان صديقه الوحيد ومُعَلِّمه. كثيرًا ما ردّد على مسامعه كلمات الشحن، والشحن للهمم، ومجانبة الخوف، ورفع الرأس عاليًا: «حذار يا حمدان من الاستسلام، الخوف عطر قاتل، والمطارِدون يشمّونه».

«نحن قطع مُطارِد بين الحياة والموت، لا بد أن نختار أحدهما».

هكذا قال رزگار وهو يمسح التراب عن بندقيته. ساعة محنة حصارهم في خندق ضيق تحت وابل من الرصاص، وعدو مجهول يتصيد أنفاسهم في بداية سيناريو الحرب العراقية الإيرانية.

التفت إلى حمدان بعينين تشعان حكمة مريّة: «أنت تعيش في المنطقة الرمادية يا صديقي... لا أنت للخاكي، ولا أنت لزوجتك عنيدة. هذا التردد سيقُتلك قبل أن تقتلك رصاصة جبان متربص».

صراع مرير استبدّ به. مزيج من الخوف والقلق عاشه حمدان طيلة مكوثه في وحدته بعيدًا عن عنيدة موزعًا ومشتّتًا بين البقاء والهرب. تواطأت صور صدام ضدّه - تلك الصور التي امتلأت بها

جدران الوحدة - سبعون وجهًا بسبعين مكانًا، ارتجاف شواربه يعدّ من خلاله أنفاس الجنود، وسوادها يخيم ليلاً أبدياً على أحلامهم. وفي ليلة شحّ فيها الضياء، كتب حمدان على علبة سجائر سومر بخط ركيك: «وداعاً. لن أستمّر فأراً خائفاً».

تركها تحت رأس رزگار النائم وانطلق يلتهم المسافات، متذكّراً وصيّة أمّه: «امش برأسك مرفوعاً، وقلبك يقظاً».

حينها استعار من رفاقه الهاربين من الخدمة العسكرية شعارهم المرّ لوصف أحواله: "شَلَعْتُ رَحَاتِي" - أي أن طاحونة الحرب تعطلت مؤقتاً بهروبه، لكنّ حياته توقفت عن الدوران.

تسلّل جنوباً، معلناً هروبه من الجيش صراحة دون تزويقات وتأويلات. ابتلعه جبال كردستان يتزحلق في مصارينها، حتى لفظته أخيراً فوق تلة في العمارة تطلّ على قرية الشيخ هلال.

وجد عنيّدة مستلقية على ظهرها، وبطنها المنتفخ يشير إلى طفلهما المنتظر. تسوّر السور الواطئ فاستيقظت. انتصبت شفتاه تطبقان على صمتهما، وأظافرها في ظهره، صراع ديكة مثير ألقى ظلاله على حميمية الحوار الأنيق بينهما. انتفض حمدان داساً فيض رجولته بين فخذيهما، حيثُ وطنه الأوّل.

عضّت أنفه: «ولك حميدان، تختفي لتعود هكذا؟» عصر ثدييها متلمظاً بشفتيه، راسماً بلسانه كلمات شغف على صفحة هالتيهما: «أنتِ وطني الوحيد الذي أجتهد للدفاع عنه».

هشّ حمدان ذباب ذكرياته وطنينها وراح يراقب مقام سيّد مديح وهو يتجهّز بحربته. عند القناة المائيّة الصغيرة، لمح صورته المرتعشة في الماء، محاصرًا بتهم القرية: "خائن، هارب، سارق نذور". لم يرَ في نفسه سوى صبيّ يريد العدالة، يسعى خلف مسؤوليّة تفوق عمره.

خاطب نفسه: «سأنتظر حتّى يزداد عدد الزوّار». اختبأ خلف التلّة، مستعدًّا لما قد يأتي. فجأة، غير مسارات خطّطه ظهور مجموعة عسكريّة اقتحمت المقام. تسمّر يراقبهم بصمت. أحاط الجنود بالمكان، يفتّشون ويقمعون الزوّار بقسوة. جرّدوا شيخًا من أمتعته، وقد سحقوا كرامته تحت أحذيتهم. امرأة أخفت طفلها، فتعرّضت لسباب الجنديّ وبصاقه. بكاء الأطفال وخوف الشيوخ وسكوت الجميع تجاوب مع عنف الجنود.

على حين غرّة وبهيّة كوميدية مباغتة، انتفض متخبّطًا ديك من بين ألوان النذور المختلفة، رافضًا سجنه داخل قفص خشبيّ. صوّب إليه الضابط نظرة صارمة تلاها برفسة مجنونة أخرست صوته، مؤكّدًا هيمنته على الجميع.

تساءل حمدان بينه وبين نفسه: هل كان مجبرًا بهجماتِهِ السابقة على الزوّار، أم هو أيضًا كان جزءًا من هذا الظلم الذي يمرّ أمامه؟ ارتفعت أصوات الاستجواب، هكذا تخيل وربما كان ما سمعه حقيقة يجب احترامها: «هل بينكم امرأة اسمها نسرين؟»

زاد الخوف بين الناس. تفرّست العيون في بعضها بلا إجابات.
تابع العساكر وهم يجمعون الهويّات ويصوّرون الوجوه. الناس
يُجرّدون من أسمائهم وذكرياتهم واحدًا تلو الآخر.

حين ظنّ متوهّمًا أن جنديًا لمحّه وأشار نحوه، انطلق بلا تردّد.
صار الهروب خلاصه الوحيد. تذكّر كلمات رزگار: «حين تصير
الأرض مسلخًا، يصبح الهروب صلاة». ركض عبر الطريق الذي
حفظته روحه. شعر بظّلٍ يرافقه: «لنهرب معًا».

عبر سنابل القمح مضيا بجسد واحد، سترتهما الطحمة
والعاكول، محت الريح آثارهما. أحيانًا، بدا له أن الكائن يحمله
مرّة، وعديد مرات هو من يحمله. سأل نفسه لاهثًا: من هذا الكائن؟
«أنا أنت، أنا خوفك، زوجتك، طفلك، حلمك الهارب».

في الوقت الذي كان يقترب فيه من بيته بخطوات مدعورة،
كانت عنيدة تجلس في هدوء مع طفلها ريحان، ترقب الزمن الذي
تأخرت فيه عودة بعلمها محملاً بغنائمه. كان يدور في خاطرها
القلق، ويملأ قلبها صوت الأمل.

ذهلت حين سمعت صوت ارتطام جسد بأرض الباحة. خائفة
رفعت رأسها عن طفلها ريحان الذي كان يرضع نهمًا. نظرت باتجاه
الباب. رأت زوجها ملقى على وجهه وسط التراب، مجردًا من كل
شيء. كانت تنتظره حاملًا قوت يوم عصيب آخر. كان جسده
يرتجف، وثيابه مُمزقة ومُلطخة بدمٍ وطنين. لهجت باسمه بنبرة
استفهام:

«حميدان!»

سريعًا وضعت ريحان في مهده الخشبي، وتقدمت بخطوات حذرة. هل هذا زوجها، ذئب البراري الشامخ الذي تعرفه؟ مستحيل ما تراه الآن. هذا الكائن الذي أمامها مجرد كتلة من اللحم المرتجف تتنفس بصعوبة. انقبض قلبها وهي ترى الخوف مستحوذًا عليه بهذا الشكل. ركعت بجانبه وسألته بصوت خافت: «شبيك يبعد رويحتي؟»

رفع حمدان رأسه ببطء. كانت عيناه غائرتين ومليئتين برعبٍ لم تره فيهما من قبل. بدلًا من أن يجيب، انفجر بشتائم قاسية، لم تكن موجهة لها بقدر ما كانت تنفيصًا عن ألمٍ وخوفٍ أكبر.

كي يحافظ على صورته المشرقة في وجدان عنيده استجمع آخر ما تبقى من قوته. راح يزحف نحو حظيرة الماشية في أقصى البيت، متجاهلاً وجودها تمامًا. تبعه الكلب على مسافة، يرقص بذيله الذي توسط ساقيه بحركة ساخرة من صاحبه.

هناك، على الأرض الباردة، استسلم جسده أخيرًا للظلام. رائحة التراب الرطب في الغرفة أعادته في لحظة إلى تفاصيل زنزانتة العسكرية، إلى الوحشة ذاتها التي ظنَّ أنه قد فرَّ منها إلى الأبد. «شروكي».

تلك الكلمة العنصريّة التي كانت تُطلقها تنمرًا ألسنة رفاقه الجنود من أهل بغداد وما حولها صعودًا. كلمة حوّلتها إلى آلة قتال شرسة تحت شعار «عليّ وعلى أعدائي». ذكريات بطولاته السابقة

تصطدم الآن بنظرات كلبه المتشّفية الذي كسّر عن أنيابه البيضاء،
ساخرًا من ذلّ لم يألّفه في سيّده.

«يا لسخرية القدر» وهو يرى ما يفعله كلبه المشاكس صرخ
بمرارة مستحضرًا كلمات صديقه رزگار ساعة تلقّيهم أوامر العريف
القاهرة بالزحف والهرولة وشرب الماء الأسن.

داخل الحظيرة، شعر بطمأنينة عميقة وهو متقرفص بين ماشيته.
التفت إلى عنيدة وقال لها: إذا سألوا عني فاخبريهم: إنني لم أرجع
بعد من وحدتي العسكرية التي التحقت بها قبل شهر.

«الباب، اغلقي الباب سريعًا». أسرع نحو باب الحوش
لغلّقه، والشفقة تعتصرها وهي ترى بطلها يتنازل عن شجاعته لسبب
تجهله، وقد احتشدت الأغنام حوله في صمت. العنزة وحدها من
خائته بصخبها الفاضح. تذكّرت حينها كلام شيخ القرية: أن الله هو
من ستر الغنم وفضح الماعز.

اقتحمت عنيدة الحظيرة من جديد وهي تصرخ به: «ولك
حميدان... بس سديت الباب، صار الدگ مثل المدافع! الحگ الننا
يمصيوب!!!» قفز مثل غزال جريح، متعثّرًا بين القطيع، إلّا أنه
توقف وعاد موليًا ظهره لها. فسقط في يدها آسفة لحال زوجها،
واتجهت للباب تفتحه بشجاعة مرتعشة، فهوت أمامها امرأة بعاءة،
وثياب مُمزّقة، والدم يرسم على وجهها خريطة محن.

عقب تلك الليلة المرهقة ومع أوّل خيوط الفجر، انتصبت عنيدة
بقامة قروية صلبة واندفعت نحو تتورها الطيني، ترصف أقراص
الخبز بإيقاع متوارث، فامتدّ من فمه دخان طرد بقايا الظلام. شخير
حمدان فتّ السكون، وكلبه باسط يديه يواصل النظر إليه بسخرية
أثارت غيرة عنيدة، فطارده معنّفة: «يا جلب يا ابن الجلب».

ارتفعت الشمس قليلاً فتوسّطت أرغفة الخبز الذهبية طبق
الخصوص، بجانب ماعون القيمر بالدبس، محاطاً باستكانات الشاي
المتمايلة.

أفرعها مرقد ضيفتها الخالي، لتجدها متكئة على سور البيت
الواطئ تستحم بإشارات الشمس المحذرة. تحسّست وسادتها
المبلّلة، فعرفت أن ضيفتها قد قضت ليلتها في حرب صامته مع
أشباح ماضيها.

راقبتها عند الريوك وهي تحرّك ملعقة الفافون في استكان الشاي
أشبه بمن يبحث عن طالع، وحركة أناملها بدت مرتجفة من حرارة
الرغيف لركة تتحكّم في تفاصيل وجودها المرفّه.

سكن كل شيء في البيت بعد صخب نهار طويل. استلقت
نسرین على فراشها المؤقت، تنصّت لأنفاس العائلة وهمساتهم،
وتتأمل سقف السماء المرصّع بالنجوم متسائلة: كم ستبقى شبّحاً
يطاردها الخوف، وكم سيظلّ هؤلاء الغرباء رهائن لمصيرها؟

ودّت لو تصرخ: «أسمع نبضات قلقك يا حمدان! همساتك المذعورة تتسلّل مع كل نسمة! وأعرف ثمن وجودي هنا!» غير أنّها ابتلعت صرختها مع دموعها المالحة.

«ولج عنيذة...» انطلقت الكلمات من حنجرته مرتعشة، مخترقة جدران الصمت. وقبل أن يكمل، تشبّثت أصابعه بكأسه، فجرعه دفعة واحدة. مسح فمه بظاهر يده، ثم أفزعها قائلاً بصوت أقرب للهمس: «تدرين؟ آني أعرف اسم ضيفتنا!»

انتفضت عنيذة في قلب الظلام، وتحوّلت ملامحها إلى قناع زعر. اقتربت حتّى كادت أنفاسها تلفح وجهه المبلّل، وعيناها تستنطقانه: «شسمها؟ ومنين تعرفها ولك؟»

«نسرين!» تقيأت شفّته الاسم بصعوبة، أصابعه ترتعش، عيناها تفتّشان الظلمة: «سمعت الاسم من حجي العسكر بمقام السيّد، يصيحون على الزوّار، يدورون على مريّة اسمها نسرين! وهسه العزيزة نايمه ابيتنا شفّتي شلون حظ مصخم وملطم!؟» وبعد صمت ثقيل، وعلى غير عادة من عاش القلق انتفض فجأة قارصاً ردف عنيذة: «(روحي شوفها نامت يا لا - تره ورانه غنى وطگگگگگ)».

أدركت مُرادَ زوجها الذي خبرت شبّقه في أحلك الظروف، فانسَلّت نحو نسرين، وكل خطوة تزيد من ثقل شكوكها. كان الجسد الممشوق المضطجع على فراش نومه يصرخ بالزيف، يؤكّده شخيرٌ منتظم إلى حدّ فاضح. همست تسألها عن غطاء

إضافي، فلم يأتيها جواب من نسرين، ولم يتغير سوى إيقاع ذلك الشخير المصطنع.

عادت عنيدة إلى حمدان المستلقي تحت النجوم. أخبرته أن الضيفة نائمة؛ امتدّت يده إليها، يجذبها برغبة شبقية، كمن يقطف ثمرة ناضجة. اقتربت منه، وفي عينيها وعدٌ خافت. لكنّ سعالًا حادًا تسرّب من ركن نسرين، اخترق الصمت مثل إبرة في بالون. توقّف كل شيء. انطفأت الشعلة التي كانت تتأجج بينهما، ارتخى قضيبه كأنّ خيطًا خفيًا قُطع فيه، فضرب جبينه براحة يده حانقًا.

ضحكت عنيدة؛ ضحكة رقيقة فيها مرارة الحرمان وخفة الاستسلام للقدر، فتمدّدا متجاورين على فرش النوم في الحوش، تحت سقف السماء المطرزة بالنجوم: جسدان من نارٍ صامتة يتوهجان على بُعد أنفاس، ورغبتان على بُعد قارّات. التراب الذي يرقدان عليه كان دافئًا، يحتفظ بحرارة النهار وأنفاس الليالي السابقة. كلّ ذرّة غبار تحتها تعرف، كلّ نسمة هواء تمرّ فوقهما تشهد.

وعلى بُعد خطوات قليلة، تنام نسرين نومًا أثقل من أن يكون حقيقيًا؛ جسدها ملتفّ على نفسه، لكنّ أذنيها مشرّعتان على الصمت، وأنفاسها المنتظمة بدقّة الساعة تفضح يقظتها. كانت حاضرة بغيابها، رقيقة بنومها، جدارًا ثالثًا يفصل بين جسدين يحترقان. الحوش نفسه بدا وكأنّه يضيق، يتقلّص، يلتفّ حول الثلاثة كحبل مشدود. وفي تلك اللحظة، شعر حمدان أنّ التراب تحته بدأ

يبتلعه، ببطء، بلا رحمة، كأنّ الأرض نفسها تعاقبه على رغبةٍ لا يستطيع إشباعها ولا إخمادها. تنهّدت نسرین بينهما كستارة ثقيلة لا تُزاح: تفصل النوايا عن الجلد، والهمسات عن اللمسات، كجدار برلين حين كان يشطر ألمانيا إلى عالمين لا يلتقيان.

شعرتُ نسرین برغبتها الجنسية المتأجّجة تملأ الحوش كرائحة البخور، تتسلّل إلى رئتيها، تشتعل في عروقها. كانت تتصنّع النوم، لكنّ جسدها كان يقظاً بكلّ مسامه، يلتقط التوتّر الكهربائي بين الجسدين المتجاورين فتصعق به متلذذة.

صمّتهما المفاجئ - ذلك الصمت المشوب بالخيبة بعد أن أخدمت سعلتها رغبتها وأرخت قضيب حمدان - أشعل فيها ما لم تتوقع. شعرت بإثارة غريبة تتصاعد في أحشائها، كأنّها بإطفائها نار الآخرين أشعلت نارها الخاصة. استثارها ذلك جنسياً، بطريقة مشوّشة، مذبذبة، لذيدة.

هنا، استعادت نسرین طيف جمال الذي غمرها بكلّ حواسه: وجهه، صوته، ورائحته العالقة في الذاكرة. غابت معه في لحظات حميمية حاملة. جسده يضغط على جسدها، ثقله المألوف، حرارته، خشونة يديه على بشرتها الناعمة. التراب الذي ترقد عليه أصبح فرائشاً، والهواء الطلق تحوّل إلى سقف غرفتهما، ونسمة الليل صارت أنفاسه الثقيلة على عنقها. لا إرادياً انزلقت يدها بين فخذيه - بلا وعي تقريباً - تبحث عن جمال في جسدها، تستدعيه من الذاكرة إلى اللحم. الحوش كلّهُ تحوّل إلى غرفة أسرار، والنجوم

فوقها أصبحت شهودًا على لقاء مستحيل بين حاضر فارغ وماضي يحترق، فارتعشت شفتها باسمه الذي صار صلاة: «جمال... جمال».

وعندما استفاقت في صباح اليوم التالي، لم تستطع الهروب من الرغبة العارمة للحياة التي انبعثت من أعماقها رغم كل المحن، لتشرق شمس جديدة في الأفق، محملة بوعود مُبهمة تشبه الأمل. تأرجحت أمامها مشاعر متضاربة، خليط من الامتنان لوجودها وقلق من مستقبل لا يُعرف كيف سيكون.

غير بعيد عنها، كان حمدان يتمايل في ركن قصي من البيت، ممسكًا براديو عتيق تعلوه صورة باهتة لصدام بضحكة صفراء. صوت المطرب داخل حسن يتسرّب مغازلًا أذنيه الطريتين: «علياني الياني، الياني، عليّ راح وخلصني».

بسط الليل إزاره فوق القرية، وريحان الصغير يبكي مُستقبلاً غامضًا، جلست عنيّدة تُهدده وهي تحضّر العشاء بتقليب طماطم متمردة فوق "چوله" تخفق مرتجفة بفتائلها الشاحبة. كانت تطهو خوفها مع الطعام، ورذاذ الزيت يلسع ساعديها فتزداد صلابة.

«بس هذا يسكته. وروح امّي!»

تقيًا كلماته صارخًا وهو يُلوح بزجاجة العرق، ثم وضع ريحان في حضنه، وبحركة مفاجئة، سكب قطرات من هذا السائل المقدّس في فم الرضيع.

«هاي شسويت أبو العرگ؟» صرخت عنيدة، بصوت يحمل رعشة أم تخاف غدر المستقبل وانتزعت الطفل من يديه.

«صحيح خالفت وصية أمي. بس ها شفتي شلون سكت؟ ولج أريده يطلع بطل مثل أبوه ما يخاف». كان صوت حمدان متهدجاً، منكسراً تحت وطأة سنوات من الهزائم. كرّر ما قاله-: «ما يخاف. ما يخاف» طارداً شبح الخوف المتمثل بصورة ضيقتهم الغامضة. ثم يمم وجهه صوب السور صارخاً للكلب: «أبوه بطل من ظهر بطل. ما يخاف، يا چلب يا ابن الجلب!»

بعد تناول وجبة العشاء المتواضعة تحجّرت نسرین في زاويتها، عيناها مليئتان بالأسئلة والأسرار. تقدّمت عنيدة بهدوء نحوها، كلّمته بدفء عن بيت اتّسع لهم ثلاثتهم، ومائدة جمعت القلوب.

حمدان يقف في الظلّ، شاهداً. عيناها تنتقلان بين زوجته وضيافته يتهجى لغة وجهيهما. سحب من سيجارته أنفاساً متلاحقة، ومع كل نفس، كان يستسلم لحقيقة واحدة بسيطة وقاسية: ليست كل الأسرار قابلة للحراسة، فبعضها يسقط بلحظة ود واحدة.

جلست عنيدة بجوار نسرین. مدت أصابعها - تلك الأصابع التي تعلمت لغة المؤازرة لئتمسح كفّها برفق. رسالة بلا كلمات: "أنا هنا". لا فضول يعكر صفو اللحظة، ولا أسئلة تجرح. فقط رغبة واحدة تنبض في قلبها: أن تحمل جزءاً من هذا الثقل الذي يكاد يسحق ضيقتها. وفي الزاوية الأخرى؟ كان حمدان يتحرك بخطوات

محسوبة. كل حركة مدروسة، كل نفس مكتوم. عيناه تمسحان المكان كرادار يرصد الخطر.

ومن رفيف رمش عينه اليسرى فهمت نسرين أنه يعرض حماية مشروطة: أن تبوح بسرّها هذا كل ما في الأمر. لم تكن تهّمهُ التفاصيل - لا شكلها، ولا لونها، ولا طعمها، ولا، ولا - المهم أن تتفجر لهاتها بحقيقة ما مرَّ عليها فجعلها بهذا الوجه المتغضن الخائف، كي تخدم أسئلته ويتسلل الهدوء إلى رأسه.

«خويه نسرين... مو اسمج نسرين ها؟ هاي تلت تيّام مرّت على طيحّج مثل نجمة أمّ ذويل بنص بيتنا» واصل طقوسه مع سيجارته: «وهاي انت تعافيت، والحمد لله، فمنو انت بروح سيّد مديح؟» وكما توقع حمدان: "ليست كل الأسرار قابلة للحراسة، فبعضها يسقط بلحظة ود واحدة" لذلك انسابت كلماتها كصلاة: «أنا، لست سوى امرأة تحلم بالضوء».

أنصتت عنيده بكلّ جوارحها. عينها تتسعان وتضيّقان مع تموجات الحكاية، وأصابعها تشتدّ وترتخي على كفّ نسرين. حمدان يطفئ سيجارته ويشعل أخرى. الدخان يرسم طريقاً للعودة لا للهروب. يومئ برأسه تارة، ويغمض عينيه تارة أخرى. جسده ينصت قبل أذنيه، وروحه تتماهى مع حكاية تنزف دمًا حقيقيًا، حاملة صرخات مكتومة ودموعًا مؤجلة وأحلامًا مُصادرة. البيت الصغير يتسع ويتسع، يصير كونًا يؤوي من طردتهم الأكوان.

(٤)

انزلت نسرين مُنحدرة في تجاويف ذاكرتها: في الخامسة من عمري، وفي حديقة بيتنا في الماِجدية، بين نخلة وسِدرة، اكتشفتُ سرَّ موهبة أصابعي. كنت أشكّل من الطين كهية البحر فأنفخ فيه من باذخ أحلامي فيغدو مساحات حب مهولة، رغم سداِجة أفكارِي.

كانت بجانبِي زكية، ابنة عليوي بستانِي حديقة بيتنا، بدميتها القصبيّة، تحمل تفاصيل حلمها بالحرية في أن تكون غير ما هي عليه.

سكنت قليلاً، ثم بحركة أضحكت حمدان وعنيدة، نظرت عبر ثقب أحدثته في قطعة طينٍ كورتها من تراب مخلوط بما تبقى من شاي في استكانها المتمايل، واضعة إياهما داخل إطار عدسة كاميرا مُتخيلة، ثم واصلت حديثها: غيّرت الظروف مسار حياتنا، فراقفتُ والديّ إلى فرنسا لارتباطهم بمنحة دراسيّة.

ارتسم في عينيها تناقض عالَمين: هناك، في باريس حيث الصوت يرتفع دون خوف، وهنا حيث الهمس سيّد وجودنا. في فرنسا تُصقّ المعلّمة لشجرة زرقاء رسمُها، وهنا أعاقب: هل هناك شجرة زرقاء يا نسرين؟ أيّ تخريف ترسمينه؟ كُتِبَ أبي اختبأت تحت بلاط المطبخ، في زمنٍ كانت القراءة فيه جريمة.

أطرقت صامتةً، وثبتت بصرها في الفراغ وهي تستجمع بقايا ذكرياتها. اجتهدت لترصف الصور المبعثرة في بؤرة متماسكة، قبل أن تتلاشى تفاصيلها من جديد.

في العمارة والماجديّة، كان لكلّ شيء ظلّ يشي بمن حوله. تعلّمتنا الحبّ علناً، والمقاومة في الخفاء، ثم عدنا لنجد رجالاً بثياب زيتونيّة يعدّون علينا أنفاسنا.

مدّ حمدان بصره يتتبع دخان سيجارته يتجوّل شبحاً في فضاء الحوش. واحتضنت عنيده استكان الشاي تستمدّ من دفئه قوّة.

في فرنسا تعلّمت الصراخ بحرية، وفي العمارة أتقنت تلاوة الصمت. هناك أبوابٌ مُسرعة للأسئلة، وهنا أقفال صدئة على فم من يتساءل.

تصاعدت أنغام علياني من الراديو، وحمدان ثابت النظر باتجاه نسرين متابعاً روايتها. وعلى همس تلك الأنغام، تشاركت ثلاثة قلوب لغة الخوف والحلم والبقاء.

علياني غيّرت مسار السرد لدى نسرين فراحت تتحدّث عن نفسها بصيغة الغائب، وكأنّها انسلخت عن ذكرياتها لعميق وجعها، فاستحالت مجرّد راوية لحكاية مشهورة لا تعرف شخصياتها ولم تلتق بهم، إنما سمعت بهم: كل ذلك خوفاً من ذكرياتها، وهرباً مما ينتظرها، لقد تخلّت عن مأساتها مؤقتاً ريثما تلتقط أنفاسها، كاستراحة محارب مثخن بالجراح.

هكذا هي الحياة، يتحمل الأبرار أعباء الكراهية فيها. تعويذة غامضة نُسخت في صفحات وجودنا، ومن أعماقها يظهر الشيطان متحركاً بدقة متناهية وغيره متفجرة أبدعت كيأنا من لحم ودم اسمه "زكية" وهي ترصد ظلّ نسرين في الرواح والمجيء من نافذة مكسورة في بيتها المتواضع خلف قصر ميثم الوالي الذي بناه لهم من ماله الخاص.

كانت بينهما طفولة مشتركة، أيام كانت الضحكات تردم الخنادق، والأحلام تتناغم. تلك العوالم تباعدت مع الوعي بالفوارق الاجتماعية: قصر الماجدية الأبيض مقابل بيتها الطيني، الثياب المستوردة إزاء أسمال الخياطة المحلية، السيارة الفارهة بمواجهة أنين الأقدام الماشية.

تفتّح جمال نسرين في السادسة عشرة من عمرها، توافّق ذلك مع رسوخ يقين زكية أنّها ستبقى الظلّ الباهت لنجمة ساطعة في سماء لا تتسع لضوءين. في كل لقاء يجمعهما كانت تتوهج عينا زكية بلهيب الكراهية فتتراكم المسافات بينهما، ويتقاطر صوتها سمّاً بارداً: "على واحدة منّا أن تختفي". هذا ما كانت تهمس به بقسوة هادئة تحمل وخز الخنجر، وكأنّها تنهي معركة أزلية، حيثُ الوجود ضيق لا يسع سوى فتاة واحدة، هكذا كانت ترى نهاية صداقتها بنسرين.

ومن خلل الزجاج المنقّط بندوب الكراهية لنافذتها المعتمة، كانت زكية تراقب خطوات غريمتها وهي تختال بحذاء ينقر في

بلاط قلبها. ضغطت بأصابعها على حافة النافذة حتّى ابيضّ جلدها،
تتابع بعيني طائر مُقيّد يراقب آخر حرّاً لا تعنيه هواجسه.

«لماذا هي في النور؟ وأنا في الظل دائماً؟»

نسبُ الكراهية تزداد متلاطمة في قلب زكية التي كانت تراقبُ
نسرين من مكمن آخر حيثُ مقعدها في أقصى زاوية في الصفّ
المدرسي، تلتقط بعينيها ناقمةً مشاهد التفاف الجميع حولها.
المشهد يتكرّر كل يوم، فتيات المدرسة يتحلّقن حول نجمتهنّ،
وقت كانت زكية تتمتم في قعر خذلانها: «قسمة ضيزى!».

سنوات طويلة مرت تشحن النفوس المستسلمة لشيطانها منذ أن
حفر الفارق الطبقي خندقاً لا تعبره الجسور. حتّى أغنية «يا
شميسه» التي كانتا تغنيانها معاً بفرح غامر، صارت سخرية تطارد
خطواتها. كلّما تردّد صداها، شعرت زكية بأنّ كلماتها: «داير مداير
غطينا يا شميسه» قد وُجّهت لنسرين وحدها، أمّا هي فقُدّر لها أن
تكون الهامش الذي سيستقيم يوماً خشبة تُعلّق عليها طموحاتها.

زكية، كانت تعلم أن مشاعرها العدائية آخذة بالتفاقم حتّى
تحولت إلى قبلة موقوتة، وحش مدمر عجزت جميع وسائل الردع
عن إيقافه. خافت من كراهيتها أكثر ممّا خافت من الحرمان.
وكانت محاولات نسرين لرأب الصدع بالمحبّة والهدايا لا تزيد
الهوة إلّا اتساعاً، غير أنها ودون أن تشعر، وبحقيقة مطلقة كانت
تُضيف إلى الجرح ملحاً.

أحياناً، تذكر أدعية أمّها نورية: «الله لا يرزق من لا يستحق». كانت تردّ بمرارة كلّما شاهدت سيّارة خديجة. «يسرقون أرزاقنا ثمّ يتبجّحون بها أماناً». حينها استسلمت لحقيقة صنعها الكراهية، فالمسافة بين القصر والكوخ ليست سوى أقدار ظالمة كتبت بحروف صاغها قلم شوفيّ متغطرس. وكأنّ واقع البشر بات أسيراً لواقع عامّ موازٍ، يتقارب فيه الظالم والمظلوم في حلبة صراع لا تنتهي. وكأنهما يتعانقان، يتشكل أحدهما من الآخر، فتتداخل أحلامهما وكوابيسهما.

انسلخت نسرین من دائرة صديقتها وجارتها زكية بعد سلسلة من الخيانات المتراكمة. الغيرة والحسد حولت علاقتهما إلى ركام من الكراهية. وفي ظلّ كل هذا الصهيل بينهما اقتحمت الشعارات مجدداً غشّ الماجدية، وهي تحمل حقيبة مثقلة بكل ما هو مُستفّز "بالروح بالدم... نفديك يا صدام".

كانت عيناها ترصدان الوطن بحدّة مختلفة. أصابع زيتونية تصافح بتصنع، شماغ أحمر يخفي وجوهاً متعددة. التقارير تتراكم كأوراق متساقطة، تسجل أسماء وتشطب أخرى. العيون التي توجه الاتهامات جزأاً كانت تمسح المساحات، وتلتهم الأرواح بلا تردد. المدينة تحولت إلى مشهد صامت. السيارات السوداء تجوب الشوارع، تاركة خلفها صمّاً مكتظّاً بالخوف. ميثم الوالي انكمش في زاويته، نظر لا بته بعينين متعبتين: «الحقيقة لا تموت».

استيقظت ليلةً على أصوات صادرة من المطبخ. والداهما يعالجان البلاط، يدفنان كُتُبًا. رأت أمها خديجة تمدّ كتابًا تلو الآخر في يد أبيها ميثم: «كلّ شيء يتهاوى يا ميثم». أجاب: «نفعل ما يجب».

سألته: «الهرب؟» فردّ: «لا جدوى. الجلّاد خلف الأبواب». توقّفت خديجة بعد دفن آخر كتاب: «حتّى عليوي بستانِي حديقتنا تغيّر». نظر ميثم بعينين مليئتين بالأمّ الخيانة وهو يضع البلاطة فوق آخر كتاب حمل عنوان "الجاسوس الذي جاء من البرد" للكاتب جون لو كاريه.

وصفت خديجة التغيير في بيتهم. كيف تحوّل من دافئ لبارد موحش. تساءل إن كان عليوي سيُشي بهم. أجابت: «الخوف حاكم، والمصالح تقلب الموازين». عادت نسرين إلى غرفتها باكية. وفي ليلة أخرى سمعت جلبة والديها مرّة ثانية، فبدأ صوت الحفر الليلي سمفونية معركة خفيّة مع الخوف، تُعزف كل مساء.

(٥)

"بغداد / ١٩٧٦"

كان الناس يختفون - واحدًا تلو الآخر - والتهمة؟ جاهزة دائمًا (حزب الدعوة، الحزب الشيوعي، عمالة، جاسوسية، خيانة، تقاعس وتقصير) والنتيجة واحدة: سجن، إعدام، غياب أبدي، أما البقية فعاشوا في هلع استحوذ على كل شيء متعلق بهم - أنفاسهم، خطواتهم، مصائرهم - لكن نسرين، نسرين لم تنتظر دورها: حملت أوراقها، شدّت ظهرها، وتمنطقت بحزام وعيها، وتوجّهت إلى أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد - متحدّية ما ينتظرها - وفي صوتها همس لا يُهزم: «غداً سيكون مختلفاً».

في خريف بغداديّ من عام ١٩٧٦، حيثُ دجلة وأغاني فيروز تنساب من مقاهي الرشيد، دخلت نسرين أروقة الأكاديمية. مشّت على رخام عتيق شهد خطوات جواد سليم وفائق حسن، وسط روائح الطين والطلاء والخشب، في زمن بغداد المتأرجح بين الحروب.

نسرين - كانت تتجول بفضول في أروقة الأكاديمية حين جذبها - في انعطاف زمني خالد - صوت عميق يردّد حوارات شكسبيرية من داخل قاعة المحاضرات.

صوت قال عنه بدري حسون فريد: «يجعل قائمة الهاتف تبدو شعراً».

توقفت. أطلت من النافذة الزجاجية التي تتوسط الباب.
كان هناك: الدكتور جمال الورّاد - العائد تَوًّا من دراسة المسرح
في لندن - بقامته الطويلة وشعره المجعد المشوب بالشيب، وعينه
العميقتين اللتين تحملان - مثل وجهه - آثار النكسة.
«المسرح أكبر من مسمى موهبة»، قال، «المسرح هو: أن
تتنفس الخشبة وتفهم صمتها».

تخدرت أطرافها فسقطت قطعة الصلصال من يدها وارتطمت
بالباب. توقّف الصوت، وفُتح الباب ببطء، ليظهر وجه جمال.
«أنت طالبة مسرح؟ هيا تفضلي» سأل بنبرة هادئة. ابتسمت
نسرین. تلاقت عيناهما في حوار صامت أخذ زمناً طويلاً. «أنا من
قسم النحت»، أجابت بصوت مرتبك، ثم انسحبت بخجل عند قرع
الجرس، تاركة خلفها قطعة صلصال حملت بصمات أصابعها.
في مشغل النحت، كانت نسرین تُشكّل وجهًا أنثويًا أسمته
"أخت گلگامش" أصابعها غارقة في الصلصال، تبحث عن ملامح
تشبه حلمًا قديمًا، حين جاء صوته من خلفها، عميقًا، دافئًا:

«ما الذي تبحثين عنه في هذا الوجه؟»

ارتبكت. توقفت يداها. التفتت إليه، كان هو - الدكتور جمال
الورّاد.

«أحاول أن أخدع الزمن... أن أحفظ بالأشياء الجميلة
للحظة».

نظر إليها نظرة طويلة، عميقة، ثم ابتسم:

«الأشياء الحقيقية لا تحتاج منّا إلى تورية، وخداع. الزمن يشبه الحجر. نُشكّله، فيظلّ أسطورة. وها أنا ذا أرى في أصابعك حكاية أسطورة لن تموت».

جمعتهما دقائق معدودة، خاطفة، لكنها كانت محمّلة بأشياء جميلة مهّدت لعناق روحيّ بينهما لم يئنّ لهما تسميته أو الإفصاح عن ماهيته.

وقبل أن يغادرها، مدّ يده ووضع في كفّها شيئاً صغيراً: قطعة الصلصال التي تركتها في ارتباكها عند باب قاعته في لقاءهما الأول. ثمّ ابتسم ابتسامة كبيرة، واسعة، دافئة، كادت أن تلتهمها.

خلال عام، نمت علاقتهما في بغداد المتقلّبة بين ثراء النفط وبؤس الحروب. كان جمال يحمل خبرات سنوات لندن ودراسة المسرح مع خرّيجي المدرسة الملكيّة. عاد محمّلاً بأفكار تتجاوز حدود التقنين التي رسمتها السلطة. رأت فيه نسرين شعلة حرية فانجذبت إليه.

مثّل دور سيرانو دي بيرجراك، في ربيع ١٩٧٨، جامعاً بين رومانسيّة الفارس الفرنسيّ وفلسفة هاملت. حضرت نسرين العرض بصحبة والدها ميثم. في مشهد الموت، لمعت دمعة حقيقية في عيني جمال، فأدرك الأب مصير ابنته.

وبعد سنة ناعمة صُنعت من حرير الوَلَه وعسل الشوق، اجتمع القلبان على خشبة مسرح الكلية في ليلة عقد قرانهما. كانت اللحظة استثنائية، والأضواء تعانق وجهيهما بحنان، والحضور يغرق في

هيئة المشهد. ارتعشت الستائر القرمزية كأنها تشاركهما الفرحة، بينما جلس في الصفوف الأولى من المقاعد فائق حسن و خليل شوقي وإبراهيم جلال، يشهدون برفقة طلبتهم على عرسٍ فنّي لم تشهد الكلية مثله.

تزوّجا في شقّة صغيرة بحّي الوزيريّة، بين الكتب وقطع الصلصال. هي تنحت امرأة شامخة، وهو يكتب حوارًا بين سجين عراقي وهاملت.

في الأكاديمية، تحولت "سالوفة" حبهما إلى أسطورة تتناقلها همسات الطلاب، تروي حكايتهما عن الأستاذ الثوري والطالبة الموهوبة. لم يكن الحب بينهما مجرد شعور عابر، فقد أصبح رمزًا للإبداع والتحدى، حيث ارتسمت على وجوه الأساتذة ابتسامات مليئة بالفخر، لذا عاشت الأكاديمية عصرها الذهبي: قاعات نابضة، مسرح حيّ، تماثيل متمردة.

لكن المفارقة الكبرى كانت تترصدهما. مع نهاية السبعينيات، وبينما كانت أصداء الثورة الإيرانيّة تتردد في أرجاء العالم، دخلت شخصيّة "مزاحم" حياة نسرين وجمال دخولاً مفاجئاً غير كل شيء. نحيل، بنظارات سمكة تخفي عينيّن باردتين. ثلاثينيّ يتحرّك بخفّة مريبة، مسلّح بدكتوراه في "المسرح السياسي" من صوفيا وولاء سلطة بالغ في الظهور من خلاله. هنا تغيّر كل شيء، قريباً من تخرّجها في شتاء ١٩٨٠، ذلك الشتاء الذي سبق اندلاع حرب الخليج الأولى التي غيرت ملامح المنطقة لعقود.

في أول محاضرة له انتفض صوته: «المسرح أداة للسلطة... من يفكر بغير ذلك، فهو خائن». سقطت كلماته ثقيلة في أسماع طلبته، فخيم الصمت على القاعة التي كانت فيما مضى تضحّ بنقاشات يونسكو وبريخت. تحرّك بين الأوراق ببدلته الزيتونيّة، يتلصّص، يدوّن في دفتر صغير لا يفارق يديه. في مكتبه، ملفّات وصور لطلبة وأساتذتهم، وعلى الجدار صورة له يصافح فيها صدام بابتسامة متملّقة.

وعند مدخل الأكاديميّة، سألت نسرينُ جمالاً: «من هذا الرجل؟» أجابها بهدوء مصطنع: «أستاذ جديد... الدكتور مزاحم التكريتيّ ابن عم صدام. إنسي الموضوع حبيّتي».

لمحت نسرين مزاحماً وهو يراقب جمالاً في المكتبة بنظرات لا مودة فيها. التفت إليها بابتسامة قاسية: «السيدة نسرين... نحاتة المستقبل. يبدو أنّك تحبّين النحت أكثر من...؟» قال ذلك يريد إخبارها بأنك وجمال نقطة ملوثة بعداء البعث والثورة.

بعد أيّام، عجّت الأكاديميّة بالهمس والخوف. طلاب يغادرون، وأساتذة يتحدّثون بصوتٍ خافت، ومعارضٌ تُوجّل دون أسباب. من جانبها وفي مشغل النحت، شكّلت نسرين يداً بسبعة أصابع مبتورة، إشارة صامتة لسلطة السابغ من نيسان. دخل جمال عليها شاحباً، أخبرها باعتقال الدكتور فيصل السماويّ، النحات الذي شجّع طلابه على التفكير الحرّ، فعمدت إلى منحوتتها لتشوّهها بفلقها إلى نصفين.

في قاعة أخرى، دخل الدكتور محمود شاحبًا. بدأ درسه عن التعبيرية بصوت متقطع، يتحدث عن إدفارد مونك. توقف فجأة، اقتحم ثلاثة رجال القاعة، وأخذوه مكتوفًا. لمحت نسرين وجه مزاحم مبتسمًا من خلف زجاج نافذة الباب.

تحولت حياة نسرين وجمال إلى قلق دائم. الأكاديمية أصبحت ساحة لمعركة خفية. جمال يختصر محاضراته، يتجنب الأماكن العامة. نسرين تتخلى عن أحلامها، تستبدل منحوتتها «صرخة الرافدين» بتمثال لا يُثير حفيظة السلطة.

في ممر ضيق، اعترضهما مزاحم: «رائع أن نرى المحبين على وفاق دائم». أدرك جمال حينها أن المعركة صارت علنية ولا موارد فيها، شرسة ولا هوادة فيها.

بدأ مزاحم باستهداف جمال: ألغى عروضه، حرّض الطلبة ضده، نسج حوله ظلمًا شرنقة من الإشاعات. وعندما فشلت جميع مخططاته، أرسل رسائل ملغومة إلى نسرين، ملفقًا علاقات مشبوهة لجمال مع طالبات قسمه. نسرين ظلت مُصرّة على حبّها، فغيّر مزاحم خطته، حاول استمالتها بوعود: إيفاد لموسكو، معرض في قصر الرئاسة، نجاح دراسي مضمون.

«السلطة تحتاج إلى فنانين موالين، والدولة تكافئ الموالين». هنا رأت نسرين قبح روحه جليًا وهو يحاول قطع ذاك الجسر من العشق والوله الذي يربطها بجمال. أدركت أنه ليس سوى أداة رخيصة بيد سلطة لا ترحم.

كان القدر قد خطّ في فضاء الأكاديمية سطرين متوازيين، كأنما خلّقا ليظلاً متباعدين إلى الأبد: سطرُ نسرين، المنحوت من طين صامت وإزميل صبور، وسطرُ دلال، المنسوج من أضواء مسرحيّة صاخبة، وشحوب ماجن، ورغبات مقموعة.

لكنّ الأقدار، وفي لحظة نزق غامضة، قررت دلال أن تعبث بالقانون، فمدّت بين العالمين جسراً من الفوضى الخلاقة، سمّته: "فعاليّة مشتركة" بين قسمي المسرح والفنون التشكيلية. وهناك، عند نقطة التصادم تلك، حيث احتّمى الحجرُ بالكلمة، والتقى الصمّت بالصوت، بدأت الحكاية. تعارفتا، كما تتعارف الريحُ بالنار؛ تلامسّ خجول يخفي في أعماقه وعداً بالاحتراق.

في الصباح التالي، راحت دلال تتسلّل إلى مشغل النحت، بخطوات هادئة تخشى أن يسمعها قلبُها. كانت نسرين منكفئةً على تمثالها، تغيب في تفاصيل الطين كمن تحاورُ عناده بلمسة حانية. راقبتها دلال من بعيد، تلتقط بحواسّها كلّ ذبذبة بين أناملها والكتلة الرماديّة، وتخترنها في ذاكرة تضحّ بالفضول والحيرة.

ثمّ جاءت المرحلة التالية: هدايا مبهمة، رسائل قصيرة تحمل أكثر مما تقول، دعواتٌ عشاءٍ مؤجلة، تقابلها اعتذارات مغلفة بابتسامات مرتعشة. إلى أن وجدت دلال نفسها في المشغل ذاته، تتحدّج بمسرحية جديدة تؤدّي فيها دور نحاتة تريد مراقبة الأصابع الخبيرة وهي تصنع الحياة من الطين.

وقفت خلف نسرين، قريبةً حدَّ أنفاسها تشارك أنفاسها، والعطر يتسرَّب بينهما كسرٍّ صغيرٍ يسهل إنكاره ويستحيل إخماذه. أصابع نسرين كانت تتحرك على الكتلة الطينية بإيقاعٍ غريبٍ - تارةً تضغط، وتارةً تلاطف - وكأنها لا تشكّل التمثال بقدر ما تُنصت إلى نبضٍ آخر، آخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً.

انفتح فجأةً جرحٌ رفيعٌ على خنصر نسرين، خطٌّ أحمرٌ دافئٌ تساقط إلى راحة يدها.

«سأداويه»، همست دلال، وامتدّت يدها المرتعشة لتضمّ الإصبع النازف، ثم - دون تردّدٍ يُذكر - أدخلته بين شفثيها. انتفضت نسرين، كأنّ صاعقةً أصابتها. دفعت جسد زميلتها إلى الجدار وصفعتها بصرخةٍ حادةٍ خنقت ما تبقى في صدرها من خجلٍ ورغبة: «هذا انحراف! اقتربي ثانية... وسترين ماذا أفعل بك!»

غادرت نسرين مسرعةً، والغضب يشقّ وجهها كما يشقّ النور العتمة. وفي الزاوية المظلمة، بقيت دلال واقفةً بلا حراك، تحدّق في الفراغ الذي خلّفته خطاها. كانت أنفاسها تتلاحق، وعيناها تلمعان ببريق غامض، مزيج من الخجل والخذلان والشيء الآخر الذي لم تجد له اسمًا بعد.

تقلّبت في داخلها عاصفةً من الصور، وبدأت ملامح نسرين تتوهّج في ذهنها، تختلط بالضوء والصوت والخيال المسرحي الذي يسكنها.

وفي أعماق ذلك الاضطراب، وُلدَ شيءٌ صغير، مظلم، لا يرى... وعدٌ خافت بالانتقام، أخذ يتشكّل في قلبها كما تتشكّل نية التمثيل قبل اعتلائها الخشبة. هكذا انطفأ عامهما الدراسي الأول مع نسرين بحدّثٍ لم يُمحَ من الذاكرة، وبقي أثره نازفًا في صمت ثلاث سنوات تالية.

عند استلامه منصبه الجديد مديرًا لقسم المسرح، جلس مزاحم في مكتبه الشاحب، تحيط به رائحة الورق والرطوبة، تمامًا كما يليق برجلٍ يتهيأ للعب دور القدر. كانت دلال أمامه، متوترةً كمن تستعد لامتحانٍ في الخضوع.

أصابعه تنقر على غلاف ملفّها، وإيقاع النقر يتناغم مع تلك النبرة التي تجمع بين اللين والسم: «تسعين للثأر... وأنا أرغب في نسرين، والخلاص من جمال.»

كلماتٌ حملت صفةً واضحة: منحة، وامتيازات، ودور تمثيلي قصير... في عرضٍ حقيقي لا يُعرض على الخشبة. كل ما عليها فعله هو أن تؤدي دور الضحية - بإقناع تام.

وفي ظهيرة اليوم التالي، كانت نسرين في مكتبٍ تغمره رائحة التبغ والكذب. الستائر نصف مُسدلة، والظلال تزحف على الوجوه ببطء، كأنّ الغرفة نفسها تتآمر. جلست دلال تهيأً للمشهد، ثم انطلقت بارتجافٍ محسوبٍ: دموعٌ تتدحرج، شهقاتٌ مرتجفة، كلماتٌ تهجى الألم: ادعاء تحرّشٍ من أستاذها جمال.

«لقد قرصني من حلمتي!» قالتها وهي تحاول أن تبرهن بجسدها أكثر مما تبرهن بكلماتها.

لكن نسرين كانت تصغي بوجه ساكن، بابتسامة تكشف عن سخرية واحتقار لمن قبالتها، وفي عينيها يشتعل الإدراك: بريق خديعة تعرفها جيداً، وشرارة استغلال تتوه في نظرة مزاحم المتربصة.

اقتربت، وقالت بصوت هاديٍّ حادٍّ كالنصل: «أنتِ تكذبين يا دلال... والدكتور هو من حرّضك. كلاكما وجهٌ واحد لعملية زائفة.»

سقط الصمت بعدها كستارة نهائية تُعلن انتهاء العرض. وفي تلك اللحظة القصيرة بدا كل شيء مكشوفاً: الحبّ والانتقام، المعلم والتلميذة، المسرح والحياة. وأمام الضوء الذي لم يرحم، تهاوى القناعان معاً، وبدت الوجوه عارية تماماً... أمام الحقيقة.

في ماكينة الجحيم الشرسة، دائماً ما تنبت نسائم الأمل بخلاص وشيك. مع إطلالة نيسان الربيعية، جاء الفحص الطبيّ ببشارة خير. حملٌ في أسبوعه الثامن أضاء عيني نسرين وجمال بفرح غامر. تطايرت الدموع كحبّات ندى على وجنتيها، بينما احتضنها جمال وكأنّه يحتضن الكون بأسره. دارا في الصالة الضيقة كفراشتين في حديقة خفية، بلا موسيقى سوى دقات قلبيهما المتسارعة، بلا أضواء سوى بريق الأمل المتوهج في عيونهما. تخيلاً معاً طفلاً

صغيراً يملأ الصمت بضحكاته، يديه الصغيرتين تمسكان بأصابعهما. وحين غلبهما التعب، استسلما للنوم متعانقَيْن على برودة الرخام، تحلم نسرین بدفء صغير ينمو في أحشائها... بينما احتضن جمال بطنها المبللة بالعرق وكأنّه يحرس سرّاً مقدّساً، ودموع صامئة تتسلّل من عينيه المغمضتين.

وحين دنا موعد امتحانات التخرّج، خيم على ممّرات الكلية صمتٌ مشحون يلمّح إلى عاصفة وشيكة. صارت الممّرات الحجرية تعكس توتّراً صامتاً، ابتسامات باردة بينها وبين مزاحم، حتى انتهت تلك العاصفة باختفاء بعض الطلبة وأساتذتهم خلف الشمس.

تحوّل ليل الشقّة إلى ورشة صامئة للمقاومة؛ كان بطنها المنتفخ صرخة حياة تتحدّى الصمت المحيط بهما. وعندما اقترح جمال الفرار إلى بيروت، ارتجفت يدها، فاهتزّ فنجان القهوة الذي أعدّته له مرسلاً في جسدها رجفة تحذير ماثورة، تلك الرجفة التي لا تخطئ أبداً. كأنّ جسدها كان يعرف ما لا تعرفه؛ تردد صدى أقدام ثقيلة على الدرج الرخامي للبناية، تلاها ركل عنيف للباب وصوت فظ: «افتحوا، خونة».

تهاوى الباب أرضاً، واندفع أربعة من رجال المخابرات بزيّ مدني، أولئك الذين كانت حكايات الجدّات تُسمّيهم "زوّار الليل" وتذكرهم بخوف وهلع، يتبعهم قائدهم ومختار المنطقة السكنية، ذلك الواشي الذي يحصي أنفاس الأحرار، ومالك الشقّة الجشع

الذي جاء ليشهد على ولائه للطغاة. انقلب الفنجان من بين أصابعها، تدحرج على الأرض تاركًا خطأ بُنيًا داكنًا كأنه يرسم خريطة هروب بديلة. تناثرت الأوراق من تحت يدي جمال، تطايرت مخطوطات الحرية التي كان يخطها في تلك اللحظة تمامًا: حوار فلسفي لمعتقل سياسي مع هاملت.

«صعب أن تكون ميتًا ولا يُسمح لك بالموت».

راح رجال المخابرات يُحطّمون كل شيء، فانبرى المالك والمختار يتسوّلان رضاهم ويشتمان نسرين وجمال بأقذع الشتائم. حطّم أحدهم بقايا الفنجان بحذائه الثقيل، فتناثرت شظاياها البيضاء كعظام مهشّمة، بينما امتزجت القهوة المسكوبة بنسيج الزولية والهلع الذي احتضن تفاصيل الشقة.

جاءت النهاية وحشية - لكمة أفقدت نسرين وعيها، فانفجر جمال مقاومًا بيديه العاريتين هاتفًا بأعلى صوته: «الحرية لا تُعتقل... نسرين، قولي له: كان أبوك حُرًّا». ضربة بأخمص المسدس من أحد المقتحمين أسقطته بين أيديهم، ثم سحبوه على الأرض يمسحون بوجهه المدمى بلاط السّلم الرخامي، مُخلفين خطأً من الدم يقود إلى المجهول.

حين انحسر الضجيج وخرج الظلاميون بنور جمال معتقلًا، استعادت نسرين وعيها في صمت مرعب. كانت شظايا الفنجان المكسور متناثرة حولها كأشلاء حلم مقتول، لكنّ بخار القهوة المسكوبة لا يزال يتصاعد من بين الشقوق، مُلتويًا كأنفاس رجل لا

يقهره الخوف، مُبَشِّرًا بزوال الطغاة. يبدین مرتعشتين، وهي تزحف على بطنها، بدأت تجمع بقايا أوراق جمال المبعثرة، التقطت شظية من الفنجان وضمتها إلى صدرها كتعويذة، قبلت الحبر الطري وقالت للفراغ الذي خلفه سقوط الباب: «بهذه الحروف سنواجه ظلامكم».

والآن، من ذلك الجرح المفتوح في جدار شقَّتْها، رأَتْهم: الجيران، وقد تسلَّلوا بعد رحيل الجلَّادين، يحدِّقون فيها متفرِّجين لا شهودًا على مأساة جرت تفاصيلها أمام أعينهم.

أيَّامٌ تدحرجت ثقيلة، هي الأخيرة لها في الأكاديمية، تواجدت في آخرها مشاركة احتفالية تخرج باهتة، أمسكت نسرين شهادتها بيد مرتعشة ونظرت إليها آسفة «ثم ماذا؟» وراحت تتجول وحيدة في أروقة الكلية تبحث عن صدى خطوات جمال بين الجدران الصامتة.

وعند أحد تماثيل باحة الأكاديمية، واجهت معاذ الدليمي، زميل السنوات الأربع، وبنظرة واحدة منه كانت كافية لسحقها، ثم كلمة اخترقتها مثل سهم حاد: «خونة!»

تحولت المدينة في عينيها من فضاء للذكريات إلى قفص اتهام يوخز وجودها. وقف مزاحم في الباحة يساومها على البقاء مقابل حماية واهية. ضحكت ساخرة: «كل حجر هنا يهتف باسم جمال، كيف أبقى في مدينة لا أثر فيها يدلني عليه سوى مكان أنت فيه؟»

وعند ظهيرة حارقة، طرق مالك الشقة الباب الذي تمت معالجته على عجل بعد اعتقال جمال، قدّم هذا العجوز مطالبًا نسرين بالإخلاء. ردّت بطريقة دفعته للاختباء في طيّات دشداشته: «هذا مفتاح الباب الجديد بيدي، كنت عازمة على دفعه لك غدًا، الما جدية تنتظر ابنتها».

لفظتها بغداد بقسوة أرخت لاستسلام المدن أمام سطوة الحكومات. دمعة صامته، حقيية خفيفة، صورة تنفس، ذكريات سعيدة ومؤلمة. فجرًا في كراج النهضة - ذلك المكان الذي تختلط فيه رائحة الوقود بأحلام الراحلين - تكدست ظلال المسافرين كنفايات الطمر الصحي على أطراف المدن. قالت للأفق: «سأعود حين تتعافى أحلامنا».

(٦)

"المأجديّة / أيلول / ١٩٨٠"

هبت رياح الجنون مع اشتعال أوار حرب الخليج الأولى، التي طالبت بحصادها من الرجال. لم تكن هناك حاجة لسلاسل أو سياط، فقد كان نشيد أجوف يسكن الصدور كالصقيع، ومثل عصا سحرية يساق الشباب بها طوعاً إلى حتفهم: «أتقدّم واحنا وياك اثنين، جيشين لصدام حسين».

وعلى جبلٍ رفيع، كانت ترقص الأرواح بين الوهم والفناء، كلُّ خطوة زلّة، وكلُّ نفس احتمال سقوط. توزّعوا بين مؤمنٍ يعي ما يلوح في وجهه من ولاءٍ أجوف، وكافرٍ أرغمه طلب السلامة على الرقص فوق خيطٍ من رعبٍ ودم. يردّدون ذاك الشعار الأجوف معاً. استمرّت أناشيدهم عمراً كاملاً حتى ابتلعتهم الجبهات كما تبتلع الأرض المطر، واحداً تلو الآخر - "ولد الخايبة"، تلك المرأة - الخايبة العراقية، كانت تزفّ أبناءها كالنذور إلى عرسٍ لا عريس فيه سوى التراب، تغني وهي تجهل لمن تُهدي أناشيدها: للوطن أم للغياب؟ للذاكرة أم للنسيان؟

والموتُ يتربّص. كان. يكون. سيكون. أي فرق؟ النهايةُ معروفة. معروفة لمن؟ للجميع. لا أحد. الرقص. نعم، الرقص. فعالية المفرفحين. يرقصون. يضحكون. يسقطون. والزلّة؟ الزلّة مصيرٌ محتوم. كل شيء محتوم. أو لا شيء على الإطلاق.

وحين عاد الصدى بلا مُجيب، جلست الخاية على عتبة البيت
المفجوع، ذلك البيت الذي صار أشبه بمقبرة تنفس. تحتضن صور
أولادها وتضحك بدموع تحبّرت في مآقيها، كأنها تؤدي صلاةً
لإلهٍ تخلّى عن إنصاته، صلاةً لم يبقَ فيها سوى الصمت والفراغ.
كانت تمشي في الأزقة الموحلة بثوبٍ يخط بالتراب ككفنٍ
مُبكر، حافيةً إلّا من وجعها، تهدد الريح بموالٍ متقطعٍ يشبه أنين
الأرض حين تُنتهك:

«يَمّه وينك ما إيجيت... وحشه من دونك البيت».

كلّ بيتٍ تمرّ به يُطفئ مصباحه خجلاً من صوتها، وكلّ جدارٍ
قديمٍ يتصدّع من وطأة هذا النشيد الأمومي الذي لا ينتهي، حتى
رأت في واحد من أحلامها المتراكمة وجه "نِكل" عند مقبرة
النجف، أم القمر، تنوح في السماء على ابنٍ لن يعود.

ورأت في واحدة من زياراتها لحضرة الإمام الكاظم "رَملة" وهي
تجرّ جثمان ابنها القاسم المذبوح على رمال كربلاء، تغنيه ليقوم ولا
يقوم، تمسح عن وجهه غبار المعركة وتهمس له: "قم يا ولدي، فقد
أزفت ساعة عرسك"، تغسل بدموعها جراحه السبعين وتضع على
شفتيه المتشققتين قطرة الماء التي لم ينلها في حياته - رملة التي
شيعت ابنها إلى الموت وتتمنى أن يعود كالنبت بعد المطر، لكن
صحراء الطغاة لا تثبت إلا العطش.

ورأت إنانا - سيّدة الأسى في سوق العمارة المسكوف هابطة
إلى العالم السفلي، ناثرة شعرها، بحثاً عما يُبقي المعنى حيّاً.

كلهنّ قمن حولها، نسوة الوجد الأول، يمددن لها أذرع الطين،
فيحملنها ويغنين معها نشيداً واحداً: نشيد الأمهات اللواتي قدمن
أبناءهنّ للمجهول ولم يعد أحد: «يّمه صعب الفراگ گلّوله
گلّوله».

كانت الأم الخاوية آخر السلالة، تُغني للعائدين الذين لا عودة
لهم، وتسكب حليبها اليابس على التراب كقرايين. تبسم وهي
تعرف أنّ الحروب لا تشيع، وأنّ الوطن الذي ابتلع أبناءها لم
يتجشأ حتى أسماءهم. وبين صدى صوتها ومهبّ الريح، كان
التاريخ كلّه ينحني بخشوع دام، كأنّ الأرض ذاتها تبكي من تحتها،
تبكي أمّاً واحدة، حملت العالم ثم ولدته ميتاً.

مع هذا الصهيل، وفي لجة العاصفة، كان بطنُ نسرین يتنفخ على
مهلٍ، كأنّها تُنبئ حياةً وسط تربةٍ ملوثةٍ بالبارود. تتناثر ظلال جمالٍ
على زجاج النوافذ، وفي همس الأبواب. كأنّ البيت نفسه يتذكّر
خطاه القديمة في لحظة تقدمه لخطبة نسرین، ويتهيأ للبكاء.

وداخل بيت الماجدية، تحوّلت قمصائه، وقماطُ الطفل المعدّ
منذ أن كان مضغة، إلى قلادة تطوّق عنقها الغصّ، تستبقي عبيره
متجوّلاً في روحها، شبيهةً بتميمة أم "ساري العبد الله" وحكايتها
التي تُروى كلّ موسم خيبة جديدة.

ومن جانبهم - رجال الأمن والمخابرات ما زال بثّ الرعب في
قلب نسرین هو الأساس الذي يقوم عليه عملهم الإجرامي. فكل

ليلة، يمارسون أساليبهم العنيفة التي تؤجج مخاوف الأمهات. وأصبح كل باب حدًا فاصلًا بين النجاة والكارثة.

ثمّ جاء التهديد الصريح: «إن واصلتم البحث عن جمال فالمشقة تنتظر!» أمسكت خديجة قلبها براحتها خوف سقوطه لما تلقتة العائلة من تهديد أخير بعد محاولة أولى لميثم الوالي للبحث عن جمال.

تلا ذلك طرق ناعم يشي بالكراهية، وحذاء زكية يلون البلاط بإيقاعه المستفزّ قادمة برفقة أمها نورية. وردّ سأمّ تفجر عن لهاتيهما: «جمال مات في السجن». ضحكات مسمومة بين الأم، وابنتها خلّفت شرخًا في صدر نسرين.

إلا أن ميثم الوالي لم يستكين مواصلاً رحلته العبثية بين الدوائر للإمساك ولو بخيط دقيق يوصله حيث مصير جمال. أبواب تُصفق، أوراق تُخفى، وأمل يفرّ من قبضته كل مساء هكذا كانت رحلة الوالي بحثًا عن جمال.

ومن بين ركام الخيبات، تفجّر في وعيه وجهٌ ليس بغريب عنه. وحين عاد ذات مساءً يجزّ خطاه، بقلبٍ جَفّ فيه الرجاء، استوقفته خديجة بعينين ترسمان خرائطَ حزنه: «جاسم البيّوض أرسل في طلبك... قال ابنه إن أباه يحتضر، ويريد أن يرى الوالي... ثمّة أمرٌ يخصّك، يريد أن يبوح به... ربّما مسح أحدهم فانوس الماضي السحري، فخرج مارده يطالب بالأمانات المودعة لدينا».

توقّف الزمن للحظات. جاسم البيّوض، الرجل ذو العينين
الثلعبيتين، صاحب القصة المؤلمة التي تعود إلى أكثر من عقدين،
الرجل الذي تشدّه بـ ميثم حبال خفيّة، تحت وطأتها كانت ترتعش
أصابعه كلّما ذكر ذلك الاسم.

«منذ متى وهو في حالة احتضار؟» سأل ميثم، متحاشياً نظرات
خديجة المعاتبّة. «منذ أيام» أجاب، «هذا ما أكّده ابنه... ظلّ
اليوم كلّه يتمتم باسمك» شعر بأنّ لحظة الحساب قد حانت؛ ربّما
جاءته الفرصة ليُغلّق دائرة فتحت منذ زمن. ربّما يعرف جاسم شيئاً
عن جمال، أو ربّما هناك ما هو أقدم... يخضّ نسرين. ويا ويلهم لو
بلغ مزاحم خبر البيّوض.

انطلق نحو بيت البيّوض بخطوات المتّجه إلى اعتراف أخير.
على عتبة قصره، تصاعد صوت النواح يهزّ أركان البيت «لقد مات
جاسم البيّوض!» نظر إليه ابن جاسم بنظرته التي لم تكن يوماً وديّة
لا لسبب معروف. بيد أن الوقت قد فات. رحل جاسم البيّوض،
آخذاً معه أسراراً وصفقات وقصصاً لم يبح بها. هناك على سرير
الموت، رقد الرجل الذي عقد المنايا وحلّ المشكلات وخاط
المصائر.

«كان يردّد اسمك مع اسم غريب أظنّه موشيه أو قريباً من
ذلك». قال ابن البيّوض وهو يبكي لفراق أبيه «الله يسامحك
بويّه».

غادر ميثم المكان بخطو سريع، مستغرقاً بتفكير مختلف المعايير والصور. عدة أسئلة صرّح بها الشارع الذي يقوده حيث بيته: ما الأمر العظيم الذي يدفع البيّوض لدعوة ميثم الواليّ وهو يحتضر؟ هل هو سرّ عائليّ قديم؟ ثأر مؤجل؟ أم اعتراف سيغيّر مصير أجيال. «من هو موشيه؟» تساءلت نسرين كالأطرش بالزفة وسط والديها. فتذكر الوالي شيئاً غامضاً بالنسبة للجميع واضحاً بالنسبة له، مدمراً محطماً لراحة باله، فضرب جبهته براحة يده! وهمس لنفسه: «هذا ما كنت أخافه».

تساؤلات نسرين تتلاعب في عقله، تتشكل كضباب كثيف يحجب الرؤية. يا ترى ما الأمر الذي يثير هلع الوالي؟ في حين كان تفكيره يتجول في دوائر مغلقة، مثل موجات لا تنتهي، ترسم على قلبه قلقاً حاداً. صوت الذكريات المتردد في أذنه جعل الأجواء تتجمد وكأنها تناديه: «هي لك، هي لك».

مات جاسم البيّوض وأخذ سرّه معه. خمسة وعشرون عاماً من الصمت دُفنت في قبره، وانتهت القصة. فلا فائدة من التفكير فيما لا يمكن استرداده.

الآن، لا شيء يشغل تفكير ميثم الوالي سوى جمال، والبحث عنه في هذه المدينة التي تبلع الناس بلا أثر. هذا ما يقضّ مضجعه ويسلب راحته، لذلك حزم أمره وولى وجهه شطر بيت صديق طفولته العقيد عبد الكريم النجار.

لا أحد أفضل منه في هذه المهمة رغم تقاعده مؤخرًا وانزوائه في مزرعته قريبًا من أهله وعشيرته على أطراف العمارة. كان يردد في أسماعه دائمًا: «كن جزءًا من الحل يا ميثم، لا من المشكلة». نعم، النجار كان وما زال جزءًا من الحل، حتى لو كان الحل مجرد معلومة عابرة عن جمال، تُنتزع انتزاعًا من بين فكّي الكتمان. هذا ما يحتاجه ميثم الآن - رجلًا يعرف كيف يستخرج الحقيقة من أعماق الخبايا.

وبعد تسع جلسات من الصمت والمراوغة، التقى النجار بصديقه الوالي للمرة العاشرة. نفذت بينهما كل الكلمات المعتادة، ولم تبق معلقة سوى حقيقة واحدة. أخيرًا، لفظها النجار كمن يلقي بحمولة ثقيلة عن كاهله: «الولد حي يا ميثم. أطلق سراحه من السجن، وأرسل جنديًا إلى المحمرة... وهناك، انقطع أثره، ربّما وقع أسيرًا لدى العدو».

أما هي، ففي عالمها الآخر البعيد عن حسابات الرجال وأخبارهم المبتورة، كانت تجوب أسماء المدن كل ليلة، باحثة عن حلمٍ واحدٍ يخبرها بمكانه. وفي كل صباح، كانت تهمس للجنيين حكايات عن أبيه، فتأتيها الإجابة على هيئة ركلة خفيفة من قدمه الصغيرة، كأنها تقول: «سيعود إليك، لا تحزني».

بيتها صار معبد ذكريات يحرسه دعاء خديجة وصمت الأب المتهالك، والمدينة ما زالت تمشي على أطراف قلبها، عالقة بين نبضة حبّ لا تهدأ، ونبضة انتظار مميت.

انفجرت أحزان نسرین متضخمة حين التفتت لحمدان، وعنيدة غارقين في العسل بطريقة مضحكة. تجمّدت كلماتها. توجهت للكلب تقصّ عليه ما اختزن وجعها بالفرار من محيط ألمها، وصدى نباحه يتلاشى خلف مقام سيّد مديح. دبّت الحيرة في جسدها فراحت تنهش جلدها، عيناها الدامعتان تبحثان عمّن يصغي إليها. حينها وجدت ريحان، طفلاً يمتصّ إصبع أمّه، يتأمل النجوم ضاحكًا. اختارته مستمعًا لها. فانطلق صوتها من جديد يسامر الليل.

تسلّل مزاحم خلف خطوات نسرین من بغداد للعمارة، ثقل الخيانة يكبّل روحه. ترك الأكاديمية، وانساب مُنحدرًا مع دجلة نحو الجنوب، حيثُ الماجدية ميدان معاركه القادمة مع براءة نسرین. كان يهمس لنفسه كل فجر: «صيّاد الهور الصبور حتمًا سيظفر بطيرة الحِذّاف».

من مكتبه الجديد كمدير عام لتربية ميسان، المحصّن بجدران تعكس عزلته الاختيارية، كان "مزاحم" يرصد وجوه المراجعات - معلمات، مدرسات، موظفات، أمهات طلبة - "الجنس الناعم" كما يسمّيهن بسخرية آثمة، وفي عينيه جوع لا يشبعه منصب، متأبطاً شرّ طموحاته الملوثة.

في كلّ امرأةٍ حسناء موظفة أو تدريسية تدخل عليه، كان يتراءى له طيف نسرین كشبحٍ يطارده في الزوايا المظلمة من وعيه؛ الموظفة التي تمدّ إليه الأوراق بخجلٍ مرتبك، والمعلمة التي

تقترب بعطرٍ يشبه الغياب، كلهنّ يتحوّلن بلا وعيٍ في قاع خبله إلى مرآةٍ واحدة تنعكس فيها ملامح نسرین القديمة. تتداخل الأصوات والعطور والظلال حتى لا يعود يرى المرأة التي أمامه، بل النسخة التي اخترعتها ذاكرته العطشة؛ يلمح في ابتسامتها ذلك الهزء القديم بشخصه، في انحناء كتفها وعدًا مؤجلًا بالانتقام، وفي ارتبائه رغبة مريضة تمزق المسافة بين السلطة والنقص. تمتدّ يده إلى الملفات ببرودٍ إداريٍّ ظاهريٍّ، بينما داخله يغلي؛ يخفي ارتعاش أصابعه كأنه يُوقع قرارًا والإثم يكتب عنه نصّه الخفي. شيئًا فشيئًا تختلط نسرین بكل أنثى تُطلّ من عتمة مكتبه؛ لم تُعد وجهًا مفقودًا فقط، بل قيدًا داخليًا يجره كلما حاول ادعاء السيطرة.

جذوره البعثية الممتدة في الطفولة والذلّ والهيمنة جعلته يرى المرأة ساحة انتقامٍ من الحياة، وفي أعماقه بقي ذلك الفتى المأزوم الذي يلهث وراء نسرین في كلّ العيون، لا ليستعيدها كما كانت، بل ليواصل انتقامه السادي منها، مرّة بعد مرّة، في وجوه لا تعرف عنه شيئًا.

ذلك اليوم، كانت الغرفة مغلقة والهواء مثقلًا برائحة الورق والعطر الرخيص المتسرّب من جسد الموظفة الجديدة. وقفت أمامه مترددة، ترفع الأوراق نحو مكتبه، تهجّج الكلمات المرتبكة، وهو يتأملها كما لو كانت استدعاءً آخر لذاكرته. مالت شفاته بجفافٍ نحو ابتسامة مبهمة، وقال بصوتٍ واهن أكثر من أن يكون أمرًا: «اقتربي».

تحركت الموظفة خطوة واحدة، فجاست عيناه بين تفاصيلها كمن يلاحق طيفاً قديماً. لحظة الصمت امتدت أكثر من المعتاد؛ في ملامحه نزع السلطة وغرائز الخوف معاً. حين مدّ يده نحوها ارتبك الضوء المتسلل من النافذة، واهتزّ الهواء بلزوجة الخطيئة المترددة، لكنه لم يمسه تماماً... لأن نقرة خجولة على الباب جاءت كطرق على صدره. تجمّد. تراجع نصف خطوة، قلبه يخطب كمن داهمه كابوس من نار. ثم سمع صوت السكرتير من الخارج:

«أستاذ... هل كلّ شيء على ما يُرام؟ هل ترغب بشيء؟»

التفت نحو الموظفة التي صارت تلملم أوراقها بعجلةٍ مرتجفة، وعيناه تبحثان عن نسرين في وجهها فلا يجد سوى خوفٍ صامتٍ يذكره بنفسه القديمة. قال بصوتٍ مخنوق:

«لا... لا شيء... غد إلى مكتبك».

ظلّ يسمع وقع خطوات السكرتير وهو يتعد، ثم جلس ببطءٍ على كرسيه كأنّ الأرض ارتخت تحته. الباب لم يفتح، لكن داخله انفتح على فجوةٍ داكنة، أوسع من الغرفة، أوسع من نسرين وكلّ النساء اللواتي حملن ملامحها. مدّ يده نحو فنجان القهوة المرتجف على الطاولة فلم يجد إلا برودته، فابتسم بمرارة، كمن أدرك متأخراً أنه نجا من الفضيحة لا من خبله.

منصبه الجديد تحوّل إلى سلاح في يده لاختراق الولاءات وشراء الذمم. نسج شبكةً من المعلومات حول نسرين؛ ثوبها الذي يرفرف في نسيمات الفجر، خطواتها المتعثرة وهي تحمل بطنها

الثقيل، همساتها الحانية لجنينها، وانحناءاتها المتعبة وهي تلتقط التمر تحت النخلة. راقب لحظات ضعفها حين تمسك بصورة جمال وتذرف دموعها في خلواتها، كأنه يجمع ذخيرةً لحربٍ تأجلت طويلاً.

وبين الظلال وجحيم الكراهية، صادف عليوي العاگول، وزعاً تتقدّمه طموحاته الحزبيّة المتسلّقة لجذع انتمائهِ المزيّف. «حطّه جوّه ابطك، حزبيّ مجيِّش» هكذا وصفه الرفاق.

وبأوامر مزاحم الملتوية، تسلّل عليوي بين موظّفي البريد يجمع شظايا من الأخبار، يلوّثها بحقده الطبقي ويعيدها إليه كملفّاتٍ صغيرة من الوشايات. تحوّل بيته المنزوي في حديقة ميثم الوالي إلى وكرٍ للمؤامرات؛ يجلس فيه مع زوجته نورية وابنته زكية يحيكون خيوط الخداع.

كان مزاحم يتردّد على بيت عليوي متخفّياً، تتراقص نظراته بين المرأتين في لعبة صامتة من الوعود والإغراء. نورية، المرأة الذابلة التي أنهكها الفقر، قرأت في عينيه خلاصاً من حطام العمر، وتوهّمت أن اقترابه شفاعَةٌ لابتتها في صراعها الطبقي مع نسرین. أما زكية، الشابة الراكضة وراء الحلم، فكانت تراه سلماً يصعد بها من حضيض أبيها. وهو، بدهاء الثعلب، وزّع نظراته ووعوده بينهما، يشترى ولاءهما بخطيئة موعودةٍ مؤجلة.

وبينما يُحكم قبضته على تلك الأسرة البائسة، كانت يده الأخرى تنسج خيوط مؤامرة أكبر. بجلّد الصيادين جمع شظايا الوشايات

والأكاذيب حتى اكتمل ملف الإدانة السريّ ضد ميثم الوالي:
انتماءاتٍ شيوعيّةٍ مُختلقة، همساتٌ ملفّقة بين موظفي البريد عن
تجسّس الوزارة على المواطنين وفتح رسائلهم، تذرّ من عيون
المخابرات المزروعة في كلّ دائرة.

هكذا كانت آلة البعث تسحق المواطن بملفاتٍ مُصنّعة من حقد
الوشاة ورغبة الانتقام، فتقلب الجار جلاذًا، وتمنح الموظف الحقير
سلطة الإله الصغير الذي يقرّر مصائر العائلات بجرة قلم.

وحين شعر مزاحم أن الفخّ اكتمل، جاء في ليلةٍ خانقةٍ يحمل
سلاحين: باقة وردٍ في يمينه، وملفًا أسود في يسراه يتأبطه كسكين.
جلس على أريكةٍ جمعته بميثم، وتفجّرت أسنانه الصفراء بابتسامةٍ
حادّةٍ كالنصل:

«جئت أطلب يد كريمك نسرين».

وعيدٌ متخفٍ كان وراء كلماته، وتهديدٌ يرتجف في الهواء، ويدٌ
تلوّح بملفٍ مزوّر كمقصلةٍ معلّقة. رmqه ميثم بعينين مثقلتين
بالحكمة والحزن، صوته يطفح بالسكينة كأنّه يخاطب قدره:

«جمال في قلب ابنتي، عهده باقٍ ما دامت تتنفس».

فتح مزاحم الملفّ ببطءٍ متعمّد، نشر صفحاته على الطاولة
كمقامرٍ يكشف أوراقه الرابعة واحدةً تلو الأخرى، متلذذًا بلحظة
الانتصار:

«ليس هناك خيار ثالث: إمّا نسرين، وإمّا السجن للجميع».

سقط الصمت في الغرفة ثقیلاً كحجرٍ في بئرٍ عميقة.

مرّت بعد تلك الزيارة الملعونة ثلاثة أيّامٍ ثقيلةٍ كأنها ثلاثة دهور.
وفي غرفتها، رفعت نسرين كفّها المزيّنة بخاتم زواجها، تخيلت
وجه مزاحم البغيض حيث كان يجلس، وكلماته ما زالت تصفع
الهواء. تمتمت بصوتٍ خافتٍ كأنها تخاطبه:
«حضرة الرفيق: الحبّ نقشٌ على صخرة الروح، وجمال سرُّ
وجودي».

قبّل ميثم جبين ابنته وقد امتلأت عيناه بحزن هادئ: «لن نكون
جائزة ترضية لجلّاد. سنكون مع جمال في نفس القفص».
تلك الليلة، عاينت خديجة ابنتها النائمة، وقد اعتصر روحها قلقٌ
قديم، كتلك النبوءة التي تلاحق النساء اللواتي يخترن رجالاً
محكومين بالغياب.

عند منتصف الليل وسبع دقائق - تلك اللحظة التي تتبادل فيها
الأرواح مواقعها - اخترق محرّك سيارة مجهولة صمت البيت.
اندفعت ومضة في قلب نسرين كصاعقة. من نافذتها، رأت سيارات
سوداء بلا أرقام، ذاتها التي اختطفّت جمال من قبل.
انطلقت صرخة مكتومة نحو غرفة أمها، بينما تجدد مشهد تحطّم
الفنجان في ذاكرتها، والليل يعبق برائحة الخوف ذاتها.

وفي لحظات اندفع رجال بملابس سوداء نحو المنزل. كان
مزاحم في المقدّمة، أنيقاً ببذلته السفاري الرماديّة وعطره الثقيل،
وخلفه مباشرة وقف عليوي العاكول وهو يصرخ: «وين ميثم
الشيوعي؟!»

انتصب ميثم وقصائد أحمد مطر في يده ذلك الشاعر الذي كان يتنبأ بسقوط الطغاة في كل قصيدة يكتبها. لكمة قويّة أسقطته وحوّلت وجهه لخريطة كدمات. صرخت خديجة، حاولت الوصول إليه غير أن ذراعين من نار أطبقتا عليها بشدة.

«تقرأ للعميل أحمد مطر، مو؟» سأل مزاحم بهدوء مصطنع، «خائن، عميل». اندفعت نسرين نحو أبيها، فهوت يد عليوي العاگول على وجهها. سقطت تنزف. ثم عمد راکضاً إلى المطبخ حيث المخبأ السري لكتب التاريخ والجمال والثقافة فاستخرج منه الكتب الممنوعة تباعاً - تلك التي لا يفقه منها شيئاً، وراح يستعرضها أمام مزاحم وبقيّة الرفاق: الجاسوس الذي جاء من البرد، دواوين للوركا والجواهريّ، كتب ماركس ولينين، وفلسفتنا للصدر. صاح أحد الزبانية «رفيقي يقرأ للصدر!».

جلس مزاحم قرب نسرين: «كلمة واحدة ويعود كل شيء كما تريدن». بصقت في وجهه: «أنت حيوان!»

«خذوهم!» أمر رفاقه، وركل نسرين فأفقدها وعيها. سحلوا ميثماً وزوجته راسمين خطأ متعرجاً بدماء الضحايا. في الخارج تابع الجيران المشهد وقد تجمهروا صامتين بوجوه شاحبة خلف نوافذهم المعتمة. ثم ارتفع صوت مجهول المصدر، ربما قدم من كوكب آخر: «عاش القائد، عاش البعث، عاشت الأمة».

بعد سبعة أيام من الغياب، انزلت ورقة تحت باب نسرين:
«نعرف كل شيء. لديك فرصة أخيرة للتعاون». تحجّرت عيناها
على الكلمات. دارت الدنيا حولها. انفجرت صرخة من أعماقها،
صرخة أجيال من النساء ابتلعتنّ الفجائع.

من جانبهما اهتزّت زكيّة وأمّها عند سماع الصرخة. هرعتا
لنسرين، ليجداها فاقدة لوعيها عند العتبة. «إذا ماتت نسرين،
مزاحم راح يودي جلدنا للدباغ!» مذعورة قالت نوريّة وهي
تستحث زكيّة لمساعدتها بنقل نسرين للمستشفى.

أغلق باب صالة العمليات خلف نسرين، وغابت في عمق
الغيوبة كأنها تنزلق إلى ليلٍ لا نهاية له. فوق الطاولة البيضاء كانت
أنفاس الأطباء متقطّعة تحت الأضواء القاسية، وحين انشقّ صمتهم
أخيرًا خرج الجنين إلى العالم الصغير فيما كانت الأم تسبح في
عتمتها.

في تلك اللحظة، انحنى مزاحم على الظلّ الذي صنعه بنفسه،
وأطلق مؤامرتة. اختفى الطفل قبل أن يلتقط أنفاسه الأولى،
بمساعدة ممرضة خافتة الملامح، ولاؤها لمزاحم أعمق من خوفها
من الله أو الناس.

«طفلي!»

صرخت نسرين عند استيقاظها، فهبّ الفراغ يردّ عليها بصوتٍ
باردٍ لا ملامح له: «وهل كنتِ تحملين جنينًا أصلاً...؟»

وبعد عودتها لبيت الماجدية، تسلل إليها خبر إعدام والديها كما يصل لآلاف العوائل العراقية في تلك الحقبة المظلمة، مختصرًا وباردًا، مرفقًا بتعليمات صارمة تحمل بصمات النظام الديكتاتوري. جاء في الرسالة أنه تم تنفيذ حكم الإعدام بوالديها الخائنين، وأن عليها الالتزام بتعليمات صارمة تقضي بألا تقيم مجلس عزاء، وألا تبكي علنًا، وألا تلبس السواد، وألا تقوم بأي تجمعات للتأبين، مع استيفاء ثمن الرصاصات التي سكنت جسديهما.

هكذا كانت وصايا النظام للعوائل المنكوبة، فحتى في الحزن كان عليهم أن يخضعوا لرقابة السلطة. لم يكن الموت تحت وابل الرصاص كافيًا، بل كان لا بد من قتل طقوس الحداد وتجريد الأحياء من حقهم في البكاء على موتاهم.

وعندما عاد مزاحم زائرًا ببشارات مُلغمة عن إخراج والديها من السجن، كان جاهلاً أنهما أُعدما منذ أسابيع، وأن جثمانيهما قد اختفيا في مقبرة جماعية مجهولة، في وقت كان فيه منشغلاً بمؤتمر حزبي في بغداد. اصطدمت عيناها بعينيهِ مستكشفة كذبه، فأجابها بابتسامة ظفر، ابتسامة من اعتاد على اللعب بمصائر الناس كقطع الشطرنج.

في غرفتها، كان مسدس أبيها ينتظر. تذكّرت تعليماته: «تصويب الصياد يجب أن يكون دقيقًا، وإلا نام عياله دون طعام». جهزت عباءتها ومبلغًا من المال للهروب.

«هل ستُحضّرين الشاي بصمت، أم أحتاج لإخبارك مجدّدًا بالثمن؟» سألهَا بغطرسة. خرجت إلى المطبخ، وعادت بعد دقائق قليلة حاملةً صينية الشاي بيدين ثابتتين. ورغم العاصفة المحتدمة بداخلها انتصبت أمامه واقفة، ترتدي قناع الاستسلام.

سألهَا: «ستوقّعين أوراق استسلامك الآن، ها؟» أجابت من أعماق عالم آخر مليء بالمفاجآت: «نعم، رفيق مزاحم».

«أخيرًا فهمت اللعبة». ابتسم بانتصار وهو يتلمظ بشفتيه كحيوانٍ يتتبّع رائحة فريسته. «تعالى هنا بجانبى كي توقّعي».

وبحركة سريعة فاضحة، عمد إلى فتح سحاب بنطلونه مستندًا على الأريكة، كاشفًا عن نواياه الدنيئة دون خجل أو تردد، كمن اعتاد أن يأخذ ما يشاء متى يشاء.

اقتربت منه بخطوات بطيئة محسوبة.

«صافى يا لبن؟» قال بصوت أجش مبحوح، ومدّ يده ليلمس ثديها بوقاحة من اعتاد شراء النساء.

في تلك اللحظة، انتزعت المسدّس من جيبها بحركة خاطفة. شعرت بثقل المعدن البارد في يدها، وكأنه يحمل كل ألمها المكبوت، كل إهانة، كل ليلة بكت فيها على جسدها المُساوم عليه. تجمّدت الابتسامة على شفّتيه.

راحت تطلق رصاصات انتقامها بعينين تشتعلان غضبًا:

«هذه لمستقبلي الذي سرقته نذالتك!»

أطلقت الرصاصة الأولى فاستقرت في كتفه الأيسر. انتفض من المفاجأة، عيناه تتسعان من الصدمة والألم. يده اليسرى تتشنج وهو يحاول أن يفهم ما يحدث. الدم ينزف من كتفه ويلطخ بذلته السفاري.

«وهذه لجمال!»

الثانية اخترقت كتفه الأيمن. صرخ من الوجع، جسده يتلوى على الأريكة. ذراعه الآن عاجزان، يحاول أن يتكلم، الألم يخنق كلماته، بل يستلّها من حلقه صراخًا. نظراته تتنقل بين وجهها الحازم والمسدس في يدها، وهو يدرك أن اللعبة انقلبت عليه تمامًا.

«وهذه لميثم الوالي وخديجة!»

استقرت الثالثة في بطنه. خار مزاحم كالثور المذبوح، ينحني على نفسه من شدة الألم. الدم يتدفق بغزارة من جرحه، ووجهه يصفر كورقة ذابلة. أنفاسه تصبح مضطربة، وعينه تطفحان بالذعر والاستنجاد.

شعرت نسرين بشعور غريب - مزيج من الانتصار والفراغ. كل رصاصة تحمل اسمًا، كل جرح يمحو جزءًا من عذابها.

«وهذه لطفلي الذي لم أبصره!»

الرابعة والأخيرة استقرت في صدره. سقط مزاحم مرتدًا إلى الوراء، رأسه يصطدم بمسند الأريكة. أنفاسه تتقطع، عيناه تحدقان في السقف بفرع أخير. يحاول أن يتكلم، بدا عجزه كليًا ففاض الدم من فمه بديلًا عن الكلمات.

خمد جسده على إثر الرصاصات الأربع، والدم يتسرب من جراحه راسمًا خريطة سوداء على سجادة والدها التي طالما صلّى عليها. لم تشعر نسرين بالندم، بل بفراغ هائل - وكأنّ روحها تطهرت أخيرًا من أشباح الماضي.

التقطت العباءة ومبلغًا من المال وانسلّت من باب المطبخ قبل وصول زكيّة وأبيها. وفي طريق هروبها أستوقفها صوت يشي بالحب «إلى أين يا نسرين؟» صوت قادم من تمر النخلة ونبق السدرة، «المنفى... لوحة سريالية كل يوم نضيف إليه لونًا آخر من الرحيل» أجابت مختفية في الأزقة الضيقة.

عند جسر الماجديّة فكّرت بالانتحار، وقبل أن ترمي نفسها في النهر اخترقها صوت أبيها: «العميد عبد الكريم كان دومًا جزءًا من الحلّ». وهكذا غيّرت وجهتها نحو بيت العميد على أطراف العمارة. وكما تقضي سنّة الحياة القاسية، فإن المحن تتوالى كالموج العاتي ولا تأتي فرادى، فعندما اقتربت سيارة اللاند غروزر من ضواحي سيّد مديح حاملة نسرين إلى آخر نقطة في الأرض بحثًا عن خلاص. فجأة لاحت في الأفق على مسافة تسمح بالرؤية بوضوح، نقطة تفتيش عسكرية مُحكمة.

انقبض قلب السائق وهو يتأمل الحاجز الذي يتصب كعقبة مصيرية في طريقهم. «سيطرة!» صرخ بصوت متوتر وهو يدوس على الفرامل بقوة، فانزلقت السيارة على الأسفلت في صرير مُرّوع.

وبلحظة يأس، فتحت باب السيّارة قائلة: «أكملوا طريقكم!» ألقت جميع ما حملته معها من مال ودفعته للسائق وانزلت إلى الظلام، متسلّلة بين شجيرات الطحمة والعاقول. تبعتها صفّارات السيّطرة، أو هكذا خُيّل إليها، وفي حقيقة الأمر كانت مجرد زقزقة "زّرة" عصافير تحثّها على الهرب. ركضت عبر الحقول، وقدهاها تغوصان في الشوك و"البزيز" والطين، وأصوات الجنود تتلاشى تدريجيًا. ثمّة ملجأ فتح ذراعيه، دلّها إليه كلب مسالم، لم يكن غير بيت حمدان.

رفعت نسرين عينيها المثقلتين بالنعاس، نظرت للنائمين: «حمدان؟ عنيدة؟ ريحان؟ ما رأيتموه لحظة سقوطي في باحة داركم كان جسدًا مُنهكًا، وما خفي كان روحًا تنزف منذ سنوات». انتبهت لنفسها وهي تتحدث لأشباح نائمة، ضحكت ساخرة من كوميديا العالم واستسلمت لفراشها، غارقة في نوم عميق.

وديعة انسحب النهار ببطء. في قرية كانت تتنفس الخوف، احتمت نسرين خلف جدار هشّ أبعاده ثلاثة: حمدان وعنيدة وريحان الصغير. أمّا حمدان فقد جلس وحيدًا يستعيد اعترافات نسرين. وبعد ليالٍ من التأمل، أيقن عمق جراحها، فقرّر تبني معاناتها متحدّيًا مصيره الموعود بالخسائر.

بين أروقة الضمير، أيقن الزوجان أن خذلان نسرين يساوي موت إنسانيتهما. لذلك وطّنا نفسيهما على صياغة جسر للحرية من

معدن تضحيتهما، واهبين رويهما للسلطة التي تطاردها بصفقة مقايضة إنسانية غايتها سلامة نسرين فقد جعل الله أفئدة من الناس تهوي إليها.

حمدان، واستعدادًا لتمثيلية متكررة طوال فترة هروبه وبإشارة خاطفة، وجّه نسرين للاختباء في الحظيرة. اعتمر بيريته العسكرية متصنّعًا دوره أمام ضحكات طفله الغارق في ضحكاته: «الجندي المكلف الهارب حمدان، سيدي!» ومن ركن الغرفة، انزلت عنيدة حاملة مرآة مشروخة وابتسامة كشفت عن أسنانها اللؤلؤية: «امسح نغفتك يا المكلف الهارب».

أطلت نسرين بعينين تختزلان الرجاء من خلف باب موارد. صامتًا وعد حمدان بحمايتها مهما كلفه الأمر، ثم خرج بحقيقته المهترئة مودّعًا: «فيما ن الله».

تفجّر قلبه بعاصفة صامتة. نثرت عنيدة الماء خلفه، ورفعت صوتها للراعي المراقب - أحد عيون الشيخ هلال الذي مرّ بقطع غنمه من أمام بيتهما: «وداعة الله أبو ريحان».

وعلى جدران الواقع، رسمت خدعتهم ظلالًا متقنة أمام عينيه المتلصصة. بينما حمدان استمرّ بتمثيله. زار قصر القرية، قبل يد الشيخ هلال، وأكمل مسرحية الخداع.

وعبر عتمة اليأس، دائمًا ما يظهر سرور ابن عم حمدان منقذًا. نماذجه المزورة تحوّلت إلى جواز عبور نحو شواطئ حرية

مغموسة بالخطر. رفض حمدان العودة للجيش خوفاً على عائلته،
متشبهاً بأحلام الهروب رغم قرارات العفو المتكررة.

ومع أول لاند غروزر توقفت على الشارع العام حشر حمدان
نفسه في خانة الشواذيّ عند أقصى السيّارة سائلاً السائق قبل أن
يصعد: «خويه، العمارة؟»

«يلاً اصعد».

ابتلعت دوامة الغبار الذهبي سيارة اللاند غروزر وهي تشق
طريقها الوعر نحو قلب العمارة حيث شقة سرور، أما صقر،
الوريث المتمرّد لعرش الشيخ هلال، بقي واقفاً كتمثال من الحقد
المُتحجّر. يتلاعب بين أصابعه المُرتعشة بحجر الخفاف الأسود،
ذلك الشاهد الصامت على لحظة ذلّة التي لن تُمحي من الذاكرة.

وعلى جبهته المتعرجة الخطوط، كانت تتوهج ندبة شاخصة
كنجمة سداسية محفورة بالنار، تحكي بصمت مُطبق تفاصيل
الإهانة التي ألحقتها به عنيّدة - المرأة الجسور - تلك المرأة التي
تجرأت على كسر هيبة آل هلال.

الآن، وقد تيقّن صقر من اختفاء حمدان في رحلة التحاقه
الطويلة بوحدته العسكرية، اشتعلت في مقلتيه جذوة انتقام أسود.
ناجى نفسه بصوت خافت كفحيح الأفاعي: «لقد حان وقت
الحساب، يا عنيّدة».

بهذه الكلمات، ختم صقر مخططه الجهنمي، لتسود خربة
حمدان ليلة من الصمت الثقيل. كان الصمت هو الكائن الثالث فيها

تلك الليلة. صمّتٌ كثيف، له ملمس، يتمدد في الفراغ الذي خلفه القلق. كانت تتقاسمه امرأتان كأنهما قطبان متنافران جمعهما القدر في كَفٍّ واحدة: عنيدة، ابنة الهور التي لا يكسرهما إلاّ خيانة الخائنين، وبجوارها نسرين، الثائرة التي كسرت قيود الترف لتقع في فخّ الهروب والمطاردة. وحده بكاء رضيع كان يجرّو على خدش هذا الصمت، معلناً أن الحياة، رغم كل شيء، ما زالت تتجول هنا. ألجأ الصراخ عنيدة لطقس "الماء الغريب" سقت طفلها قطرات منه، وغنّت: «يَمّه الولد ييني... نام نومات الهنيّة».

أشعلت نسرين سيجارتها بأصابع مُرتجفة - تلك العادة الطارئة التي تسلّلت إليها منذ دخولها بيت حمدان، وعبر دخان التبغ المُتصاعد، راحت تتأمّل دوامة الخيبات التي تتوالى ملتفة حولها بدائرة من نار، تحكي بكونولوجيا مُؤلّمة قصصاً تنطق بلغة الألم. تبادلت مع عنيدة هواجس الخوف المُتراكمة وتوقعات المصير المُبهم، كلمات صامئة تتدفق بين امرأتين صاغتهما الأقدار من طين الصبر والمعاناة. في تلك اللحظات الحرجة، وجدت كلاهما في الأخرى مرآة لآلامها الدفينة.

أخيراً، استسلمت عنيدة وابنها ريحان لنومة آمنة تحت جناح حماية نسرين حارسة أحلامهما من كوابيس الليل المُقبلة. وفجأة، قطع صمت الليل قريباً من الجدار خطو الخيانة المُتوقّع. وبسرعة خاطفة انتزعت نسرين حربة حمدان من الجدار الطيني واختبأت تحت إزار منامها الخفيف.

تسلّق الملثم السور بشهوة عمياء. عيناه المحمومتان التقتا بلمعة الفانوس، غافلاً عن نصل الحربة وهو بيد نسرين. وبجراحة خائن، كشف عن ساقي عنيدة النائمة وطفلها يرقد بريئاً جنبها. التهم الغادر جسدها بنظراته بشعور منتصر نذل.

داخل نسرين، صرخت روحها تخاطب نفسها: «لن تكوني بعد اليوم تلك الدمية المستسلمة. حان وقت الولادة الجديدة، تشجعي وردي دين هذا البيت». وفي تلك اللحظة انتزع الملثم لثامه، فإذا به صقر، ابن الشيخ هلال - غريم حمدان القديم، الذي جاء ينتقم لندبة جبينه.

وبلا تردّد، تمردت نسرين على سكونها. حربة حمدان ستفضّ بها بكارة جريمتهما الثانية، المولودة من رحم الخوف، بعد رصاصاتها الأربع التي زرعتها في جسد مزاحم.

استيقظت عنيدة فجأة حين لامست أصابعه الباردة بشرتها. صرخت باسم حمدان باصقة بوجه صقر. صراعهما أيقظ ريحان الذي أطلق بكاءً اخترق صمت القرية، لكن... لا حياة لمن تنادي! تدحرج الجسدان فوق جسد الرضيع حتّى خبت أنفاسه البريئة.

استلّ صقر مسدّسه محاولاً إيقاف ثورة عنيدة، فتصارعا في هيئة دوامة لا تهدأ فيمن يستحوذ على الزناد. انطلقت رصاصة يتيمة، فتوقّف معها كل شيء. ارتعدت نسرين تحت شرشفتها، مفكرة فيمن قتل الآخر؟ صمت ثقيل ساد المكان حتى لمحت صقرًا من خلل

شفافية الإزار يقف كظلّ رعب أمام جثتي عنيذة وابنها، فزادت
مناسيب خيبتها.

دفعتها الفواجع لاقتحام المجهول. فتحوّلت من مستسلمة إلى
صرخة دائمة الاهتزاز. انطلقت نسرین، قاطعةً صمت القرية.
تحجّرت الدماء في عروقها، يعتصرها خذلانها لعنيذة.
«اثبتا يا يداي».

مشحونة بالوجع كبرميل بارود، رمت الإزار عنها وانطلقت
بسرعة قطار مجنون نحو صقر المتصارع مع الباب كنافذة نجاة
أخيرة لهروبه المخزي. كانت قوّة خفية قد أعمته عن السور
المنخفض الذي تسلّقه قبل قليل، فتشبّث بالباب يصارعه بعناد
الغريق.

وصلته محمولة بالغضب كإعصار مُدمر، فأغمدت حربة حمدان
في عنقه بحركة واحدة حاسمة. غاص النصل في كتفه حتّى خارت
قواه وهوى للأرض كشجرة مقطوعة.

عادت فاستلّت الحربة من كتفه بحركة راقصة كالموت لطيف
منتقم أقبل من أساطير الجحيم شاهراً جنونه. تفجّر الدم نبعاً أحمر
قائياً، فصرخ صقر صرخة وحشية ارتطمت بجدران الليل وتشظّت
في الفضاء. استدار متعثراً كسكران، يترنّح في دوامة الألم، محاولاً
معرفة من أسكت شرّه إلى الأبد.

صعقه المشهد: امرأة غريبة، وجهها يحمل جمالاً قاسياً كنحت
الرخام، ترقص أمامه بحربتها كلاعب سيرك محترف. بريق عينيها

المتوحش وغضبها المتحجر صخرًا أذهلاه. حدّق فيها مأخوذًا وهو يرى الموت بعينه. وبلا تردّد أو رحمة، مرّرت الحربة على بطنه بحركة أفقية مُتقنة تُذكر برقصات بروسلي الشهيرة في أفلام الكونغ - فو، مواصلة رقصتها الدموية الفتّاكة. تدلّت مصارينه خيوطًا سوداء كجبال الليل المُعتم. حاول بيأس إعادتها إلى جوفه المُمزّق، عيناه تسألان بالباح محموم عن هويّة جلّاده الجميل.

همست بصوت أشبه بحفيف الموت: «أنا ملاكها الحارس، والمؤسف في ذلك أنني قد أنهيتُ حكايتك متأخرة!» صرّت على أسنانها كوحش مُفترس وغرزت حربتها في صدره مجدّدًا بلا شفقة. تركته يصارع نزيفه الأخير، سخرت من رجولته المزيفة وكبريائه المُنهار، حتّى لفظ أنفاسه الأخيرة تحت نجوم الليل الباردة. وبعد أن هدأ كل شيء، وعند حدود بركة الدم المُتسعة، رأتهما أمّا وصغيرها متوهّجين في رحلتهم الأبدية فأذهلها ضوء روحيهما فتمتمت: «للوّرد ألوان شتى». ثم انفجرت بيأس الشكالي متسائلة: «هل ينام الموتى؟»

فجأة، اقتحمت الأغنام الباحة، محطّمة حظيرتها. ثغاؤها نواح جنائزيّ. طافت حول الجثّتين في موكب مهيب، ثم انسحبت عبر السور نحو الظلام، تاركة البيت الذي لم يعد يصلح للبراءة بعد رحيل عنيدة وريحان.

الفصل الثاني

”كلّما كان الليلُ أشدَّ ظلاماً، كانت النجوم أكثر سطوعاً. وكلّما
كان الألم أعمق، كان الله أقرب”
”دوستويفسكي”

(٧)

بظلّ مطارَد، قطع حمدان المسافات نحو "العمارة" محشورًا في
خانة الشواذِي في مؤخّرة اللاند گروزر، جاهلاً أن الموت قد حطّ
عقابًا بجناحين مهولين فوق بيته قَبْل قليل.

«ها، بو خليل، ملتحق أن شاء الله؟» ترحلق صوت السائق
متسرّبًا لأذنيه عبر رؤوس الركاب كبوق الاستيقاظ في ثكنات
الكشافة.

«إي والله خويه». عبّر خبرات متراكمة، أثقن من خلالها
الإيجاز مع الغرباء، مجيئًا بما يتوقّعون، تاركًا الصمت يُكمل ما
بدأه، ففي وطن تتحوّل فيه الكلمات إلى تهمة والتهمة إلى قضبان
يكون السكوت بلاغة.

من خلال المرأة الجانبية التقت عيناه بعيني الرجل الأربعيني
الجالس بجوار السائق: «وحدثك وين؟»

«بالفاو عمّي». انطلقت كلمته رصاصة استقرّت في صمت
السيّارة. حيثُ الفاو، اسم تسلّل من الأساطير إلى قاموس الرعب.
أرض ابتلعت الرجال، فعادوا أشلاءً وبعضهم لم يعد حتى هذه
اللحظة، تاريخ من الموت المجاني.

«واليموتون ما يردّون، ظلّينه عالدمعة!»

هذا ما كان يريد قوله إلا أن ثمة أقفال نفسية أطبقت على فمه
وفم غيره فالجمت حرّيتهم. ففي زمن الحرب، تبدّلت الحقائق
أوهامًا، الوجوه أقنعة، الأصوات شروخًا، النظرات أشراكًا وفخاخًا.
عند گراج "مسيعة"، ترجّل بأقدام مثقلة بالهواجس، وقد
غشيت الكآبة وجهه الشاحب. كان الرصيف يعجّ بأشباح بشرية
تتحرك كالأموات لا تستدل طريقها: جنود بملابس باهتة انطفأت
ألوانها مع انطفاء أحلامهم، وعائلات مهاجرة باتجاه منزل آمن
استقر بعيدًا عن ضربات إيران الجوية، متشبّثة بامتعتها كأنها بقايا
حياة سابقة، وتجار يبيعون الأوهام في زمن لم يعد فيه متسع
للحقيقة.

ردّد نادل لازمته الشهيرة «تفضّل حبيبي... كباب لحم طلي...
وبهالركبة!». وهو يتسّّد بوابة أحد المطاعم بصوت تأكلت حروفه
من كثرة تكرارها. امتزج صوته بضجيج طرقات الحدّادين المتوالية،
وما علق في الفضاء من صخب النهار لطلاب المتوسطة المركزية
وهم يتدافعون في الأزقة الضيقة باتجاه بيوتهم بأهزوجة خالدة
"عطلة، عطلة رسمية، عيد الوحدة العربية"، ليجتمع كل ذلك بـ
"كاكوفونيا" أرهقت أذنيه - تلك الضوضاء المتنافرة التي تتشابك
فيها الأصوات دون نظام أو تناغم - ذكّرته بسوق الصفافير في أيام
خلت، حين كان للضجيج معنى، وللفضى نظام، وللعمر بقية.
التفت بنظرة بانورامية لما حوله وتساءل في سره: «أي وهم
سأشتري الليلة؟»

حاول اختراق الحشود فتصادم بأجساد تائهة. جنديّ شاحب، امرأة وطفلها، شاب يحمل ثلجًا باتجاه مطعم "دويج". وفي ذهنه، تردّدت كلمات المطرب الشعبي أحمد عدويّة: «زحمة يا دُنيا زحمة... زحمة وتاهوا الحبايب. زحمة ولا عادش رحمة. مولد وصاحبو غايب.. آجي من هنا، زحمة. وأروح لهذا، زحمة. هنا أو هنا، زحمة. زحمة يا دُنيا زحمة!!!»

بيقين مؤلم، عرف أنّه الغائب الوحيد وسط هذا المشهد البائس. عريان الروح، خوفه يشخّ فاضحًا هروبه.

سار في شوارع الماجديّة مكبلاً بخوف مرعب. وكلّ خطوة تعمّق إدانته. راح يذرع الأزقة بقدمين غريبتين. تحاصره العيون من كل جانب، كل نظرة تحوّل هدفًا، كل وجه يذكره بجرمه، وغثيان خفيف يتسلّل إلى معدته.

منذ أن غرس حربته في جسد السركال لحظة محاولته الاعتداء على شرف أمّه فضّة - حربته التي استعارتها نسرين لتعيد حكاية قتل الخونة، صدح وعيه المنقسم: «آني فرار... آني فرار».

اختار ألا يكون جنديًا، اختار الحرّيّة، فأصبح أسيرًا لها. في رأسه، تراقصت الوجوه، أمّه فضّة، عنيدة، ريحان، ثمّ نسرين التي تركها في بيته تراقب الظلال. «اللعنة، ماذا لو رآها أحد من أهل القرية فافتضح أمره؟» هواجسه تزحف على جدران وعيه، تطنّ في جميعته متغذّية على بقايا عقله. كل شيء ملوّث بالشكّ والندم.

«كم الساعة؟» سأل شابًا عابراً بصوت مرتجف: «الثامنة مساءً». أجابه الشاب دون التفات، هاربًا من عدوى خوفه، الذي بات وشماً يتسيد ملامحه.

أربع ساعات قبل لقاء سرور - أربع ساعات انتظار، يا رباه، أمدّ قاتل، وحش يكرهه أكثر من صهيل البنادق؛ البندقية صادقة بنيتها، أما الانتظار فتعذيب بطيء للروح، سجن يتلف الأعصاب ويسمّ الأفكار.

في تلك اللحظة، وقد بلغ به الانتظار هذا الحدّ من العذاب، قرر أن يقتل الوقت الذي كان سيقتله حتمًا، ذلك الوقت الثقيل الذي يتدفق أبطأ من العسل في شريان ضيق، في ذات الوقت الذي ينتظر فيه مواعده مع سرور الذي هيا له نماذج الحرية، تلك النماذج التي تمنح الرجال الغارقين في أقدارهم جرعة أوكسجين أخيرة قبل أن تبلعهم أحكام الرئيس نهائيًا، وكان يعرف في أعماق روحه أن نماذج سرور المزورة ما هي إلا فرصة حياة أخرى.

في شارع دجلة، حيث آثار المدينة المتعبة التي كانت تنعكس على وجوه المارة، سار حمدان منهكًا، يحمل في قلبه سؤالاً يقضّ مضجعه: «هل الفارّ من الحرب جبان، أم حكيم؟» همس في آذان الخرسانات الأسطوانية وهو يلصق فمه بأسمتها المتحجر، وكأنها كانت تراقب حالته، مكرّرًا سؤاله الذي يعكس الحيرة والألم المحيط به، متسائلًا عن معاني الضعف والقوة في زمن الحرب.

وفي صمت مقدس أجابته تلك الأعمدة الصامته التي شهدت على كل هروب ونزوح وخوف في تاريخ المدينة أبطاله؛ أولاد الخاوية وذويهم: «أنت الهارب الوحيد مخافة انفضاح ظلّه»، فتجمد الدم في عروقه لأنه أدرك انفضاح أمره، أي جحيم ذاك الذي أنت فيه فحتى الخرسانة تعرف شرك الدفين يا حمدان، الخرسانات الأسطوانية تحذره من انفضاح أمره أمام نفسه قبل الآخرين، فكان الذنب يمزق أحشاءه بأظافر حادة لا ترحم.

استوقفته حشود من محبي الأفلام الهندية أمام سينما النصر الواقعة في مدخل شارع بغداد، وقد تسيد واجهتها بوستر فيلم "ديوار"، الذي مثل فيه "أميتاب باتشان" شخصية "فيجاي"، الرجل الهارب. كان فيجاي يحمل في عينيه نفس اليأس الذي تجلى في عيون حمدان، إذ يشعر كلاهما بنذالة العالم من حولهما.

وهو يتأمل لقطات متنوعة من الفيلم كانت معلقة في الخانة الزجاجية في مدخل السينما، لاحظ وجهه الموزع على السطح الشفاف، محتلاً إطار صورة أميتاب. في تلك اللحظة، أدرك أن القدر يلعب لعبته معهما؛ فقد جمع بينهما ظليّن اشتركا في ملامح معاناة واحدة. أحدهما يجسد هيكلاً حقيقياً يقف أمام زجاج بارد في مدينة جريحة، وآخر يظهر كصورة تتراقص على الشاشة الزجاجية.

كلاهما كان يحاول الفرار من واقعه، وكلاهما يسعى للعثور على منفذ من جحيم لا ينتهي، باحثاً عن مخرج أقل وطأة ولو عبر

خرم إبرة. كانت مشاعرهما تتداخل على نحو غريب، إذ ترى كيف يعكس الفيلم آلام الحياة اليومية.

«حتى الأوهام تعرف مأساة الظلال الهاربة»، تتمم حمدان وهو يتذكر مزحة عنيدة حين رفعت له المرأة قائلة «شوف نغفتك، مو تنسى، عود امسحها» تلك المزحة التي كانت نبوءة قاسية عن الزمن الذي سينقش بصماته على ملامحه دون رحمة، وبقي واقفاً أمام الملصق السينمائي وقتاً أطول من اللازم، يتأمل كيف يكون الهروب من الظل لغة عالمية تُفهم في بومباي والعمارة على حد سواء، وكيف أن فيجاي الذي فرّ من الفقر والظلم نحو عالم الجريمة هو نفسه حمدان الذي يفر من الحرب نحو المجهول، كلاهما يهرب من انكشاف حقيقته أمام المرأة، كلاهما يبحث عن خلاص حتى لو كان ثمنه الدخول في متاهة أعمق وأظلم، والفارق الوحيد أن فيجاي حصل على خلود الشاشة الفضية ليختبئ ظلّه إلى الأبد، أما حمدان فلا يملك سوى انتظار سرور، وبيده أوكسجين النجاة المؤقت الذي قد يخفي صورته ساعة أو ساعتين عن أنظار تُهم البعثيّة.

انتابته ذكرى عنيدة التي كانت تجول في ذهنه بل تطرق فيه وعليه دون استئذان، فتذكّر تلك الليلة الأخيرة قبل قرار الفرار حين ضاجعها حتى الإعياء، يخبئ في جسدها كل رغبات العمر وهلع الموت المقبل وخوفه من النهايات المؤلمة. استخرج دشاشته واستبدلها بملابسه العسكرية ولمس خيطها الذهبي الذي طرزته أمّه

فضّة قائلة «هذا يحميك» فسخر من نفسه لأنّه وطّن نفسه على حقيقة واحدة: ما من شيء يحمي الهارب من افتتاح أمره سوى وعود سرور بجنة من صنع "نماذج" الحرية المزورة، التي تأتي مثل طيور مهاجرة في مواسم الخوف الأعظم.

على ضفة دجلة حلق في انعكاس وجهه المضطرب وقال بصوت يخاطب كل الهاربين في العالم: «نحن الهاربون عندما كنّا نضاج نساءنا كنّا نحارب جميع رجال الانضباط العسكري من حولنا»، ثم أحكم سحاب حقيقته وحملها باتجاه البار.

اجتاز عتبة البار بأقدام حذرة وهو يضجّ بالتوتر والاستسلام معاً، حيثُ رائحة العرق والدخان تلسع أنفه والمكان يغصّ بأرواح تبحث عن عزاء عابر في معبد المحطمين حيثُ الألم يطفو مع الكحول، حاملاً في قلبه صورة أميتاب، رفيق الهروب الخيالي الذي يفهم معنى أن تكون محاصراً بين نارين، منتظراً مُنقذاً قد يأتي مع شروق الشمس وقد لا يأتي أبداً.

وليد النادل المصري الذي ظهر فجأة في تاريخ العمارة دون أن يعي أحد من أهلها تفاصيل قدومه "كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟". استقبله بنظرة خبيرة، قاده لطاولة معزولة. «تشرب إيه يا باشا؟»

«ربع عرق». أجاب متأملاً بنظرة بانورامية دارت على جميع الحاضرين في الصالة: أضواء باهتة، جدران عتيقة، موسيقى قديمة، ستائر حاجبة، وزبائن يحتضنون كؤوسهم كآخر رهان على أن

العالم ما زالت فيه ثمة حياة. وياتقان خبير، قدّم وليد أمامه زجاجة العرق وشيئاً من المزة. صبّ لنفسه، راقب السائل الشفاف يتحوّل حليبيّاً مع الماء، كما تحوّلت أحلامه إلى سراب. نظر إلى الكأس أمامه وابتسم ابتسامة خفيفة، أول ابتسامة حقيقية منذ أيام، ثم نظر إلى وليد النادل بعينين تلمعان بمسحة من مزاح معتاد: «أسألك: اسم هذا المشروب شنو من نخبطه بالماي؟»

التقط وليد روح المزاح في سؤال حمدان وضحك بصوت دافئ: «حليب السباع طبعاً... هو انت تعلمني شغلي يا باشا؟» كان يعرف أن حمدان يمازحه، وأنّ هذا النوع من الحديث الخفيف هو ما يحتاجه كل من يدخل البار حاملاً أثقال الدنيا على كتفيه.

وما أن غادره وليد صوب طاولة أخرى حتى غاص حمدان في فصلٍ من الراحة النفسية لم يعتدها منذ زمن طويل، وهو يرتشف عرقه ببطء، مستمتعاً بهذا الإحساس الطريّ رغم كل ما كان يحمله من هموم، وهنا تكمن وظيفة البارات بالنسبة لأمثال حمدان من المغيبين، الهامشين، المنكسرين. هنا في هذا المكان، بين هؤلاء الرجال المحطمين، يمكن للمزحة أن تخفف وطأة الانتظار، انتظار سرور ونماذج الحرية التي وعده بها، وربما للحظات قليلة يمكن أن ينسى أنه هارب يخشى انفضاح ظله، وهذا ما يبحث عنه في كل هذا الجنون الذي يعيشه.

مرّت الدقائق زاحفة نحو الفجر. واصل حمدان مُدوّنًا في مخيلته مشهد المسرح البشريّ المائل أمامه بنظرة بانورامية: العجوز

ذو العينين الغائرتين، الشبان الثلاثة بضحكاتهم المصطنعة، والشيخ الوحيد بزوايته المعتمدة.

ومع كأسه الثاني، بدأت الأصوات تتداخل والوجوه تتلاشى حدودها. صورة نسرين تخترق وعيه، ثم خيال عنيدة، تفاصيل جسدها محفورة في ذاكرته، أما وجهها فيأبى الظهور بوضوح بعناد زاد في مناسيب قلقه.

تساءل «هل الرابضون على جبهات القتال، والفارّون، والأسرى مثلي يحتالون على الحياة فينتزعون وجوه أحبّتهم من السراب؟» وسط هذا البحر البشري المتماوج، ظهر فجأة وجه شاحب كأنه انبثق من العدم، طالته عينا حمدان، فكان الأستاذ كُرَيْم، معلّم مادّة العلوم في المدرسة الطينية بالهور. استحال وجهه إلى خريطة للخسارات، ووديان عميقة من الحزن.

فجأة، انتفض كُرَيْم صارخاً: «كلنا نحبّك يا عراق! حيّاك يابو حلا يابو حلا!»

سكب هتافه صمّماً ثقيلاً في المكان. تجمّدت الأيدي على الكؤوس، وتبادل الرّواد نظرات مرتبكة. فاجأهم صوت "ضرطه" لأحد الزبائن، استخدمها لإشغال من كان يعدّ أنفاس الحضور، فانشغلوا بقرع الكؤوس، والتنحنح المصطنع، وضحكات متفرقة. اقترب وليد بزجاجة بيرة وكأس تشعّ بلون الغروب. «ونحن نحبّك أكثر، يا عمّ كُرَيْم».

أشار كُرَيْمٌ بإصبع مرتجفة، فأسرَّ في أذن وليد كلمةً بفحیح أفعى: «أقول لك سرًّا. الوطن برمیل بارود. وحماقات الرّيس أشبه بقطعة كبريت».

«أليس هذا الرجل هو الأستاذ كريم، معلّم العلوم؟» سأل حمدان.

«نعم. يُلقَّبونه الآن كُرَيْم شيشه - لإدمانه الخمر بعد فقدان عائلته في غارة جويّة ليلة نوبته الحزبيّة فوق أسفلت "ناظم المشرح"». ثمّ أضاف: «كان يدافع عن شيء لا يعرفه، ضدّ عدوّ يجهل من يكون».

فجأة، انهار كُرَيْم على الأرض في نوبة صرع اعتاد وليد ورواد البار عليها. خريطة وجهه انكمشت في تشنّج عنيف. لم يتحرّك أحد، فقد استحالت المآسي طقوسًا يوميّة. نهض حمدان كمن وخزته إبرة الإنسانيّة. وليد، بحاسته السادسة، سبقه إلى جسد المعلّم المتشنّج.

«حمدان... كل شيء هنا يموتّ ببطء». همس وليد.

«أو تعرفني؟» سأل حمدان مذهولًا.

ابتسم وليد بعينين نافذتين: «أعرفك وأعرف جميع من اكتووا بنار الظلم في هذا البلد».

حين رشّ الماء على وجه كُرَيْم، استيقظت فيه الحياة. وعندما رأى حمدان، تبدّلت ملامحه. ذابت ثورته، وتسرّبت من عينيه نظرة عارفة، لم يحتاج للكلام بعدها، فقد قالت نظرتّه: «أعرف بأنك

هارب أيها التلميذ الْوَكِيح!» ثم جرع ما تبقي من كأسه، ضاحكًا من نفسه، من نوبة الصرع التي تذكره أن الألم لا يفنى، بل يغفو ثم يستيقظ أكثر جوعًا.

مرّت ساعة ثقيلة. انسحب المعلم المهزوم إلى رُكنه بصمت، بينما تنفّس حمدان الصعداء، محاولًا استيعاب المكان بعدما انقشع ضباب الصدمة.

في تلك اللحظة، انهمك أبو جورية صاحب البار بنقاش محتدم مع رجل خمسيني حول أسطورة الكرة العراقية. «فلاح حسن بدأ مع الطلبة، هذا تاريخ معروف!»

ضرب أبو جورية كأسه على الكاونتر معترضًا: «وحياة أمّ راضي وطبيتها، بدأ مع الزوراء! كنت أحضر مبارياته الأولى. لا تُزور التاريخ أمامي».

«منْ ذلك المتوّج على عرش هذا المكان؟ ومن هي أمّ راضي التي أقسم بها؟» سأل حمدان بعين مغمضة وأخرى مفتوحة متخذًا من هيئة القناص طريقة للإيحاء بجديّة سؤاله.

مسح وليد كأسًا بقطعة قماش بالية وزفر بحرقه شديدة: «ذاك أبو جورية. رجل منحوت من صخر المنيا، يحمل في عينيه أرشيف البار كاملاً. أمّا أمّ راضي، فهي روح المكان الخفية، امرأة طاعنة في الوجع تسكن في شقّة متصلة بالبار. لا يقسم أبو جورية بشيء أغلى منها». أشعل وليد سيجارة لحمدان وتابع: «عثر عليها

أبو جورِيّة قبل عشرين عامًا مشرّدة على رصيف شارع دجلة في ليلة شتاء باردة. منذئذ، صارت جزءًا من روح المكان». ثلاثون عامًا علّمتها فيها قراءة الوجوه كمن يقرأ كتابًا مفتوحًا، فصار أبو جورِيّة بارعًا في فكّ شيفرة الأرواح المُتعبة. عيناه الغائرتان في محجريهما خلقتا من صمت الفجيرة المُتراكمة، وشاربه الكثيف المصبوغ بصفرة النيكوتين يخفق مع كل نفس كجناحي عقاب.

كان يرّدّ دومًا بفخر أنّه اشترى هذا المعبد المُتهالك عام ١٩٥١ من يهوديّ هاجر إلى أرض يظنها الأرض الموعودة التي ذكرتها كتبهم، تاركًا وراءه ذكريات محفورة في الجدران.

«أمّا أمّ راضي فكانت تستيقظ مع الفجر الأول» واصل وليد حديثه بصوت حالم: وبعد صلاتها الخاشعة كانت تعدّ الباجة لزبائن البار، الذين لا تراهم سكارى إنّما مجموعة من المنكوبين الذين رمتهم الحياة القاسية على قارعة طريقها ظلمًا وعدوانًا. لذلك كانت تحرص على أن تكون "باچتها" على أطيب ما يكون، كأنها تُطعم ملوكًا. كانت امرأة تحمل الماجديّة القديمة في روحها النقيّة.

انكسرت روح أبي جورِيّة يوم اكتشف خيانة زوجته. في درج كنتور خشبي قديم، كانت تختبئ صورة باهتة لها، كان يخاطبها كل ليلة: «لم هربت مع عشيقك وحزّضت شرور كرامتي كي تذبحك؟»

«أمّ راضي كانت بلسمًا لجرحه. علّمتها التصالح مع الذكريات، الغفران دون نسيان».

استوقفت حمدان فراغات معتمة: «ما بال تلك الطاولتين تبدوان كجزيرتين منسيّتين؟» فلاحت على وجه وليد ابتسامة مثقلة. أشار نحو الركن المعتم حيث كان يجلس عازف عود، وشاعر من سلالات الغائبين في الرذاذ. التقيا في برزخ الأنغام، يتشاركان أغنيات عن حروب وجنود. وفي سكرة طويلة، بعثرا كلمات تسخر من السلطة. اختطفهما الأمن، مُتَّهَمَيْنِ بجريمة التفكير.

بكى حمدان موقنًا أن الجميع هنا يبحث عن ملاذ ولو داخل خرم إبرة هربًا من واقع مرّ. «هل الهروب نهاية أم بداية؟» تقيًا حمدان جمرة في قلب حضوره.

ومع اقتراب ساعة الإغلاق، اقتحم البار "نعيم قامة" ذو القميص الأصفر المُتسخ، كظِلّ مُشووم، شقيّ العمارة المهزوم دائمًا وأبدًا، بعثي حديث العهد بالنفاق، سيء السمعة. أتى متأخرًا كعادته في بثّ الرعب بين الزبائن. غاص في تفاصيل طاولة قريبة من الباب. عيناه المُحمّرتان تفحصتا المكان بنظرة مُتوحّشة بحثًا عن سكران بسيط يتعالى عليه بقوة وهمية.

«المعذرة نعيم باشا، شطبنا خلاص. فقد تجاوزنا الوقت المسموح به من الدولة، أمّ راضي تُهَيّأ الباجة لِزبائننا، لو كنت عاوز تاكل باجة» قال وليد بصوت مُتردّد، يعرف جيدًا طبيعة الوحش الذي يُخاطبه.

انتفخت أوداج نعيم كثعبان على شفى إعلان هجومه الكاسر: «الدولة؟ ولك أنه الدولة... من أنت لتخبرني متى أغادر؟ أنا نعيم

قائمة! وهذا المكان أدخله بمزاجي!» ودون مقدّمات أخرى، هوى بصفعةٍ على خدّ وليد رمته بعيداً، مُستمتعاً بصوتها المدوي. في تلك اللحظة، نهض كرّيم شيشه مترنحاً وهو يُطلق صرخته المعتادة المُبتذلة: «كُس اختك... يا وطن!» ماراً أمام نعيم دون أن يُدرك الخطر المُحْدق به.

ابتسم نعيم ابتسامة شيطانية، ومدّ ساقه الغليظة كفخٍّ مُحْكَم. هوى جسد كرّيم متعثراً كدمية مكسورة، وانهمرت عليه الركلات الوحشية من حذاء نعيم الثقيل. استدار نعيم فجأة نحو حمدان بعينين تتقدان كجمرتين: «إنتَ المعيديّ، مقهور على كرّيم؟ أريد أشوف حميتك بله!؟»

لم يكد يُكمل جملته والزجاجة من يد حمدان تهوي على رأسه. انتفض حمدان بحركة لم يعرفها جسده منذ زمن. أطاح بنعيم أرضاً، فانضمّ آخرون للمعركة كنار غزت حقلاً من الحنطة. تحوّل البار إلى ميدان قتال روماني. استعاد نعيم توازنه وتقدّم بزجاجة مكسورة، والدم يتناثر من رأسه.

«شرطة!» صرخ شخص مجهول قبل أن يتلاشى. انطفأت الأنوار. في الظلام، تدافع الجميع نحو المخرج. اصطدم حمدان بنعيم وسط العتمة. توقّفا للحظة، والتقت عيناهاما بوعد صامت: «ما بدأ سيستمر!»

خفتت أصوات البار خلف ضجيج سيارات الشرطة، متداخلة مع صوت المؤذن: «أشهد أن عليًا أمير المؤمنين، وأولاده المعصومين بالحق حجج الله».

في تلك اللحظة المعلقة بين الحقيقة والخيال، شعر حمدان بقلبه يرتطم بجدران صدره. كانت هويته المزورة تثقل عليه. وجد نفسه يرفع جسد كُرَيْم على ظهره دون تفكير، ويخلق به في ظلام البار على غير هدى.

اقتحمت البارَ دورية للشرطة كانت ترابط في شارع دجلة بحثًا عمّن أحدث تلك الفوضى فاستقبلهم أبو جورية بضيافة مميزة ووعده بثلاثة مواعين باجة من يد أمّ راضي تكون بين أيديهم بعد دقائق، إلا أن أحدهم أصرّ على تفتيش شقّة العجوز.

وفي برهة فاصلة بين الفناء والبقاء، تجلّى الخلاص كومضة من عالم آخر في وجه حمدان وشيشه؛ فالوجود بأكمله محكوم بتناقض الظلمة والنور، وكما يسري الألم في العروق، كذلك تسري بشائر النجاة في ذرات الكون المتصارعة. هي ليست صدفة، بل نظام كوني خفيّ يجعل من الضوء رسالة أبدية تخترق حجب اليأس. هنا، لمعت يد وليد. كان الأمر كقوة غامضة جمعت هذه القلوب الثلاثة في نقطة تقاطع المصائر. سحب وليد يد حمدان بقوة لا تتناسب مع جسده النحيل، متعثراً وسط الأجساد المتصادمة التي اندفعت بين قطع الظلام كشظايا لا تستدل طريقاً بحثاً عن خيط نجاة.

قادهما وليد داخل شقة أم راضي. كانت تقف هناك كحارسة عتبة، عيناها المتعبتان تحملان رحمة ألفت المآسي. فتحت لهم الباب الخلفي بصمت، تشيعهم بنظراتها التي كانت تتحدث بلغة الحفظ "سور سليمان، سور سليمان" ثم خرجوا من عندها إلى ظلمة الشارع الخلفي الذي ابتلعهم، متجهين نحو بيت كريم، تاركين البار وراءهم حيث تختنق الأحلام وتولد الهزائم ويأكل الشرطة فيها باجة أم راضي مجاناً وبرسم الخدمة".

رغم سُكره، كان كريم يهذي بتعليمات واضحة وهو على ظهر حمدان. قال بصوت مخنوق برائحة العرق: «اعبر الجسر، انعطف يميناً عند شارع الملعب، قف عند المحطّ، الدربونة التي خلف دكان سامي، بيت الممثلة "سعدية الزيدّي"، المسلك المجاور... توقّف هنا. لقد وصلنا».

انزلقا معاً في ظلمة "الدربونة" المؤدية إلى بيت كريم شيشه، فهاجمته ذكريات ما حدث في البار قبل ساعات قليلة. تذكّر كيف انهالت عليه أيدي السكارى، وكيف تحوّلت تلك الليلة إلى معركة عبثية تركت على جسديهما علامات تشبه في تعرجاتها خريطة الماجدية بدرايينها الضيقة. والآن، وهما يتعثران في هذه الأزقة المظلمة، أدرك فجأة أن بحثه المستمر عن العزلة لم يكن فقط هروباً من الموت في الجبهات أو خوفاً على عنيده وريحان، بل كان أيضاً - وبشكل أعمق - خوفاً من طعنات البشر وشماتهم التي تجرح الروح أكثر من أي سلاح.

أخيراً حطّت رحال ليلتهم في بيت كُريّم. فتحت جميلة الباب وهي تلهث. طلّت بوجه شاحب يعكس قلقاً اعتاد هذه الزيارات. كانت حياتها دائرة انتظار لأشياء ضاعت.

«كالعادة! شكراً لك يا...» قالت وهي تنظر نحو حمدان.

«حمدان». همس كُريّم متكئاً على صديقه.

هزّ حمدان رأسه بصمت. داخله اضطراب وهو يدخل عالمًا غريبًا.

قاد كُريّم ضيفه عبر ممرّ ضيقٍ إلى غرفة صغيرة مربّعة، بنافذة واحدة مغطّاة بستارة رماديّة. خزانة في الركن، وسرير على الجانب الآخر. في الوسط، طاولة عليها مصباح زيتيّ يلقي ضوءًا خافتًا.

«هنا نكون بمأمن». همس كريم مُغلّقًا الباب. «جدران هذه الغرفة سميكّة، والنافذة تطلّ على فناء مهجور».

جلست جميلة على السرير، يداها ترتعشان، تكتّم سعالها بقطعة قماش. تحرك حمدان ناحية النافذة قبل أن يجلس على كرسيّ خشبيّ يئنّ كأنين الموتى ساعة حضور الملكين منكر ونكير.

«لماذا كل هذا التخفي؟» سأل حمدان بصوتٍ وجِل يتوقع الخراب.

«من أجلك، يا حمدان، لي خبرة بمعرفة سبل الهاربين». قال كُريّم وهو يسحب زجاجة بيرة من الخزانة ملوِّحًا بها. «أحتفظ بها

للمهمّات الصعبة، ووجودك بيننا أصعب مهمّة». غرق بعدها
المكان في صمت مهيب.

«تخيّلِي يا جميلة... حمدان هارب من الحرب!»
أطلق شيشه الجملة كمن يُلقي حجرًا في بئر جافة، منتظرًا صدى
السخرية من فم أخته.

اندلعت ضحكة هستيرية بينهما، ضحكة لا تشبه الفرح، بل تشبه
تشنّج الأعصاب المقطوعة. كانت ضحكة من يقفون على حافة
الهاوية ويتظاهرون بأنهم يرقصون. راقبهما حمدان وهما يغرقان في
جنونهما، بينما تتسلل عيناه إلى الجدران المتشققة، والأثاث
المكسور، وبقايا حياة كانت هنا ذات يوم.

توقفت جميلة فجأة. حدّقت في عينيه مباشرة، كأنها تحفر نفقًا
نحو روحه:

«هروبك أكبر من كل حرب، أليس كذلك؟ تهرب من واحدة
فتسقط في أخرى... أي لعنة تلك التي تطاردك؟»
ثم مدّت يدها وقرصت أذنه بحنان ساخر، وأردفت:
«وأنت تتهمنا نحن بالجنون!»

فجأة، ودون سابق إنذار، تحولت الغرفة إلى مسرح اعترافات
وسط دهشة حمدان. بدأ كُريّم يتحدث عن عديد الأرواح التي
سقطت تحت رصاصاته في حروب لا ناقة له فيها ولا جمل، ظلّت
تطارده في الأحلام لسنوات. ثم انتفض نحو أخته وقبض على
شعرها بقسوة، متهمًا إيّاها بتفريطها بأمانة غامضة.

تكوّر ألم جميلة في داخلها. ابتلعتة! غارقة في صمتها، وثمة سر
يجثم على صدرها. كلما همّت بهتك ستاره للخلاص، ازداد
انغراساً وانغمست بسعال حاد.

وقف حمدان بينهما غريباً أشبه بنقطة منتصف. كان يراقبهما
جاهلاً بتفاصيلهما وهما يتحدثان بلغة طقسية. موزعاً بينهما نظراته،
يحاول قراءة تضاريس وجهيهما كي يعثر على ما يشفي غليل
أسئلته.

تبادل الاتهامات بينهما لم يكن شجاراً، كان أشبه بطقس دوريّ
تمارسه ذاكرتان متورطتان. خيوط غير مرئية تنسج شبكة معقدة،
تربط الأخوين بماضٍ غامض، والأمانة المفقودة يجتمع حولها
جيش من علامات الاستفهام.

توغّل الليل في العتمة. وعلى عكس العادة، صارت عقارب
الساعة تتحرّك في اتجاهين، الدقائق للأمام والساعات للخلف،
خاصية تظهر في بيت كُريّم قرب منتصف الليل.

تسمّر حمدان أمام الساعة المعلقة، يراقب هذه الظاهرة بدهشة
فاقمت وجعه. قالت جميلة وكل كلمة ترافقها نوبة سعال: «الزمن
يتصرّف بغرابة في الليالي التي تسبق الأحداث المهمة». كان
سعالها ينتج فراشات بيضاء تطير للحظات. «الحرية لا تأتي مع
أوراق سرور يا حمدان. الحرية تولد من موت العبودية».

«وسيلة أخرى للهروب المبطّن بهروب آخر». بكى حمدان
حيث لمعت صورة عنيده أمامه. «لذلك ترى شيشه بهذه الحال.

فذن به الكبير لا يقوى على تحمّله أعتى العقول. هو هارب مثلك بامتياز».

لم يكن كلامها غامضاً. فهو يعلم أن الإجازات المزوّرة التي يوفرها له ابن عمّه سرور تمنحه أياً ما من حرية تظهر وتختفي، أياً ما إضافية لا يراها سواه وعائلته، كانت تتكاثر كلّما استخدم وثائقاً أكثر. وكلّما اقترب من حلمه وجد نفسه قد ابتعد بمسافات مخيفة. وعلى زجاج النافذة، انعكس ظلّه متحرّكاً باستقلالية، يرسم مسارات خروجه، يرسم طريقاً متعرّجاً، ثمّ أشار نحو اللاشيء حيثُ بيت سرور.

«ستبقى هنا ليلة أخرى». قالت جميلة حاسمة تداعيات قلب حمدان، كانت حقيقة ظهرت أمامها كخيوط ذهبيّة في نسيج الغرفة. تطلّع حمدان في وجه جميلة مستسلماً. رأى فيه انعكاساً لنفسه وهو يغادر عند الفجر، ثمّ انعكاساً آخر يُقبض عليه في وضوح النهار.

زحفت عقارب الساعة بتسارع غريب، ثمّ توقّفت قبل منتصف الليل بساعة. انفصلت، وعادت لحركتها العادية وهي تقترب من الظهيرة.

«أستاذ كريم، هل بقي من كريم في كرّيم شيشه شيء؟» سأل حمدان متردّداً. رفع كرّيم عينيه بنظرة غائرة: «آه، أستاذ كريم الذي تعرفه مات يوم اختفت زوجته وأطفاله ضحيّة للقصف».

«وماذا بعد؟ وما سرّ هذا الارتباك الذي أراه في عيونكم»
تساءل حمدان.

ملتفة بعباءة باهتة، أمسكت جميلة بيد أخيها كأنها تستمد منها
قوة وبدأ سعالها الجاف يتصاعد أشبه بمرور سكين على معدن
مصقول ثم قالت بصوت متقطع: «يأتون في الليل، أشباح بعيون
زرقاء. يتسلّلون كالدخان، ومن يلمسونه...!»

«يسرقون ما في الرأس. الذكريات، الأفكار، ثم يتركون الجسد
فارغاً». تداخل كُرَيْم، وعيناه تحدقان في الفراغ.

شعر حمدان بالبرد يتسلّل إلى أطرافه، وسأل بصوتٍ لم يعد
ملكه تمامًا: «منذ متى؟» لم يكن يجامل جنونهما، بل شعر بأن
منطقه هو الذي يتآكل على حافة عالمهما.

«منذ أن وجدوا مدير مركز الشباب محمد مريهج يحدّق في
العدم وقد نسي اسمه. ثم حجي زباله صاحب علوة الطحين، ظلّ
يومين مقيداً في مكتبه وقد بصق كل أسنانه».

التقطت يد كُرَيْم الكأس، فبدت حركة اليد والزجاج ككيان
واحد يرتجف. «كل ليلة، يصرخ بيت جديد. وفي الفجر، يولد
"مسودن" جديد».

«صدام؟» تساءل حمدان، كمن يلقي طعمًا في الظلام.
جاء صوتهما معًا، منسجمًا كأغنية جنائزية: «وهل للخراب ربّ
سواه».

سأل حمدان، متماهياً مع روايتهما، يتطلع في وجهيهما بحثاً عن حقيقة يستند إليها لتفسير ما يسمعه: «لماذا لم تهربا خارج سور العبودية هذا؟» هنا، انفجر كُرَيْم ضاحكاً بقهقهة عالية، شكلت دوائر مزعجة في رأس حمدان، فراحت تدور به حول نقطة شك في سلامة عقل هذين الكائنين، ثم تحول هذا الضحك إلى نوبة سعال عنيفة مصدرها جميلة. قالت وهي تلهث: «انهرب؟ كل من حاول عاد جسداً دون رأس. الطرقات ملغمة بأتباعهم».

ساد صمتٌ حيّ، ملموس. بدأت الظلال في أركان الغرفة تطول، وتقصّر بطريقة غير طبيعية، كأنها تنفس. شعر حمدان بالبرودة تخترق ضلوعه.

«إنها ساعتهم!» صرخ كُرَيْم بصوتٍ حادّ. «هيا! هيا! تحت السرير!»

في تلك اللحظة، انقطعت صلة حمدان بالواقع تماماً. دون تفكير أو قرار واعٍ منه، وجد جسده ينزلق تحت السرير فعلاً، وقلبه يضرب جدار صدره كعصفور محبوس. من زاويته الضيقة، لمح كريماً وهو يتلصص من تحت لحافه السميك، وعيناه تتوهجان في الظلام كجمرتين متقدتين. ومن الغرفة المجاورة، تصاعد سعال جميلة المتقطع، خافتاً ومؤلماً، كأنين حيوان جريح يصارع النزاع الأخير.

كانت يدا كُرَيْم تحتضنان صورة باهتة أخرجها من درج محطم في بوفية متأكلة، وراح يمسح بسبابته على وجوه رجالٍ فيها. هَمَسَ،

والدموع ترسم طريقها في غبار وجهه: «أكثرهم ماتوا هناك... لم يبق من أحبتي إلا حكايات، وبعض تلك الحكايات أنا من اخترعها كي لا أموت معهم». ثم أفرغ في جوفه ما تبقى من زجاجة العرق دفعة واحدة. حاول حمدان منعه: «أستاذ كريم... ارحم نفسك». لم يكن يقصد الرحمة من الشرب فقط. كان يقصد الرحمة من كل شيء: الشرب، الجنون، الكذب، والأوهام. فسعال جميلة كان ذاكرة مصنوعة من دمٍ وبلغم. كان اتهاماً سائلاً بدأ قبل عشر سنوات، في الليلة التي دفعها فيها من فوق السطح، ليلة تبادلهما الاتهامات كحرب بالسكاكين بتصويب عشوائي. نجت بجسدٍ مُحطَّم، وصدرٍ لم يلتئم أبداً. ومنذ ذلك اليوم، وهي تخفي الدم في منديلها، وتكتم أنينها، وتواصل رعايته، كأنها تعاقبه وتكفر عن حبها له في آنٍ معاً.

نظر كُرَيْم إلى حمدان بعينين زائغتين: «قتلتُ أربعين رجلاً بهاتين اليدين». ثم تحدّث عن طفلة ضاعت في السوق، وعن جنديّ شابّ واجهه في الخليل عام ٦٧، وعن أمّ كردية صرخت وهو يغتصب ابنتها. اعترافات بدت كمزيج من الحقيقة والخيال، وجلد الذات.

«أعرف أنني وحش. الفقر والحرب هما من صنعا ذلك الوحش. كل ليلة أموت ألف مرّة، أرى وجوههم في أحلامي. والخمر وحده من يخرس الأصوات في رأسي».

فجأة، أجهشت جميلة بالبكاء، وسعالها يشهد على مأساتها. ومن جانبه نطّ كُرَيْمُ ثائراً: «اليهوديّ موشيه داوود احتضننا بعد موت أمّنا. كل شيء فيه كان جميلاً إلّا هروبه المفاجئ إلى تل أبيب للقاء الأسلاف هو من حطّم كل شيء، ومما زاد طين بلة نذالته ساعة أن تخلّى عن ابنته المريضة ساره لدى جميلة. فقرّرت جميلة حمايتها».

ثمّ عمد إلى شعر جميلة الموشى بثلج أبيض يجزّها سحلاً: «بنت الكلب... لم تحفظ الأمانة، اختفت الطفلة فجأة، كأنّ "ملايحة ابليس" قد خطفتها. ما نحن فيه الآن من مأساة أنتِ سبيه يا جميلة!»

حاولت الدفاع، فشهر سعالها سيفه لمنعها من جديد. ومن جهته سقط كُرَيْمُ في نوبة صرع. فاستفاق حمدان فاغراً فمه «أيّ جنون هذا الذي أنتما عليه؟ وأي حظ عاثر ذاك الذي قادني إليكما؟» وأمام هول الموقف حاول الاقتراب من كُرَيْمٍ لإسعافه أوقفته جميلة قائلة: «دعه اعتدت ذلك، أمّا أنت فابن عمّك بانتظارك» حثته جميلة على المغادرة قبل فوات الأوان. شيعته حتّى نهاية الشارع، وهي تنظر إليه بعينين مليئتين بالقلق: «اذهب، لا مكان للأمان هنا».

شعر بواقعية كلماتها وهو يخطو نحو بيت سرور، حاملاً معه سعالها، وقصة ساره المخفية، وإدمان كُرَيْمٍ، وسرّ نسرين، وصدر

عنيدة المنتفض الذي ينتظر ضغطة يديه - جميعهم ضحايا لقدر
فُرضَ عليهم قسراً.

انطلقت صفارات الإنذار عبر المدينة، فانقلب ليلها الحالِك إلى
نهار ساطع. تصاعدت سهام المقاومة الأرضية نحو السماء
لمواجهة الطائرات الغازية، واشتعل الأفق بألوان قاتمة، ما بين نيران
الحاضر ودخان المستقبل المجهول.

أسرع حمدان نحو شقة سرور. طرق الباب وهو يلهث، فانفتح
عن وجه متجعد يحمل تعب السنين. «تفضّل»، قال سرور بصوت
خافت، وسحب حمدان إلى داخل الشقة. استقبلته رائحة التبغ
المختلطة بعرق الخائفين الذين اعتصموا بهذا المكان، فامتلات
جدرانه بحكايات الهاربين من جحيم الخارج.

أجلسه على كرسي فضح صريره اضطراب روحه قبل جسده.
وفيما كانا يرتشفان الشاي بعد وجبة طعام سريعة أعدّها سرور بيد
طباخ ماهر تناسب السكارى في مثل هذا الوقت وهكذا ظروف...
حينها انطلقت صرخة مدوية لامرأة قطعت سكون المكان.

«إنّها أمّ حسين، العرافة التي تجاوزت قرناً من العمر»، نطق
سرور بصوت مُحمل بالرهبة. «أصابع قدميها الثلاثة عشر تقرأ في
الأرض رعشات القذائف قبل سقوطها بساعات. تعرف مصائر
الغائبين مثلما تعرف طعم الملح في ماء البصرة، هي من كانت
تهزج بنبوءة غيرت مسار التاريخ "صعد لحم نزل فحم"».

اعتقلها الرفاق مرارًا، شكًا في أن صرختها إشارة مُشفرة
للطائرات الإيرانية. فمع كل صرخة منها، تُمطر السماء حممًا على
بيوت العمارة وهي تفتح بابًا سرّيًا يقود لأبواب الجحيم.
ألح حمدان باستدعائها، فالقلق كان يأكل أطرافه مثل نار بطيئة
لما تركه في بيته من ألغام يخاف انفجارها. نادى سرور عليها،
فظهرت فجأة من العدم شبيهة بظلّ يتمايل.
«أريد خيرة لهل بيتي؟»، قال حمدان مُنكسًا رأسه للأرض.

صمتت وكأنّها تقرأ في ظلال وجوده حروف المستقبل، ثمّ
أطلقت صرخة أخرى محدّرة من اضطراب القبور، «هل مات أحد
منهم؟» لم ترد! فارتفع صهيل الطائرات المعادية ترمي حممها على
الأهالي المساكين. هنا اختفت أمّ حسين تاركة خلفها قشعريرة
تسكن عظامه.

واصل سرور بثّ تفاصيل حياة جيرانه: في الشقّة المجاورة،
عاشت أمّ علي وحيدة تسعمائة وخمسة وعشرين ليلة بعد
"استشهاد!" زوجها أبي علي. جاؤوها بجثمانه متفحّمًا لا شيء
تستدل به عليه سوى القرص المعدني الدائر حول رقبتة، هو من
نطق باسمه. فاستسلمت لليقين المُرّ، ودفنت الجثة وقلبها معًا رغم
شكوكها.

إلا أن الحقيقة لم تكن كذلك، فأبو علي لم يمت. ففي هجوم
لاحتلال المحمرة عندما اخترقت قذيفة عراقية الحدّ الفاصل بين
الجهتين مُتفجرة فوق ملجأ غير محصن للجندي الإيراني داريوش

نادري، الذي التهمت النيران جسده. وأثناء تقدم القوات العراقية
عشر عليه أبو علي وهو يتلوّى من الألم ويتوسّل إليه بعربية متكسرة
كي ينقذه. سخر أبو علي من طريقة استنجاده، وفي لحظة جبن أو
حكمة، صوّب مسدّسه نحو رأس داريوش وأطلق رصاصة اخترقت
جبهته وهو يردد ساخراً "احنا البير احنا... بالك تهوى وتوگع بي"،
ثم خلع قرصه المعدني التعريفي مطوّقاً به عنق داريوش، قبل أن
يسلّم نفسه أسيراً للعدو، تاركاً خلفه خيانة عظيمة لرفاقه وجريمة
تحمل بصمات جثة محترقة دون معالم.

وفي الليلة الحادية والتسعين بعد الدفن، ظهر داريوش نادري في
منام أمّ علي. لم يتكلّم حينها، اكتفى بالجلوس قرب نافذتها ليلة
بعد ليلة، حتّى تعلّم العربيّة من أصوات الأذان وشجار صغار الحي
المتواصل. وبعد ألف ومائتي ليلة، أخبرها بالحقيقة: أن زوجها
حيّ، وشرح لها تفاصيل ما حدث، وأنه أصبح في معسكرات الأسر
من "التوّابين" الذين تنكّروا لرفاقهم، وراح يجتهد في تعذيب
العراقيّين في معتقلات الأسر بقسوة كمن عثر على قاتل أخيه.

بعد هدوء القصف، اقترح سرور الصعود للملجأ في السطح،
حيثُ كان يخبئ الإجازات المزوّرة التي تمنح حمدانَ فرصة هروب
لحماية عائلته. «كلّ ورقة مزوّرة تأخذ جزءاً من روح صاحبها»،
قال سرور. «هل أنت مستعدّ لدفع الثمن؟ هذه أوراقك. ستمنحك
الحرية التي تبحث عنها».

بدأت الأوراق بين يديه أشبه بجناحي طائرٍ عملاق، يتأرجح بين الحرية والسقوط، رموز خلاصه من متهمة الموت وسجن الضمير الذي حفر أخاديه في روحه. انتزعها بحركة متلهّفة، ثم غادر الشقّة وقد انشطرت روحه: نصف يدينه بالعار، ونصف يدفعه نحو النجاة. خرج إلى الشارع فابتلعه الظلام. سار متخفّياً نحو بيته، نحو عنيده، عازماً على مواجهة مصيره. الحياة سلسلة خيارات صعبة، والهروب مسافة قصيرة بين الخوف والأمل. عند الفجر، بدأ موعد عودته لعائلته، فتلاشت وجوه من صادفهم في العمارة مع أول خيوط الضوء.

(٨)

لم يأتِ الفجر، بل تسلَّل، خيطاً فضياً باهتاً انساب من شقوق
الجدار الطيني، لا لئير، بل ليخيط ملامح الكارثة على أرضية
البيت. وهناك، في مركز ذلك النسيج، كانت نسرين، واقفة مثل
نصبٍ تذكاريٍّ، وحولها، ثلاثة شواهد من لحم ودم: عنيدة، ريحان،
صقر.

«مشكلتي: عفواً لا مشكلة لديّ سوى أن الموت يعرفني جيّداً،
يغمرنني كالطوفان ثم أطفو فوقه، لا أبتلّ، لا أغرق. الصمت عاهر
يا عنيدة، أرجوك تكلمي!» تفجّرت الكلمات من فمها براكيناً وهي
تمسح شعر الجثة المتساقط على وجهها الباهت، متذكّرة تشاركهما
الصراخ الصامت ساعة سفر حمدان. وبهمة مفاجئة بعد مسح
دموعها بظاهر كُمِّها بدأت في تهئية القبور، قبر لعنيدة وريحان
تحت شجرة السدر، وقبر لصقر في الجهة البعيدة المقابلة. «فوق
الأرض وتحتها، لن أسمح لك بالتقرّب منهما».

وقبل أن تُودع الطفل حفرته، سمعت بكاءه في أعماق روحها.
ضمّته، قبّلت جبينه المضرّج بالدم: «هل فعلاً القبلّة ألطف وسيلة
لتقول لأحدهم: كفى بكاء؟»

توقّفت متألمة وجه عنيدة البارد. وضعتها في قبرها برفق، ثم
وضعت ريحان بين ذراعيها، وغطّت رأسه بشعرها، نائثة حولهما
أوراق السدر. وهي تردد «نامي بسلام يا صديقتي». ومع كل حفنة

تراب، تهيلها تسترجع كلمات عنيدة. «كم هو صعب أن يعيش الإنسان وحيداً».

أسرّت في أذنها: «اطمئني يا عنيدة، فلا وحدة ستمرّين بها وولدك في أحضانك، اسأليني».

وفي مكان قصي عن السدرة، اندفعت يداها المرتعشتان تهيلان التراب فوق صقر بسرعة كبيرة، تخشى أن تتسرّب روحه الشريرة من بين ذرات الهواء، فتعود لتطارّد أحلام عنيدة. كان التراب ينهال عليه مثل سنوات العمر، يغطّي وجهه الشاحب، ويخفي ابتسامته الخيشة. قفزت عاليًا وهبطت رابضة بثقل جسدها فوق قبره، ووطئت بقدميها التراب بعدة قفزات ضاربة الأرض بقوة: «هذه وطأتي ستشهد على موتك مرّتين، في الأرض، وفي ذاكرة الناس».

وما إن لامست قدما حمدان تراب قريته، حتى تدفق نحوه فيضان من رائحة الخبز الحارّ وصوت المؤذّن المتموّج في هواء الفجر. كانت موجة دافئة تغرقه في ذكرى عنيدة وتنورها، وتؤكد له مع كل نفس يجرّه بصعوبة، أن الكون كله يشاركه هذا الاختناق.

«الأموات يتجولون بيننا». خاطب حمدان روحه لسماعه خطوات ثقيلة تدقّ على قلبه بإيقاع جنائزي. تذكّر عنيدة طفلةً تمشي على ماء النهر، حيث كان يراها وحده دون غيره في كل ممارسة لها لغسل الأواني عند جرف النهر.

اقترب من عتبة داره بخطوات متثاقلة. تراءى أمامه مشهد حتمي بتخطيط طاغية: عبيدة معلقة في الفضاء، ثيابها الممزقة تنزف نجومًا، وطفلها ريحان يبتسم في سباته الأبدي.

هناك، متكئة على جذع شجرة الصدر قرب القبر، جلست نسرين تنفث دخان سيجارتها الأخيرة. «كانت تنتظر عودتك» قالت بصوتٍ من خسر كل شيء. «كانت تنسج كفنها حين جاء الوحش. قاتلتُ ببسالة، صرختُ باسمك صرخة نجدة، فانتصفتُ السماء لأجلها. فقتلته أنا... بيدي هاتين، وما يؤسف له أنها كانت انتفاضة متأخرة».

سألها بصوتٍ يئن: «ما المسافة الفاصلة بين الحياة والموت؟» أجابت بصوت هادئ: «لا مسافة هناك تفصل بينهما سوى جدار من الصمت. الحياة تمسك بأيدينا، والموت يداعب أطرافها».

ترنح حمدان، ثلاث ليال لم يركن فيها إلى غفوة واحدة. أسندته نسرين برفق: «النوم ترف لا يحلو إلّا للأرواح الغارقة في الأوهام. نحن رهائن يقظة لا تنتهي، نرفض فيها الرحيل حتّى وإن عجزت أجسادنا».

شقّ دشداشته جزعًا، وأطلّ ب صدره خارج البيت صارخًا: «عبيدة، موتك خيانة!»

للدخل سحبته نسرین واضعة كفّها على فمه: «لا تنطق بكلمة. ستتساقط كل هذه النجوم فوق رؤوسنا فتفضحنا». ابتلت يدها بدموعه.

«أين هما؟» سألها باكيًا، فأشارت برأسها ناحية شجرة السدر. جثا عند حافة القبر. كان القبر يتنفس، والتراب ينبض تحت أصابعه. احتضن التراب: «ما يتبقى هو الألم المقدس... هذا الجرح الذي يُشعرنا أنّنا ما زلنا أحياء».

ارتجفت يداها: «الوقت يمرّ يا حمدان والظلام لن يحميني للأبد».

«تسمعينها؟» تساءل بصوت منخفض. «إنّها عنيدة! أسمعها تبكي. أتعرفين ما يبكيها؟ تقول بأننا سنسأهما هنا في هذه الحفرة».

انفجرت نسرین بصوت يمزج الخوف بالغضب: «يا حمدان اسمعني جيّدًا!» أشارت للقبر. «تنام الحقيقة هنا بعمق نصف متر! ومن سيحاول إيقاظها من أهل صقر سيصنع منها أكذوبة تقتلنا جميعًا. سيقولون: عنيدة وطفلها خونة وأنت من قتل ابن الشيخ لأنّه اكتشف سرّ تخابره مع العدو. أنفهم؟ سيجعلون منك قاتلاً ومن حبيبتك عميلة خائنة!»

بعد صمت سألت: «ماذا نفعل؟» أجابها مشوشًا: «أفكاري قطع نمل أصابه الدهول».

«علينا التحرك قبل أن تتحرّى القرية عن فقيدها».

«مَالِكِ مستعجلة؟ هل الموت معلق بأذيالك؟»
«هو مُعَلَّق فعلاً، هيا لنواصل هروبنا، إلّا إذا كنتَ تريدنا أن
نبكي وتتلو ذكرياتنا حتّى الموت ويُكتشف أمرنا».
«انتظري!» صرخ حمدان. «أين ذاك الذي دَنَس أحلامي
وسرق من جفنيّ النوم؟»

ارتجفت نسرين بين يديه. تملّصت ووقفت على مسافة، تراقب
تحوّلاته. أشارت بإصبع مرتعش نحو المكان الذي يرقد فيه صقر.
عند حافة القبر، استحال حمدان إلى كائن آخر. انبثقت صرخاته:
«هذا من حاول انتهاك شرفي، ومن صادر روح زوجتي وفلذة
كبدِي!»

أمام هذا التحوّل الصادم المفاجئ، استبدّت الدهشة والحيرة
بنسرين؛ كيف استحال ذلك الرجل الوديع الطيّب إلى وحش
مجروح ينزف غضباً حارقاً وألماً دفيناً وانكساراً ومرارة؟ وبأصابع
متشنّجة، بدأ ينبش التراب، ينبش معه كل مواجعه. وحين انكشف
له وجه صقر، توقّف الزمن بين يديه. اتّسعت عيناه بشرر مخيف:
«كانت عنيدة تُخفي خوفها خلف ابتسامتها. وجودك هنا يا صقر
يُفسّر قلقها الدائم».

انتزع حربته من صدر الجثة حيث تركتها نسرين في آخر
صراعها معه، ثمّ ببطء، أخذ يسجّل على الجسد الصامت فصول
مأساته، طعنة تلو أخرى حتّى تحوّل صقر إلى غربال طعنات.

استحال حمدان أمام عينيّ نسرین إلى كائن يتراقص على حافة الجنون. جرّد الجثة من أسمالها، ونفّذ انتقامًا مزدوجًا: «أنت من اغتال زوجتي وسرق مني ولدي! سأمحو كذبة نبل الشيوخ وشرفهم المزعوم!» وفي كل حركة مجنونة كان يكتب قصّة مآل غدر وخيانة.

لم تتدخل نسرین. وعيت أن ما يحدث أمامها هو موت لحمدان مضى، وولادة لآخر قادم بسرعة قطار. ومن جانبه أنهى حمدان طقسه، ثم غرس حربته بين عينيّ صقر هذه المرّة، شاهدًا أبدئيًا يدين زيف الشرف.

«والآن، هيا لنذهب». قال حمدان كلمته بوعي مفاجئ حلّ محلّ جنونه الذي كان عليه قبل قليل. أوقفته نسرین: «الموتى يرتجون كلمة تواسي عزلتهم. لنقرأ الفاتحة». لهجا بقراءة سورة الفاتحة قرب السدرة. وبعد توديع عنيّدة وابنها قالت نسرین: «إذن! سنفتح خريطة الوطن ونخوض في مدنها المبعثرة ونرى أيّ الجهات أكثر أمنًا للهروب؟»

أوقفها كمن نسي شيئًا مهمًا: «جنسيّة عنيّدة معك؟»
«نعم، وملابسها أيضًا».

(٩)

تَنَفَّست "العمارة" أنفاسها الثقيلة عند قدوم الهاربين من جحيم السلطة والحياة، نسرین وحمدان، لكتابة تاريخ جديد من الهروب والبقاء على قيد الوطن. شمس خجولة تتجول على ضفاف دجلة المنحدر جنوباً مرحبةً بهما. حدّقت نسرین في انعكاس وجهها على زجاج السيارة المتسخ، فرأت ظلال كل الوجوه التي تركتها خلفها. ضوء متسرّب يرسم على وجهها خرائط هروب.

بصمتٍ، قبض حمدان على حقيبتيهما المشتركة، متشبّثاً بخيط النجاة الأخير. وفي عينيه تلاقت نظرة الطفل الضائع مع عزيمة المحارب الأسطوري، صراع يعكس روحاً ممزقة بين هشاشة الخوف وصلابة الإصرار.

كانت ترتجف أصابعه خلف ابتسامة باهتة كلما التقت عيناهما. تكافح نسرین لتثبيت نظرتها المثقلة بالدموع في سيارة اللاند روفرز المنحدرة أسفل "الجسر الجمهوري".

في قلب العمارة، تحت جسر عتيق نحتته السنوات، كانت الذكريات تنبض في كل زاوية. هناك، حيث عاش الشاعر أحمد مطر، تحوّل البيت الذي احتضن القصائد إلى مديرية للتجنيد. تلك المديرية التي أشعلت صفيراً مرعباً في رأسها كدويّ قطار وهي تراقب المشهد، متذكّرة وجوه شبّان كانوا يتنفسون عفوية الحياة قبل أن يختطفهم واقع بغیض ويدفع بهم إلى الجبهات. دموع ساخنة

أُريقت منهم عند إبلاغهم بالمصير المحتوم، كأنّ طفولتهم انتهت بتوقيع على دفتر خدمتهم العسكرية: «يُساق إلى الجبهة فوراً». أمسكت يد حمدان وهي تترجّل من السيّارة، فتناغمت نبضات قلبيهما المتسارعة. كانا يحملان حقيبة واحدة، نصفها ألم ونصفها أمل.

وهما يحدّثان أقدامهما نحو بيت كُريّم تسلّل الخوف بينهما عرقاً بارداً وسط نظرات البشر، بينما بريق خافت في عينيّ نسرين كان يقول: «سننجو رغم كل هذا الصخب».

توقفاً أمام البيت والعرق يتصبّب من جبينيهما رغم نسمات الصباح. رفعت نسرين رأسها نحو السماء، تبحث عن إشارة أمل. طائر وحيد كان يحلق عاليًا. ابتسمت بمرارة. ربما نذير خير وسط هذا الجحيم. قرع حمدان الباب وقد راح قلبه يخفق بعنف. صمت مطبق. خمس دقائق مضت، خمسة عصور طويلة. قرع مرّة أخرى، أقوى هذه المرة. لا جواب سوى صدى الطرقات يتجول في الزقاق الخالي.

ظهرت امرأة من البيت المجاور فجأة وهي تلتف بعباءة سوداء. نادى طفلها بصوت حنون - الطفل الذي كان يلعب مع صغير آخر لعبة "البلبل" في شارعهم الضيّق رغم هذا الوقت المبكر من الصباح: «جمال».

الاسم أصاب نسرين - رصاصة في القلب فارتعشت. ذكريات الماضي تعود أشباحًا في أول النهار. الحرب. الخيانة. وجه جمال الحبيب. كل شيء انهار في لحظة واحدة.

«اطرقوا مرة ثانية» قالت المرأة وقد لاحظت اليأس في عينيها. «كريم شيشه دخل قبل قليل». أخذ حمدان نفسًا عميقًا ثم قرع بقوة تكسر الصمت. تحركت الأقفال ببطء مخيف حتى انفتح الباب، مثل فم وحش مفترس فظهرت جميلة الغحاحه. وجه نحتته المعاناة ونظرات ثاقبة تخترق الأرواح. دخلا بصمت إذ كان كريم يشخر في نومه، فيما جميلة تسعل سعالًا متقطعًا يمزق الصمت. جلسا صامتين، كل منهما يخفي عاصفة في قلبه.

تسللت أشعة الصباح عبر النافذة المكسورة حين استيقظ كريم مدعورًا ونظر إلى نسرين بعيون ضائعة تبحث عن الحقيقة وسط ضباب الخمرة. «(من هذه؟)» سأل بصوت مبحوح. تردد حمدان للحظة قبل أن يجيب: «(زوجتي عنيدة)». راحت جميلة تراقب نسرين بعين صقر يحوم فوق فريسته. شكٌ ينمو في قلبها كنبته شيطانية إذ تشم رائحة الكذب في الهواء. «(فارق العمر بينكما كبير؟)» تساءلت جميلة وهي تحتسي الشاي ببطء. ضحك حمدان ضحكة مجوفة: «(الحب، إنه الحب يا جميلة)» ففضح كذبه صوته الذي كان يرتعش مثل "خرخاشة" بيد طفل يلهو.

بدأت جميلة تحدد في نسرين كمن يحل لغزًا معقدًا في امتحان عسير: «(أعرفك يا بنية. أشعر أنك عشت في روعي طويلًا)».

ارتعدت نسرین: «سمعتُ عنكِ كثيرًا، فأنتِ وعمو كريم... نار على علم» ضحك الجميع بغفوية إلا جميلة بقيت ساهمة. أضافت نسرین قائلة: «لا أعتقد أننا التقينا من قبل».

«من أين أتيتِ يا...؟» سألت جميلة والشكّ يلمع في عينيها. «أراكِ مختلفة عما وصفكِ به حمدان في زيارته السابقة». الضغط يزداد والجدران تضيق عليها، أما حمدان فكان يرتعش أشبه بعصفور في قفص حتى انهيار أخيرًا تحت وطأة النظرات المتسائلة: «عنيدة ماتت. قتلها صقر ابن الشيخ هلال».

سقطت الكلمات كقنابل في الغرفة فساد صمت مميت في حين راحت نسرین تبكي دموعًا مرّة. «إذن من هذه؟» سأل كريم وعيناه تستعیدان وضوحهما. تنهد حمدان بعمق: «نسرین... نسرین بنت ميثم الوالي». اهتز كريم، إعصار قاتل ضربه فأخذته نوبة صرع، أما جميلة فواصلت تطلعها في تفاصيل نسرین بمزيج من الفرح والألم.

«ما من أحد يستطيع التخفي في هذه المدينة» قال كريم وهو يتألم بعد انتهاء نوبة صرعه، صوته يحمل مرارة السنين. «قصص المدينة تنتشر أسرع من النار في الهشيم» أضافت جميلة وهي تمسح دموعها.

لم يعد حمدان قادرًا على التحمل إذ الخوف يأكل قلبه فأخبر نسرین بصوت خافت أنه سيبحث مع ابن عمه سرور عن مكان آخر، بعيدًا عن عيون المدينة الساهرة.

عند منتصف الليل وصل حمدان برفقة نسرین إلى شقة سرور. أصغى الرجل إليه باهتمام، ورغم دهشته وحزنه لمّا علم بما حلّ بعائلته، وعد بإيجاد مأوى آمن في منطقة "السريّة" بعيدًا عن أعين السلطة. استأجر لهما منزلًا صغيرًا فساعد نسرین على بيع السمك في الوقت الذي وجد لحمدان عملاً في فرن قريب.

يومياً أصبحت نسرین تبيع السمك في السوق. أصابعها تتقطع من تنظيف الأسماك، ورائحة العفن تلتصق بملابسها. تشاجرت مع بائعات أخريات حاولن الانتقام منها غيرة وحسدًا لنجاحها في البيع. من ناحيته، واجه حمدان مأساة يومية مع صاحب الفرن العبوس الذي اتهمه بالسرقة والتقصير مرارًا. تقبل الإهانة صامتًا، مرارة يجب أن يتلعها لينجو.

مرّت الأيام ثقيلة بطيئة فيما حاول الاثنان رسم ملامح عائلة طبيعية رغم الجرح النازف في أعماق روحيهما. كانت نسرین تستيقظ مع بزوغ الشمس، تحضر الطعام بيدين مرتعشتين، تراقب حركة الظلال على الجدران، أشباح الماضي تتجسد أمامها. أمّا حمدان فقد أَلَف الصمت المتقطع كلما اقترب منه أحد بسؤال يحمل رائحة الشكّ.

في قلب هذا الجحيم المتأجّج، كان نفوذ مزاحم ينمو كظّل أسود يتمدّد مع انكسار كل فجر جديد. لقد خرج سالمًا من رقصة الموت التي أدّتها نسرین برصاصاتها الباردة في بيت الما جدية، فقد نسج القدر حوله درعًا من حديد. تلك الرصاصات التي أخطأت

هدفها لم تفشل فحسب في إسكات صوته النشاز، إنّما منحته بدلاً من ذلك هالة من الخلود في عيون السلطة: «بعثي شرس تحدّي العملاء وانتصر».

صار اسمه يُهمس في القاعات المرميّة للسلطة كما تُهمس الصلوات في المعابد المقدّسة. تقاريره السوداء، تلك المخطوطات الملعونة، تنساب عبر شرايين المدينة كسمّ زعاف، تخطف الأرواح من أحضان أحبائها إلى زنازين لا تعرف النور، أو تسوقها إلى حفر في الأرض تبتلع أحلام الشباب كما تبتلع الرمال المتحرّكة أقدام التائهين.

وفي تلك المساءات الكثيبة، حين تجثم الوحشة على المدينة كغراب أسود، كانت نسرين تناجي حمدان في صمت، وكلماتها تتساقط قطرات مطر بارد على روحها المجروحة: «سأقتله يومًا... سأقلب معادلة الخوف هذه رأسًا على عقب، وسأجعل الجلّاد يتذوّق طعم خوف ضحاياهم». يردّ عليها بتحذير صارم: «نسرين، دعك من الانتقام. مزاحم محصّن بزمرة شياطين. نهايتك ستكون محقّقة». تُنكّس رأسها وتهمس بالوجع: «وجمال، وأمّي وأبي؟ الأخذ بثأرهم يجلد روعي؟» يمسك يدها مُطمئنًا: «لن أطلب منك النسيان. أريدك فقط أن تشبّثي بما يبقيك على قيد الحياة». تردّ عليه: «سأبقى على قيد الانتقام يا حمدان!»

مرّت السنوات تلاحق بعضها. أربع سنوات، أو خمس، لم تعد نسرين تعدّها. في البيت الصغير بمنطقة السرية، تعلمت هي

وحمّدان معنى الأُخوة الحقيقية - تلك التي تولد عندما لا يبقى لك سوى الآخر الذي يشاركك التهام الأوكسجين المختمر.

كان البيت يحميّهما من أعين مزاحم ورجال السلطة الذين يبحثون عنهما. جدران بيضاء مُقشّرة الطلاء، وباب خشبي قديم يصير عند فتحه. ورغم عيوبه يبقى أماناً يواجه قلقهما. في الليالي الطويلة، كانا يتحدثان بصوت منخفض عن كل شيء وعن لا شيء. عن الأيام التي مضت، عن المستقبل الذي لا يعرفان شكله. وتدرّجياً، دون أن ينتبها، صارا أخوين بالمعنى الحقيقي للكلمة.

هكذا انقضت تلك السنوات العجاف، تاركة لهما شيئاً واحداً ثميناً: نسرين، التي تحلم بمواجهة مزاحم وجهاً لوجه، وحمّدان الذي يعدّ خطة للانتقام منه.

(١٠)

العمارة / ١٩٨٥

من خلل "دويرة الجاهم" الشفافة لصوبة علاء الدين كانت ترقص
ألسنة اللهب الزرقاء، راسمةً ظلالاً قلقة على وجه نسرين الشاحب.
كان حمدان يرى بياض وجهها ليس لوناً مجرداً، كان يراه مادة
الانتظار المتخثرة، ترسبات زمن طويل من الصراع مع الظلام.
بعينه تتبع حركة الضوء على هذا البياض، وفي لحظة ما، توقف عن
رؤيتها. ما كان يراه هو الألم ذاته الذي ينجبه بطن الخذلان في
مواجهة ليل العالم الذي لا فجر بعده.

قال بصوت منكسر:

«سأذهب إليه. إلى مزاحم. سأقتله».

نسرين لم تتحرك.

«لا تنظري إلى الأمر كقتل يا نسرين. انظري إليه ك... ترتيب.

ترتيب أخير للكون الصغير الذي نسكنه. العدل هنا لم يعد ميزاناً.

صار مؤامرة. ما فعلتيه من أجل عنيده - سأرده في وجه عدوك».

توقف. التفت إليها بعينين تنظران من مكان آخر.

«أنا انتهيت. نقطتي الأخيرة سقطت مع عنيده وريحان. كل ما

تبقى - هامش. هامش فارغ بعد آخر كلمة. هامش لا يصلح لشيء

إلا لكتابة هذه الخاتمة. أما أنت...»

توقف مجدداً. رفع إصبعه كمن يشير إلى نقطة على خريطة:

«أنتِ ما زلتِ سطرًا. خيط لم ينقطع. تمسكي به. اتبعيه نحو جمال والصغير. أنا... لم يعد لي أثر أتبّعه».

ارتعدت فرائص نسرين، جازمة أن الرجل الذي أمامها لم يعد حمدان الذي كان يغني «علياني الياني»، ويسقي ولده العرق، ويضاجع عنيدة كل حين، منذ أن استحال بيته إلى فضاء موحش لا يسكنه إلا طيف أحبته، انفجرت من أحشائها زفرة موجعة. توسلت إليه بكل ما أوتيت من رجاء، بيد أن قراره كان قد نُحِت في صخرة عزمه؛ فالفكرة التي تأججت في عقله لم تكن خيارًا، بل خلاصًا حتميًا. كان يسعى لإطفاء جحيم روحه، ذلك الجحيم الذي أوقده رحيل عنيدة وريحان.

«هل يعلم سرور بما تنوي فعله؟» سألته بعينين أرهقتهما الخيبات.

نظر إلى وجهها الشاحب مستحضرًا روحًا على وشك المغادرة. «نعم، فالمقاومة سئمت هذا التسلّط، سئمت السجن داخل سجن أكبر يحشرنا في حظيرة خراف».

بعد أيام وفي ليلةٍ بقمرٍ حزين تحرّكت عقاربُ ساعة حمدان الجديدة، هديّة قائد المجموعة، لتستقرّ عند الحادية عشرة ليلاً. غرقت الماجديّة في صمت لا يقطعه سوى نباح الكلاب السائبة، وخرير دجلة المُتعب.

ارتدى سترة سوداء من الجلد، وأصابه منذ يومين ما زالت ترتجف على المسدّس الكاتم تحت حزامه. لمعت عيناه بنار الترقّب وهو يفحص الشارع المؤدّي إلى "الفلكة"، حيث تتظاهر البيوت بالنوم. في رأس الجسر، وقفت عربة لبلي بمصباح متأرجح يرسم ظلالاً راقصة، وبائعها ينتظر مصدر رزقه؛ قدوم السكارى لشراء مزة سهرتهم.

تحت الجسر، التصق حمدان بالظلّ، يضغط على مسدّسه بشهوة الانتقام، وقلبه يدقّ كطبل. تلك الليلة، قرّر أن يكتب فصلاً جديداً: رصاصة، رجل مهزوم، امرأة منكسرة، ووطن ينزف.

في تلك اللحظة التي تسبق الموت بدقائق معدودات، دنى من أذنيه صوت محرّك سيّارة، فخفق قلبه، إلّا أنّه عاد سريعاً إلى مخبئه خائباً فالسيّارة كانت تحمل في جوفها رجلاً من عامة الناس، ولا يدري أنّه مجرد عابر سبيل في مسرحية ستكتب بالدم والدموع.

مرّت دقائق ثقيلة على حمدان، حتى ظهرت سيّارة مزاحم البيضاء. حسب الخطّة، ووفقاً لطقوسه اليومية التي لا تتبدل مع دوران الأرض حول نفسها، سيترجّل وحيداً ليشتري مزة من اللبلي لسهرته المعتادة، وستكون فرصة ثمينة بيد حمدان لإنهاء فصول العذاب.

أحكم قبضته على المسدّس وأخذ نفساً عميقاً. كل ما مرّ من مأساة عاشها قاده إلى هذه اللحظة، لحظة ستحوّل الماضي إلى

ذكرى والمستقبل إلى احتمال. لم يعد يخاف منذ أن فقد كل شيء. العدالة التي طال انتظارها أصبحت بين يديه.

توقفت السيارة البيضاء أمام عربة اللبليبي، وانقطع صوت محركها كأنفاس محتضر، وخرج منها مزاحم مرتدياً بذلته الزيتونية المطرزة بالخطرسية، وقد لف رأسه بشماغ أحمر كان يشبه في لونه دماء الضحايا التي سفكها بلا حساب. كان ذلك الشماغ تقليدًا أعمى لسيد صدام الذي تفنن في ارتدائه مختلًا في جولاته القهرية بين القصبات والمدن المنكوبة، فصار رفاقه يحاكونه في هذا الطقس الأحمر.

من مخبئه، راقب حمدان المشهد بعينين متعبتين، وما كان يدري أن القدر كان يحيك له مفاجأة أخيرة - فهكذا هو حظ الطيبين في هذا العالم الذي تحكمه قوانين الذئاب.

أسفًا حدق بعينه المرهقين في الحارسين اللذين لم يكن يتوقع نزولهما مع سيدهما. لمح حمدان أحدهما يتحرك بحذر، وقد أبصره قبالة فألقى الأخير بنفسه أمام مزاحم محذرًا: «انتبه رفيقي!»

في اللحظة ذاتها انفجر المشهد بالمفاجآت فانطلقت ثلاث رصاصات. واحدة أطلقها حمدان فأصاب كتف مزاحم أسقطته أرضًا، والحراس - بسرعة البرق - ردوا على رصاصته برصاصتين خاطفتين عكست تدريبهما المتواصل على استخدام السلاح: واحدة استقرت في ساقه، تلتها أخرى فاخترقت صدره.

فيما هرب صاحب العربانة إلى جهة مجهولة سقط حمدان على
الأسفلت البارد دون حراك. وفي لحظاته الأخيرة، رأى وجه مزاحم
وهو ينهض متحاملاً على وجعه، متقدماً نحوه لينحني فوقه،
وابتسامة انتصار شيطانية ارتسمت على شفتيه، ثم بصق في وجهه
بازدراء: «معيدي وصخ!»

انحنى أحد الحراس فوق رأسه فبان وجهه على انعكاس ضوء
توسط الفلكة، لم يكن سوى نعيم قامة وهو يجذبه من ياقة قمصته
الجلدية: «ألم أقل لك... ثمة لقاء آخر سيجمعنا لتصفية
الحسابات؟»

سأله الحارس الآخر الذي لم يكن سوى عليوي ذراع مزاحم
الأيمن: «أعرفه؟»
«واحد معيدي صادفته بالبار». أجاب نعيم قامه وهو يواصل
ركلاته على بطن حمدان.

أما مزاحم، فقد بدا للمرة الثانية واثقاً من محابة القدر له. وهو
يمسك بكتفه النازف، افترس حمدان بنظراته الانتقامية ووجه إليه
ركلة بقدم جاءت نتاج "ولية مخانيث".

«أحلامك كانت أوهن من جناح بعوضة». كرّر ضرباته. «من
أنت؟» جذبه وبصق بين عينيه مرة أخرى. «لا مكان للعابرين مثلك
في عالم سقفه واطئ لمن يحاول الطيران. كم هو بائس ذاك الذي
حرّضك لتنتقم له.»

جلست نسرین فی رکن مظلّم من بیّتها، تنتظر خبراً یعيد إليها شیئاً من الطمأنينة. لكن الرياح دائماً تأتي بما لا تشتهي سفن الحالمین. حین جاءها سرور نبأ مصرع حمدان، لم تجد سوى ثبات ممزوج بالّم مزمن:

«فعلها البطل حقاً... من أجل ولده، من أجل عنيدة، من أجل جمال، من أجل مدينة تتخبّط في لیل أبديّ». مسحت بيد حزنها فوق شعر خساراتها وعیناها معلّقتان بالفراغ، مدرّكة ألا شيء یشفي صدرها سوى فرصة تقتصّ بها من مزاحم.

انساب ظلّها حزیناً وهي تراقب جثّة حمدان من بعيد. كان المشهد لوحة متشابكة: امرأة واقفة بعيداً، تناجي رجلاً مسجّی في العراء. بعینین مثقلتين بحزن حسینی متوارث، نادته:

«اللّهم تقبل منا هذا القربان... حمدان... شكراً لأنّك أنقذت حیاتي يوماً».

سمعت صوتاً من خلف السحاب یلامس قلبها: «أنا من یشكرک علی دفاعک عن عنيدة. هي الآن تمسح الدم عن وجهي. لا تخافي، المفقودون لهم حضور دائم». رفعت یدها للسماء مصافحة نبضاته الأخيرة: «وداعاً أيّها النبیل».

هطل المطر فجأة، برشقات مجنونة. مشّت نسرین بین الظلال شبّحاً یحمل موته بداخله، خطواتها علی الأرضة المبلّلة تكتب رسالة ألم لمدينة عاجزة عن التعافي من جراحها.

بقيت جثة حمدان ملقاة في العراء، تحمل رسالة تهديد لكل رافض لسياسات السلطة. الدم المنساب شكّل دائرة استحالت نهاراً مرتعاً للحشرات، وليلاً حفلة راقصة للكلاب الجائعة. أنقذ شباب المدينة ما بقي من جثمانه، مهزّبين إيّاه حيثُ تنتظره ظلال عنيدة وريحان.

ترددت في روحها أصوات حازمة محدّرة: «لا تتوقّفي!» كانت خطة سرور واضحة: الهرب نحو بيت كرّيم شيشه، ملاذك الأخير. اندفعت نسرّين في الأزقة المظلمة - ارتطمت، نزت ركبّتها، ثمّ لاحت لها واجهة مألوفة. ثلاث طرقات اخترقت خشب الباب المسكون بالأرضة.

«جاك، جاك، شبيك؟ فلّشت الباب!» ردّ كرّيم بصوت حانق.
«أنا... نسرّين».

أزاح المزلاج، وعينه تمشّطان الليل. «شنو هاي؟ چا وين حمدان؟»

أجابت دموّعها: «مزاحم ورجاله أجهزوا عليه». وبحركة سريعة لا تناسب عمره جرّها إلى الداخل وأطبق الباب سريعاً.

اجتمع الثلاثة في غرفة بائسة اختلت بجدرانها مبتعدة في أقصى البيت، وقد تدلى من سقفها ضوء مصباح فلورسنت يتيّم يراقب ما تحته، سادتها رطوبة ثقيلة ببرد قارس يعضّ العظام. انطلق من هذا الفضاء الغريب سعال متقطع رسم ملامح جميلة الكحّاحة، بعد أن

سَجَّيْ جسدها على فراش رطب بقماش مهترئ، وقد تسَلَّلت
أنفاسها الضعيفة نحو حافة الفناء.

بصوت خفيض يفيض حنوًّا قالت جميلة: «أهلاً ابنتي... البيت
بيتج». يعود السعال، أشرس هذه المرة، وهو يكتب آخر سطر من
حياة جميلة.

على الطرف الآخر من الغرفة، تنهَّد كُرَيْم: «آن الأوان لأزيع
الحجر عن صدري». اتسعت عينا جميلة، وارتجف قلبها: «أي
سرّ تخبئ في جوارير إثمك؟ تكلم!» ففتحت بذلك الباب لمتاهة
الماضي المظلمة.

غارقًا في متاهات عيني نسرين، فتح كُرَيْم جرح الماضي
بكلمات قاطعة: «بعثُ أمانةً كنتُ أجهلُ قيمتها. طفلة بعمر
الستين». تلك الجملة اليتيمة غيّرت مسارات الكون كلّهُ في عيني
جميلة. فتابع بصوت مرتجف: «دفعتها له كنعجة فطيمة وقلت له:
هي لك».

«أيّ طفلة؟!» جحظت عينا جميلة.

«ساره، بت موشيه، قابل اكو غيرها؟». نظر إليها عاجزًا.
شهقت واضعة يدها المرتعشة على صدرها. «بعث ساره؟! كيف
تجرأت؟!» استجمعت قواها ونهضت تصارع عجزها، ويد
تفجرت فيها قوة هائلة على غير تكوينها الجسدي هوت بها على
وجهه بصفعة أفقدته توازنه. اتكأ على الجدار يمسح خيط الدم
المنساب من فمه. حاول الدفاع بكلمات خرجت جافة وغير مقنعة

لها «يهودية. أمانة لا أكثر. كم من الأمانات ضاعت دون قصاص لمن فرّط بها منذ آدم إلى يومنا».

ثم صرّت على أسنانها بصوت ارتفع تدريجيًا: «وأخيرًا اعترفت أيها الأحق! يومها، قتلت المتبقي مني». وبصوت متهدج تخلّته نوبات سعال حادة، انفجرت صارخةً وراحت أظافرها تُخرّط جلد وجنتيها بحركات عنيفة متعرجة، تاركةً خدوشًا على بشرتها الشاحبة التي راحت تنزف خيوطًا رفيعة من الدم: «وأين هي الآن، أجبنِي؟» ارتعشت أصابعها من جديد وكأنها تحاول حفر الألم من لحمها، وإخراج وجع يعتصر روحها منذ سنوات.

لاذ بصمت استفرّ قلبها، فأمسكت باستكان الشاي الذي أمامها وصفعت الأرض به، فانتفض صارخًا: «جدامج! أما ترينها؟»

تطلّعت جميلة في مسار إصبعه المتجه نحو وجه نسرين. فسقطت على الفور مغشيًا عليها. تحيّرت نسرين بعينين واسعتين: «عمّ تتحدّثان؟ ما علاقتي بكل هذا الجنون؟»

أدار كُريّم وجهه نحوها. «أنتِ الطفلة التي بعثها! ساره ذات الستين التي أودعها أبوها موشيه داوود أمانة في حُسن جميلة قبل هجرته لأرضهم الموعودة».

توقّف يلتقط أنفاسه المتسارعة. «بعد انقطاع معونة موشيه المحيّرة، تلك التي لم أجد لها تفسيرًا منطقيًا. كيف ليهوديّ معروف ببخله وحبّه للمال، أن يتصدق على غرباء ومن غير ديانته مثلنا دون سبب مهم؟ عشت لحظات صعبة أتساءل فيها عن دوافعه

الخفية لرعايتنا، رغم أنني كنت متأكدًا أن جميلة كانت تحمل سرًّا تخفيه عني ببرر كرمه المشكوك فيه. وكم سألتها وحققْتُ معها! لا شيء سوى التملص من إجابتي. وفي نهاية المطاف اتخذت قرارًا حازمًا: ما المانع من بيع طفلة زهد بها أهلها؟ بعثكِ يا سارة لميثم الوالي، فسَجِّلِك في دائرة النفوس بتًّا له باسم جديد: نسرين». ارتجّت الأرض تحت قدمي نسرين كأنها توشك على ابتلاعها، فاندفعت صرخة من أعماقها المرتجفة مليئة بالذهول والغضب: «هل جُننت؟! أنت تخزّف. أنا ابنة ميثم وخديجة... ابنتهم الوحيدة!»

صمت مشحون بالتوتر... ثم صوت كريم الثابت الذي يخفي طبقات الندم المتراكم، يقطع عليها الطريق بكشفٍ يزيد الغموض إثارة: «لم يُرزقا بطفل واحد منذ زواجهما. اشترياك مني بوساطة جاسم البيّوض، ذلك الثعلب الماكر!» مسح دمعة أحسّت بها نسرين صادقة «كنتُ أراقبك من بعيد، أتابع خطواتك معهم خطوة بخطوة، حتى سافرتم جميعًا إلى باريس تلك المدينة الساحرة والخطرة في آن، ثم اضطررت إلى الانقطاع عن متابعة أخباركم، خوفًا من اكتشاف سرٍ يهدد بالفضيحة، خاصة أمام جميلة وعيون البعثين اليقظة دائمًا».

دوّت الكلمات في أذنها كصفير قطار. «عفوا... عمّن تتحدث؟» نظر إليها لتأكيد أنها المعنية بكل هذا الجنون. دارت الكلمات في أذنها كدوامة لا ترحم:

«أنا ساره؟! طيب. ومن هو موشيه داوود؟ القتل بيد مزاحم أرحم من سماع هذا الهراء!» انفجر بكاءً مدمراً. فجلس كُرِيم بجانبها على الأرض الرطبة: «أدرك حجم خطئي. لا أطلب المغفرة. أردت فقط إخبارك بالحقيقة». ثم جلس بجانبها.

«أي حقيقة هذه؟» رفعت عينيها المغرورتين. ثم ضحكت كمنجونة. «أنت تمزح!»

تحركت جميلة فانتبه كُرِيم لها. نثر الماء على وجهها. «جميلة، خويه؟» فتحوّل سعالها لأنين عندما استعادت وعيها. «ابنتي ساره، ابنتي نسرين!» مدّت يدها المرتجفة. «ساره، طفلي، أنت طفلي، أقسم». انهارت نسرين، عيناها معلقتان بوجه جميلة الممزق بالمرض والبكاء. «طفلك؟»

صمتٌ مريب ساد المكان كدهر طويل. هوت بفمها على يدي جميلة تقبلهما: «أرجوك، أفصحي. من أنا ومن هم أهلي؟»

سلبت الحقيقة آخر ما تبقى لديهم من عقل. جميلة أغمضت عينيها، كُرِيم جلس يلطم رأسه مذهولاً لما اختزن وعيه بزواج جميلة من موشيه اليهودي، وغرقت نسرين في طوفان أسئلة بلا إجابات.

وبعد كل هذا الصهيل من الاعترافات والصدمات، مرّت ثلاثة أيام ثقيلة على البيت الصغير. ثلاثة أرواح تتنفس الصمت. نظراتهم

تتسلل بين الجدران، هاربة، تائهة، خائفة، تحاكم ذكريات نائمة
مبشرة بتفجير آخر لذكريات أشد.

سعال جميلة المتقطع هدم جدار الصمت. دعتهما للاقتراب
بحزم امرأة تستدعي شهودًا لحدث تاريخي. ارتعشت يداها،
ونظرت إليهم بعينين تحمل أسرارًا منتفخة تنتظر الانفجار. وعندما
اجتمعا قربها، تحرّكت شفتاها ببطء. بدأت تفكّك شيفرة ماضيها
كمن يستل ضلوعه واحدًا بعد الآخر رغم الألم ويرميها في محرقة
الاعترافات.

بعد وفاة والديها، تحمّلت جميلة عبء الحياة وحدها. كافحت
لتوفير لقمة العيش لنفسها ولأخيها الصغير كُريم الذي كان يسعى
لإكمال تعليمه رغم ضيق الحال. عاشا في فقر مدقع، هي تعمل في
"بسطيه" صغيرة في السوق، وهو يحلم بمستقبل أفضل عبر التعليم
الذي بدا حلمًا بعيد المنال. هناك في السوق المسكوف التقت
بموشيه داوود، تاجر الشاي اليهودي، المختلف عنها، الغريب عن
عالمها، خطف قلبها رغم فارق العشرين عامًا.

سرًا تزوجا تحت جناح الليل: يهوديٌّ ومسلمة، بموافقة كاهن
يهودي متصالح مع نفسه يسكن العمارة، وشيخ مسلم يؤمن بأن
الزواج شرع الله والإنسانية، وبشهادة جاسم البيّوض نقطة التقاء
الفواجع ووسيط الاتفاقات.

كُرِّيمَ كان يجهل كل ذلك رغم تلقّيه معونات موشيه التي كان يقابلها ممتنًا. أمّا بطنها فظلّ مسطحًا بمعجزة تخفي حملها عن الناس وأخيها، والجنين المنتظر كان يتوارى بداخلها صامتًا. بصوت متهدّج واصلت حديثها: «وبعد عام أنجبتُ بنتًا مشرقة. نسخة منّي. روعي المتجسّدة».

«ساره؟!» صرختُ نسرين باكية.

«كنتُ شاكًا بحدوث خطب جلل. تتزوّجين اليهوديّ يا بنت الكلب!» انفجر كُرِّيمَ ناطحًا الجدار برأسه المثخن بجراح نطحاتٍ سابقة في تجارب انهيار وجنون لا تحصي. متجاهلة انفعاله، واصلت جميلة سردها الجنائزيّ.

في ليلة الولادة نفسها، والدم ينزف من جسدها المنهك، انتزع موشيه داوود الرضيعة بوحشيّة حين اقتحم الغرفة بشراسة حيث نفاسها. حاولت جميلة إلصاق الطفلة بصدرها للرضعة الأولى، تلك الرابطة الأبديّة. «دعها ترضع... مرّة واحدة فقط... أرجوك!» توسّلت وهي تلهث من آلام المخاض.

صفعها بقسوة حين تشبّثت بطفلتها. اختطف الرضيعة التي لم تفتح عينيها بعد، الباحثة غريزيًا عن صدر أمّها. صرخت الصغيرة صرخة مدويّة، صرخة الفطرة المسلوبة، وصرخت الأمّ الشكليّ:

«حبيبي! ألم تقل سنكوّن عائلة؟ ألم تقسم لي على حبّك؟»

كان قد أقسم بكلّ مقدساته التي كان يجترها طوال شهور الحمل... بـ"إسحاق، موسى، هارون، جبل حوريث، حائط المبكى،

وحتى الوادي المقدس طوى" هامساً في أذنها وهو يتحسّس بطنها المسطحة: «هذا مولودنا يا جميلة، سنريّه معاً... راحيل، زواج مصلحة ليس إلّا، فأنت والمولود المنتظر حياتي الحقيقية التي أكافح من أجلها». ساذجة استسلمت له بكلّ ما تملك، ضحّت بشرفها، ودينها، ومستقبلها لوعوده الكاذبة.

عاجزًا خانها جسدها المُنهك حين حاولت النهوض. زحفت على الأرض والدم يسيل خلفها عازمةً على الوصول لطفلتها. ركلها بقدمه فسقطت على وجهها. أغلق باب الغرفة خلفه واختفت صرخات ابنتها في البعيد.

راحيل كانت تنتظر عند العتبة، تسمع صرخات المخاض. سلّمها الرضيعة المغطّاة بدماء الولادة ضاحكاً: «هديتك يا حبيبتى. نظّفيها جيّداً من قذارة تلك المرأة المسلمة!»

وفي تلك الليلة المشؤومة، حينما كانت جميلة ملقاة على الأرض الباردة تنزف وحيدة في غرفتها المظلمة بغياب شقيقها كرّيم شيشه مشغولاً بدراسته في دار المعلمين العالية في بغداد، كان صدرها ينزف حليباً لن يصل لشفاه رضيعتها، رحمها ينقبض على فراغ، وقلبها مات تلك الليلة. كانت تُئن وتصيّد همساتٍ من بيت راحيل وهي تهدد الطفلة بتهويدات عبريّة.

في البيت المجاور كانت راحيل تحتضن الرضيعة بمشاعر أمومة حقيقية لامرأة عانت كثيراً من شبح العقم القاتل. صرخات الرضيعة لا تنقطع، فهي تنادي بلغة الفطرة على أمّها المفقودة. جلست على

كرسيها الهزاز، والطفلة تتلوّى بين ذراعيها. تنهّدت وبدأت تغني بالعبرية القديمة، صوتها مرتجف يحاول إسكات الصراخ: «نومي نومي يلداتي، نومي نومي نيعوراتي، نومي نومي حموداتي».

(نامي نامي يا ابنتي، نامي نامي يا فتاتي، نامي نامي يا حبيبتني). صرخت الطفلة بقوة أكبر، كأنها تعارض الكذبة الكبرى في تهويدات لا تشبه تلك التي تلقّتها في أحشاء جميلة الكحاحة. دخل موشيه الغرفة متجهّم الوجه: «لماذا لا تتوقف عن البكاء؟! هل تعجزين حتى عن إسكات طفلة يا راحيل؟!»

«لقد جرّبت كل التهويدات العبرية التي أعرفها!» ردّت راحيل بعصبية، «ربما تحتاج إلى...»

«إلى ماذا؟» قاطعها موشيه بحدّة. «إلى أمّها...» همست راحيل وهي تنظر إلى عيني الطفلة المبللتين بالدموع. «هراء!» صرخ موشيه، «هذه ابنتنا الآن! جرّبي تهويدة أخرى!»

بأصابع مرتجفة، مسحت راحيل رطوبة سادت عينيها وأخذت نفساً عميقاً، ثم بدأت تغني بصوت خافت: «ليلا طوف، ليلا طوف، هشمش ياراد، هيريج زاراح».

(ليلة سعيدة، ليلة سعيدة، غربت الشمس، وظهر القمر). وكما يقولون في الأثر: أن للكلمات سحر غريب. هذه المرة، خفّت بكاء الطفلة قليلاً، وبدأت عيناها تغمضان ببطء، مثقلةً بالدموع والإرهاق. راحيل همست لنفسها: «نسئمّيها ساره على اسم جدتك العظيمة يا موشيه».

في تلك اللحظة، وصل عبر النافذة المفتوحة صوت أنين بعيد، حزين، مثل نحيب غزالة فقدت صغيرها. كان صوت جميلة، يترنح في الظلام، ينادي طفلتها المسلوقة. الرضیعة بشغفها وفطرتها عرفت مصدر الصوت، ارتجفت واستيقظت فجأة، وعاد بكاءها أقوى من ذي قبل، يتحدى كل التهويدات العبرية في العالم. ثقيلة مرّت الشهور على جميلة. كل ليلة تستيقظ على بكاء وهمي، صدرها يؤلمها. عاشت شبحاً تراقب طفلتها تكبر بأحضان امرأة أخرى.

وحين أصيبت الطفلة ساره بالحصبة وكادت أن تكون خاتمتها، انتظر موشيه حتّى يئست راحيل من سهر الليالي. وحين جاءت جميلة متوسّلة، أذلّها أمام زوجته، جعلها تقبّل حذائه، بصق عليها، ثمّ رماها بالطفلة المحتضرة: «خذوها، إن ماتت لن أخسر شيئاً. راحيل تريد طفلة سليمة على أيّ حال!»

أخيراً احتضنت جميلة ابنتها، ذلك الجسد الهزيل المحموم. أرضعتها من صدر ذاو... ثم حدثت المعجزة: عادت إليه الحياة فتفجرت عروقه بقوة الأمومة الجارفة، حتى شفيت ساره.

في اليوم التالي وبمفاجأة أحدثت لغطاً كبيراً في العمارة، قرر موشيه الهجرة لموطن افتراضي في تل أبيب، لقد باع كل شيء: البيت، الأثاث، المخازن الممتلئة بالشاي، وحتّى ذكريات طفولته لجاسم البَيّوض وبالتأكيد بنصف ثمنها، وربما رבעه.

غادر بأمواله العراقية دون أن يترك قرشًا واحدًا لجميلة وساره.
غادر كمن ينفض الغبار عن بدلته الأنيقة، تاركًا خلفه امرأة محطّمة
وظفلة هزيلة تصارع الموت.

عناقيد عنب ذابلة هي السعادة المتأخّرة. فالجروح التي تركها
موشيه لا تندمل. كل ليلة تحتضن ساره وتتساءل: «كم من الحنان
فقدت؟ كم من القبلات حُرمت؟ كم من الدموع ذرفت وأنا غائبة
عنك؟» ربّت جميلة ابنتها بحنان عميق. لم تدم اللحظة طويلًا...
فكرّيم قطع عليها حلم الأمومة «كثيرًا ما اتّهمني بالتفريط بالأمانة
مخاتلاً وهو من انتزع النوم من عيني».

سريعًا باع ابنة أخته لميثم الوالي ليكمل تعليمه بأموال الصفقة
المشبوّهة وأيضا بوساطة من جاسم البيّوض. «الله وحده قادر على
جمع شتات العصفير». همست بصوت واهن، وكأنها تتشبّث
بخيط أمل رفيع.

حزينة نظرت جميلة إليهما. «أعلم أن مقامي في الدنيا لن
يطول. سأغادر كم قريبًا، وستقولون عني: طائر ضائع في سماء
غريبة».

كلماتها حملت حزنًا عميقًا وفرحة الاسترداد الأخير. ساره
عادت، ولو للحظات، لتطبع قبلة الوداع على روح أمّها المنهكة.
غاضبًا ضرب كرّيم الأرض. «نذل، جبان، محتال!»
«سامحه الله». أسكتته جميلة بصوت واهن.

سألت نسرين بصوت مبحوح: «وأين موشيه داوود الآن؟»

«لا أعرف عنه شيئاً منذ رحيله. من يفرّط بالطازج من الفاكة لا يعنيه التالف منها». تنهّدت جميلة مشيرة لحاجتها للسكون. «أشعر بالتعب».

في حجره وضع شيشه رأس أخته، يمسح قطرات العرق اللؤلؤيّة من وجهها الشاحب.

«يجب أن نأخذك للطبيب!» قالت نسرين بقلق. «لا فائدة يا ابنتي. تمكّن المرض منّي». هزّت جميلة رأسها. بطيئة أصبحت أنفاسها، وقبضت يدها على يد نسرين. «أحبكما كثيراً. اعتنيا ببعض».

«أمّي! لا تتركينا! وجدتكِ لأفقدك! أيّ لعنة حلّت بي!» صرخت نسرين ممزّقة سكون الليل.

محدّرة نظرت جميلة إلى كُريّم: «هذه المرّة أمل ألا تفرّط بابنتي». حملت عيناها وصيّة أجيال. «جميلة، أرجوك، ابقِ معنا. سامحيني، كنت سبباً في تعاستك». جلس كُريّم بجانبها، دموعه تتساقط. قبل جبينها. رحلت روحها تاركة فراغاً لا يُملاً، وابتسامة على وجهها المتغصّن تبارك خطوات نسرين القادمة. ومن جانبها احتضنت نسرين جسد أمّها، قلبها يتفطر حزناً، وبكاؤها الصامت يملأ الغرفة المنسيّة في عالم مثقل بالجفاء. تلك كانت اللحظات الأخيرة التي جمعت العائلة، لحظات وداع مريّة تملؤها الوسايا والندم.

«دقائق وأعود إليك».

خرج كُرَيْم تشيعه نظرات نسرین وقلق يخنقها. في شقة سرور،
باح له بكل شيء: وفاة جميلة، هُويّة نسرین الحقيقية، أبوها موشيه
داوود. انهيار كُرَيْم باكيًا، تستجدي شفتاه المساعدة بعد أن
اكتسحتهم الوقائع كطوفان.

«البقاء لله». قرأ سرور الفاتحة، ثم حذر: مزاحم لن يتوقف.
لاحظ التشابه المذهل بين نسرین وأمها، فاهتدى لحيلة جهنميّة: أن
تلعب نسرین دور جميلة وتختفي هُويّتها للأبد.

غسلت نسرین جسد أمها بدموعها، كما غسلت أحزان دهور.
دُفنت جميلة سرًّا في "العرضات" بشهود قلائل. قال كُرَيْم: «جميلة
كانت جنازة تمشي منذ بعث ابنتها ساره. اليوم اكتملت رحلتها -
وداعة الله خويّه».

تقمّصت نسرین شخصيّة أمها بإتقان. أعانها وليد وسرور
بخبرتهما المخبراتية: المظهر، الشيلة السوداء، حتى السعال
الموروث من طفولتها المريضة.

هبط مزاحم فجأة يبحث عنها. قابلته جميلة/نسرین متصنّعة
السعال. خرج كُرَيْم ثملًا: «سالمين، سالم وطنا بيكم... سباع ولد
سباع... صبتوا شرف هالگاع». انصرف مزاحم مقتنعًا أن نسرین
اختفت كقطرات في رمال ظامئة.
لكنّ هناك حياة أخرى تنتظر.

الفصل الثالث

”أقصى السجون وأمرّها تلك التي لا جدران لها”

”أدونيس”

(١١)

في أقبية سجون الشعبة الخامسة ببغداد، كان جمال يقبع في زنزانه رقم "٧". هناك، حيث يلتهم الظلام نفسه، والوقت يقطر تيزابًا. خمس دقائق بين الضربة والأخرى، يعدّها بنبضات قلبه المنهك. صرخة، ثم صمت.

«في المسرح نموت كل ليلة لنولد من جديد... نرتدي الأقنعة لنكتشف وجوهنا الحقيقية». هكذا كان يلقّن طلابه في أكاديمية الفنون الجميلة. والآن، تحوّلت كلماته إلى سخرية قاسية في ظلمة زنزانه.

«أستاذ جمال!»

انطلق صوت المحقق وهو يُطفئ سيجارته في يد جمال - صوت تحوّل في مخيلته المحمومة إلى كلوديوس عمّ هاملت وهو يهمس بجريمته. ابتسم رغم النار المحفورة في جلده، رفع يديه كمايسترو: «واهمون أنتم، مستحيل أن تكون الحقيقة هي ما تنتزعونه بالكَيّ - نيرانكم تُطهّر، لا تُفني».

صفعة قوية من كفّ الضابط أعادته إلى الواقع. «سنرى كيف سيتحرر صوتك الآن».

«أنتيجون...» همس.

من هنا انطلق مسرحه الخاص: تحوّل السجن إلى كهف يوناني، ورجال الأمن إلى جمهور. هرقل وگلگامش في الصف الأول،

ماري أنطوانيت عارية بينهما، وكلوديوس فوقهم بمنشفته العفنة. نغمة وقع السياط على جسده استحالت إلى أغنية «والله يا زمن» بصوت شادية، والجلادون تحولوا إلى جوقة صامته في مسرح أسود.

«جمال؟ أين المسرح الذي تدعيه؟» جاء صوت المحقق من بعيد. «(في داخلي!)» أراد أن يعجب، غير أن صوته خانه مستسلماً للنحيب. وفي زاوية ضيقة من ذاكرته، ابتسمت نسرين هامسة: «(المسرح لا يموت يا جمال، يعيش في داخلنا)». ضحك، صفق الطلاب، جرى دجلة في عروقه، إلا أن صورة الدكتور مزاحم أسدلت الستار.

ضربة أخرى، خمس دقائق أخرى، ومسرح جديد ينتظر خلف جدار الألم. كل صرخة تمحو جزءاً من ذكرياته الجميلة. وبعد فترة ليست بالقصيرة ساقوه مع قطيع البشر المحطمين، سجناء ومجانين، إلى جبهات القتال في حرب الخليج الأولى. طريقة مبتكرة للإعدام: أجساد مخدرة تُدفع نحو حقول الألغام.

في وحدته العسكرية، تحول إلى عدم يتجول بين أقرانه المغيبين من جنود وجدوا أنفسهم أغناماً في قطيع يصل الفاو بزاخو. في عقله المشوش، أصبح كل انفجار مشهداً مسرحياً، والقذائف أضواء متوهجة، وصرخات الجرحى مونولوجات درامية. في كل ومضة نار، كان يرى وجه نسرين، تبتسم تارة، تبكي أخرى، وتغني أغنية يا "شميسه" بلحاظ عينيها.

وسط هذا الجنون، اكتشف جمال مسرحه الجديد. في زاوية معتمة من وحدته العسكرية، راح يجمع كنزه السري: أعقاب سجاثر، علب كبريت فارغة، أعواد ثقاب محترقة. صار كل عقب سيجارة جندياً يتلاشى، وكل عود ثقاب ضابطاً أحمق، وكل علبة فارغة خشبة مسرح على شكل تابوت.

ثم عثر على عقب سيجار كوبي ضخمة، متميزاً عن بقية الأعقاب الصغيرة كعملاق بين أقزام. تأمله طويلاً، ثم تيقن: هذا هو الله - حاضر بحجمه المتناهي، يرى ويسمع ويتابع، لكن دون ردّة فعل تقي جلده سياط الرئيس.

أمسك العقب الكوبي بين أصابعه كمن يمسك سرّاً ثقيلاً، ثم حفر حفرة صغيرة في الأرض ودفنه. همس وهو يهيل التراب: «انتهى الجدل... انتهت السفسطة الفارغة».

في الليل، بين القصف والقصف، يخرج مسرحه الصغير وهو يتمتم: العقب الطويل «هاملت»، والقصير «أوفيليا»، وأعواد الثقاب المحترقة جوقة صمت مطبق من الشهداء. ومع كل صغير قذيفة، يسارع بإخفاء ممثليه الصغار في شق الجدار، ليفتح عينيه على مسرح الحرب الكبير، حيث الموت هو المخرج الوحيد، والبقاء هو الدور الأصعب.

بأصابع مرتعشة، نحت على جدران الخندق وجه نسرين. أعواد الثقاب المتفحمة حفرت في الصخر ما عجز السجن عن محوه من

القلب. من سواد العيدان شكّل ذاكرته المتلاشية، ومن هشاشتها صنع صلابة الأمل.

رصّف الأعواد المحترقة فوق الأرض الترابية كأَيّام عمره المسروقة. أربعة منها شكلت نافذة وهمية. أغمض نصف عينيه، مدّ رأسه عبرها، واستنشّق غبار الأرض يتشمم عطر الحرية. كذبة جميلة آمن بها حتى اختنق بترابها.

وحين اكتشف "شماشمة" الوحدة العسكرية مسرحه السريّ ووشوا به إلى أسيادهم، صادر الضباط هذه الأدوات البسيطة خوفاً من تحوّلها إلى صواريخ جرثومية.

لم يتوقف الإبداع عند هذا الحد... فجمال، الذي علّم طلابه: «المسرح يعيش في داخلنا»، وجد في الحصى الصغيرة بديلاً مذهّشاً.

جمعها بعناية مثل نثار نجوم سقطت من سماء حريته المفقودة. رتبها في دوائر صغيرة، وحكى لجمهوره الصامت عن مسرح بغداد القديم، عن «أنتيجون»، عن ابتسامة نسرين التي أضاعت خشبة المسرح ذات يوم، وعن طفله الذي لم يَره بعد، ذلك الممثل الصغير الذي يراه يكبر مليّاً في غيابه.

في ظلام الخندق، وبين قصف وقصف، واصل جمال عروضه السرية. حتى عندما نزفت أصابعه من التعذيب، كان يرسم بدمه على الجدران. وحين منعوه من الحصى، صار يمثل بظلال أصابعه على الجدار، يخلق مسرحاً من ظلّ وضوء، يروي لنفسه قصّة رجل

عاش للمسرح حتى صار المسرح حياته، وصارت حياته مسرحاً للعذاب.

في دوامة الحرب المجنونة، كان جمال رقمًا بائسًا في قائمة طويلة من الجنود المجهولين. لم تكن هذه معركته، ولم يكن هذا مسرحه المختار. رعونة القادة هي من اختارته ممثلًا رئيسًا في مسرحية طغيانهم.

كانت تقارير قادة وحدته واضحة: «مجنون يتحدث مع الحصى»، «يرسم على الجدران»، «خطر محتمل». وهكذا، قرروا أن يكون الممثل المثالي لمشهد اقتحام حقول الألغام. وفي أحد صباحات الحرب الضبابية، دفعوه نحو الأرض الحرام التي تفصل بين الجانبين العراقي والإيراني. لا شيء في جعبة أعلامه سوى عيدان ثقابه المحترقة وحصاه الصغيرة: جمهوره الأخير في هذا العرض المميت. وفجأة، في تلك اللحظة حيث التقى الموت بالجنون، تحول جمال الورد إلى شخصية أخرى تمامًا:

«أنا عترة!»

راح يجري لاهثًا، صرخاته تستفز الصمت المميت لحقل الألغام. تلبس بروح الفارس العربي، منطلقًا يقفز بين الألغام، شبيهًا براقص باليه أصابه الجنون. انهمرت حوارات المسرح القديمة من فمه، كلمات متدفقة تغمر المكان: «ولقد ذكرتكم والرماح نواهل،

مني وبيض الهند تقطر من دمي، فوددت تقبيل السيوف لأنها،
لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسم».

كان يرقص بين الموت والموت مؤدياً رقصة حمامة "مفرحة".
تحوّل كل لغم في الأرض في عينيه إلى جمهور يصفق، وكل
صرخة تحذير من الجانبين تحولت إلى تصفيق حاد. تطايرت عيدان
الثقاب من جيوبه نجوماً صغيرة، ورسمت الحصى خلفه درباً
متعرجاً يشير إلى طريق النجاة الوحيد.

«يا عبلة!»

صرخ وهو يقفز قفزته الأخيرة، متخطياً الخط الفاصل بين
الموت والحياة، بين الجنون والعقل، بين مسرح وآخر.
وهناك حيث الموت يرتدي زياً آخر مختلفاً، وجد نفسه محاطاً
بجنود إيرانيين مذهولين من هذا المشهد الأسر: رجل يرقص في
حقل ألغام، يلقي الشعر، ويضحك مثل طفل وجد لعبته المفقودة
بعد طول بحث.

لم يكن جمال مدرّكاً حينها أنه قد نجا من الموت ليدخل في
فصل جديد من مسرحيته الطويلة. والآن، وهو أسير في قبضة
الإيرانيين، بحثت عيناه في جيوبه المهترئة عن بقايا عيدان الثقاب
والحصى، كنزه الأخير، مسرحه المتنقل. إلا أن جنديين إيرانيين
قبضا عليه بقوة، وشدّا وثاقه حتى غاصت الجبال في معصميه.

«المسرح لا يموت أبدًا، حتى في قلب الحرب». كرر جملته بصوت محشرج، مؤديًا دورًا جديدًا في مسرحية من تأليفه وإخراجة تحكي سلسلة خساراته.

«خوردن كثافت خودش، بعثي، خوك!»

«أكل خره، بعثي، خنزير!»

صفعة الضابط الإيراني أطاحت بجمال أرضًا. تناثرت شظايا مسرحه مع سقوطه، حصوات وأعواد ثقاب كانت آخر ما تبقى من فنه. اجتمع الإيرانيون حوله فأوسعوه ضربًا مُبَرِّحًا حتى صار جسده خريطة ندوب. صرخ المحقق وهو يعضّ كتف جمال بقسوة كلب مسعور: «أنت ضابط مخابرات! وما تُخَرِّف به شيفرات سرية!»

«إنه مسرح صغير لا أكثر». رد بوعي مفاجئ.

«سنشاهد عرضك الأخير إذا» قال الضابط الإيراني مع صفعة على عين جمال أسقطته أرضًا.

بدأت المسرحية بفصل من التعذيب فاق نظائره في الشعبة الخامسة: تعليق من المعصمين، أسلاك معدنية تلتف حول القدمين، وكهرباء تسري في المناطق الحساسة. وفي زاوية الغرفة، كان يقف المترجم العراقي المشهور باسم "أبي علي"، ذلك التّوّاب الذي قتل الجندي الإيراني "داريوش" في معركة سابقة من حرب الثمان ثم سلّم نفسه للعدو أسيرًا.

كان أبو علي - زوج أم علي جارة سرور، يتفنن في تحويل كلمات جمال البسيطة إلى اعترافات مزعومة بخبث مُحكم. هذا

الرجل الذي اعتقدت زوجته أنه استشهد، بينما كان يمارس التعذيب هنا ضد أبناء جلدته في معسكرات الأسر الإيرانية، كمن عثر على قاتل أخيه.

وفي لحظات تجاوزت حدود الإنسانية، كان جمال فيها يتلوّى من ألم التعذيب، انبثق أبو علي من ظلمات جحيمية يمارس دوره كجسر ملعون بين الجلاد والضحية. يعبر فوق جثث كرامته وتاريخه، متنقلاً بين لغتين، ووطنين، وهويتين، كخائن أتقن فن البقاء على حساب الآخرين.

ضحك جمال ضحكة من أدرك عبثية المصائر، واستوعب لعبة الهويات القاتلة: في العراق اتُّهم بمعارضة النظام، وفي إيران بكونه من أركانه. وبين الاتهامين، صار جسده مسرحاً للألم. وفي ليالي العذاب هذه، كان طيف نسرين ملاكه الرحيم. يراها تمشي في شوارع الماجدية، تنتظره حاملاً ابنهما المنتظر، تبحث عنه في وجوه العائدين وهي تقول: «من فيكم جمال؟»

بعد انتهاء الحرب، عاد بصفقة تبادلٍ أسرى بين الطرفين. صفقة كانت أقسى من غياهب أسره. وما أن حطّت قدماه فوق أول متر من الفناء، حتى تساقطت الأسئلة في قبو التحقيق العراقي:

«يولّو، لماذا لم تمت هناك؟ ماذا قلت لهم؟ هَلْكَ وَين؟»

فجأة، شيءٌ من ضباب تشكّل كطائر أبيض، اختَرَقَ عتمةَ ذاكرته، فلمع وجهٌ نسرين حينها. كانت لها تلك الابتسامة الساحرة التي

تعيد إليه روحه عند كل ضياع. ابتسم ابتسامة غريبة بوجه الضابط الذي صفعه بقسوة وراح يضغط على رقبتة صارخاً: «هلك وين؟ فاين الحظ، من هيو المحافظات انت؟»

ردّ بصوتٍ حالمٍ استحضر روائح الماضي: «الماجدية... حيث البيت الأبيض على ضفاف دجلة، حيث تنام الشمس في أحضان النخيل. هناك، كانت تطرز نسرين ثوب عرسها بخيوطٍ من ضوء القمر، وتختزن أحلامها بين طياته».

بيد أن الفنان الذي كان يُعرف بجمال الورّاد، ذاك الذي تراقصت ظلال بيكيت وشكسبير في روحه ورسم البهجة على خشبة الحياة بصوت ريتشارد برتون، ألقت به الأيام، بما حملته من غدر، في غياهب زنازين السلطة، هناك، حيث يبهت كل لون وتذوي كل زهرة.

في كل يوم يمضي، كانت الزنزانة تمحو لوناً من ألوان ذاكرته، وتطمس خطأً من خطوط إبداعه. وعندما أيقنوا أن روح الفن قد فارقت جسده، أطلقوا سراحه كارهين، ظانّين أنهم بذلك قد تخلصوا من خطر لا يدركونه.

خرج جمال من الزنزانة طائراً بلا جناحين، روحاً منهكة وجسداً خاوياً. لم يُمنح حتى حرية النظر إلى السماء، بل رُمي ليلاً من صندوق سيارة مجهولة على أسفلت فلكة الماجدية، معصوب العينين، ليجد نفسه وحيداً في عالم متناقض، يحمل بين جنبيه بقايا فنّانٍ قتلوه على مهل.

"العمارة / ١٩٨٩"

گللووووششششش!!! استقبلته الماجدية بوجه جديد غير مألوف.
عاد إليها غريبًا عن شوارعها. ذاكرته المثقوبة لم تحتفظ إلا
بضحكات نسرین، التي كانت مدينة مُشعة في أفق حياته، منارة
أضاءت دروبه المعتمة.

«عدت لأسترجع أمانتي التي تركتها عند نسرين».

الكتل الخرسانية تحت جسر الماجدية كانت تعزف لحناً شاردًا اسمه جمال. ينحدر الطريق فوقه نحو شارع بغداد مثيرًا غبارًا وذكرياتٍ مهشمة تتساقط على الأرصفة، فيدوسها المازة بلا مبالاة. يداه تستجديان المعنى من الشوارع، تلملمان كنوزه المقدسة في رحلة بحث أبدية: أعواد ثقاب مكسورة تشبه أحلامه المجهضة، أعقاب سجائر أحرقتها أنفاس غريبة، أشياء صغيرة لا قيمة لها تماثل ما تبقى منه.

ومن بين الظلال الخرسانية، ظهر "جوبله" فجأة أمام جمال -
مجنون المدينة المعروف منذ أن وُلد من العدم، لحظة إعدام
الهاريين من الجيش في المتنزه. ما زالت صرخته الفجّة تشاكس
أسماع الأهالي، مُستحضرة ذكريات مقتل الحاج زكي.
«كَلِمَن مَيَطُش لِبِت أُمّه - خنجر مكسور بكس أُمّه».

كانت عيناه تحملان حكمة مَنْ شاهد الحقيقة خلف ستار
المأساة. حطمت الحياة ورمته تحت الجسر. رأى في جمال انعكاسًا
لوحشته. لم يتبادلا سوى ابتسامة مقهورين قد أهملتهما عناية الله.
ففي عالم الأرواح المحطمة تكفي نظرة عابرة لتجمع شتات
المأساة.

دأب الأطفال على تتبع چوبله كظله، يحومون حول جنونه
بالبراءة التي تقاوم قسوة العالم. وبمشاركتهم بأيدي صغيرة بنى چوبله
مأوى من الكرتون لجمال. ارتفع الملجأ الهش بين أكوام القمامة
تحت أعمدة الجسر. نصب تذكاري للعبث، هدية دافئة في صقيع
وجوده.

دخل چوبله ذات ليلة إلى عالم جمال الكرتون. وقف عند
الفتحة التي تمثل الباب يراقب بصمت هذا الكائن الغائب عما
يحيطه، ثم قال بهدوء: «سلام على من اتبع الهدى! أقيم هنا صلاة
لأرواح الموتى؟ فكلّ عود كان شعلة، هو الآن فحم بارد».

رفع جمال رأسه ببطء. عيناه ضائعتان خلف جدار الكرتون.
أمسك بعود مكسور: «ليست كلّها ميتة. بعضها انكسر قبل احتراقها
الكامل. روح علقّت بين الصرخة والصمت. أتعرف هذا الشعور؟
كونك شظية لا هي رماد ولا هي نار؟» جلس چوبله بجواره. قدماه
تسرحان في الفراغ مثل سمكة في جرف الشط. «الشظايا... أعرفها
جيدًا».

مرارة الذكريات تتسرب من بين شفثيه. عيناه تحدفان في المسافة حيث تتراقص أشباح أحلامه. «المدينة بأسرها... كومة شظايا يا...؟»

عصفورٌ مرّ يؤدي التحية لأرواح الغائبين. تدارك چوبله سؤاله: «لا يهم من تكون. أنت مجرد هامش داسته ظلال الطغاة». لفهما الصمت لحظات. حتى نطق چوبله أخيراً بصوت يتجول خائفاً في فضاء فمه: «المدينة شظايا مثورة. ونحن ما زلنا نتنقل فوق زجاج مكسور. نتظاهر بعدم النزيف. نضحك كالموتى ودمائنا تروي تراباً عطشاً احتض خيبتنا». العود المكسور في يد جمال يلمع تحت ضوء خافت «حتى الشظية تحتفظ بذكرى شكلها الأصلي». ابتسامة جافة ارتسمت على وجه چوبله: «الذكرى خنجر يغوص في خاصرة اللحظة. الغرق في رماد بلا ذاكرة هو النجاة الوحيدة». الفجر يأتي فيختفي جمال ليطوف بين ركام الوجود. ويعود ليلاً ليجد چوبله في انتظاره. ضوء القمر يرسم خيالات راقصة على صفحة النهر الموشح بالانعكاسات. «ماذا تسمع؟» سألته چوبله.

«أصغي إلى صمت المدينة، فصخبه يفوق ألف طبل حرب. أبحث عن ضحكة صادقة وصوت لم تلوته الخيانات». «الأصوات لا تضع. تتحول إلى غبار حزين وصدأ وجنون. المدينة مقبرة للأصوات الحقيقية». «كالخناجر المكسورة... مثل أعواد ثقابي التي لا تشعل ناراً؟»

«كل شيء هنا مكسور بجمال مرعب. نحن حرّاس صامتون لهذا المتحف المحطم».

سأل جمال: «هل هذا المنخب الهش يحميننا حقاً؟»
«يحمينا من الوهم الأكبر، أن الجدران توفر ملاذاً آمناً. بيت صريح في هشاشته لا يرتدي قناع القوة الكاذبة».
«ألا تشاق لجدار حقيقي له ذاكرة؟»
«الجدران الحقيقية سجون للذاكرة القاسية. في هذا البيت الورقي نحن أحرار. حرية مرعبة في إطلاقها».

وفي عصرية رمادية اللون، كان چوبله منغمساً في إحدى هيسثيرياته اللطيفة، مفترشاً أسفلت فلكة الماجدية، مبتسماً بقوة. تحدّث بنبرة مشبعة بالسخرية: «أيتها السطوح الصمّاء، أنا وأنت رفقاء درب، مداس لأقدام قادتنا، وهزائمتنا المتكررة».
وكأنّ القدر سمع همسه، انقضّت عليه سيارة كوحش حديدي. لم يكن هناك صوت فرامل، إنّما ارتطام جافّ مفاجئ، أشبه بصوت كسر شيء عزيز في عتمة أبدية. توقفت السيارة ببطء. سائقها، كان رجلاً ببدلة زيتونية، عنصراً من خبائث البعث، بدا وجهه قناعاً من الرعب المباغت، سرعان ما ستره ببرودة اللامبالاة بعد معرفته بهوية منّ صادر حياته قبل قليل.

انتفض جمال فزعاً من تحت الجسر، سمع صرخة چوبله الأخيرة «ولج يمه»، ليشاهد جسده يُقذف كخرقة بالية في الفضاء.

تجمع الفضوليون كغربان حول الجثة، في حين ظلّ جمال متسمراً
صخرةً في مكانه.

لم يصرخ، لم يبك، بيد أن شيئاً في داخله تحطم بشكل نهائي.
شرخ قديم من زنزاة رقم "٧"، جرح ملتهب منذ كرمشاه، صرخة
حرية اختنقت في أكاديمية الفنون الجميلة، كل هذا الألم تحطّم
الآن إلى ذرات لا يمكن جمعها.

وقعت عيناه على وجه السائق، فتجمّد الزمن للحظات. شعر
بدقات قلبه تتسارع وذكريات مريرة تتدافع في رأسه. لم يكن ذلك
الرجل مجرد سائقٍ مذنبٍ عابر في حياته، بل كان شيئاً أكثر عمقاً
وأشدّ ألماً؛ فتلك العينان المخادعتان، التي تراقبانه الآن عبر المرآة،
تنتميان إلى جلاده القديم، محرك خيوط العذاب السوداء التي
نُسجت منها مأساته الطويلة.

ارتجفت أطرافه وجفّ حلقة حين استقرّت الحقيقة في وعيه
كالصاعقة: السائق هو مزاحم نفسه! ذلك الاسم الذي ارتبط بكل
منعطف مظلم في حياته، كظلّ لا يفارقه.

تلاقت أعينهما في المرآة، وفي تلك اللحظة الخاطفة، أدرك أن
القدر، بسخريته المعهودة، قد جمعهما مجدداً في مساحة ضيقة لا
مفر منها، كأنهما محكومان بدورة أبدية من المواجهة، يتبادلان
الأدوار بين الجلاد والضحية في مسرحية لا تنتهي.

عزم جمال على قتله هذه المرّة، متسلحاً بغضب أعمى. في تلك
اللحظة المتوترة، انسحب مزاحم بكل برود داخل سيارته التي

تحوّلت من وحش قاتل إلى حصن واق، وغادر المكان تاركًا خلفه
غبارًا يحمل رائحة الموت والظلم.

صوت مهول فضّ حشد الناس حول جثة چوبله، ففرقوا
راكضين، وهم يستعيدون ليلة مقتل الحاج زكي. صامتًا ظلّ جمال
يطالع چوبله والدماء تنزف منه، حتى حذّره أحد الفارين: «ولك
وخر منه!!! ما تسمعه شيگول!!!»

من فم چوبله قرّب جمال أذنه، فسمعه يهمس بحروفه الأخيرة
المقطعة: «كلّمن مَیْطش لبيت أمّه - خنجر مكسور بكس أمّه».

حزينًا في خلوته الليلية تحت الجسر، واصل جمال ترتيب
"غنائمه" بدقة جنونية، مخاطبًا الأشياء التافهة: «هذا أنا، حين
تكسرت روحي في الزنزانة رقم "٧" وهذا قلبي، حين احترقت
جميع أحلامي في زنازين كرمشاه» ومن علب الثقاب الفارغة شيد
أضرحة لذكرياته: «هذا قبري المعدّ قبل ولادتي».

كان جمال يتجول في الشوارع الخالية صامتًا دون وعي منه
يبحث عن بيت ميثم الوالي، لم يترك زقاقًا دون أثر لقدميه الحافيتين
عليه، متجرعًا كمًا هائلًا من مضايقات المارّة وتنمر الناس.

وعند مروره بشارع دجلة كان يقف أمام واجهات المتاجر
متطلعًا في صورته المنعكسة عن ظلال إضاءتها، فيمسه الرعب
لمرأى رجلٍ يجهله، رجل تسكنه العواصف. شعره أشعث، ملابسه
رثّة. وجهه الشاحب ينطبع في زجاج الواجهات كابوسًا يعاود

الظهور في ليالي الأرق. فيصرخ بصوت يحمل أنين الكنائس
«تفضلوا! العرض سيبدأ! سترون كيف تُكسر الروح، قطعة إثر
أخرى، حتى تصير رماداً!»

عندما يسأله المارة عن اسمه مشاكسين، كان يرسم ابتسامة
حزينة، ابتسامة الأنبياء المتعبين: «سمّوني ما شئتم، بشرط أن
يحمل الاسم معنى وعد بيوم جديد بطلته نسرين... فأنا لست سوى
حالة مؤقتة من الانتظار». فأطلقوا عليه "نيروز المخبل".

وكان من سوء حظّه أن مأواه الذي تحت الجسر كان قريباً من
مشهد دائم لفعاليات السكارى السوداء. وذات ليلة، رأوه يتعثر في
العمّة:

«هيه هيه مخبل!»

طوقوه كوحوش، وأمطروا رأسه بخمرهم الرخيص، ثم انهالت
ضربات أحزمتهم الجلدية على ظهره النحيل، ودفعوه نحو المياه:
«اغسل جنونك!» غرق في عتمة النهر، زحف إلى كرتونه المبلّل
وهو يستخرج من جيبه آخر ما تبقى من كرامته - أعواد ثقاب غارقة
في الرطوبة.

هنا، انشقت السماء عن "صالح حديدة"، وجهه يتوهج بلظى
معركة للتو خرج منها منتصراً. انحدر نحوهم بهيئة الأسد
المتوحش: «أخوات الغحبة! أهكذا تفعلون برجل مكسور؟ الزلّة
منكم يوكف كدامي؟»

تناثر السكارى هارين بين الأزقة وهم يحملون عار التمر على كائن هش. اقترب صالح من جسد جمال المرتعش، ألقي سترته عليه فغطت كتفيه الباردين: «تعال خوية نيروز».

فتح كيسه المعدّ لسهرته، تصاعدت عطور التبولة واللبليبي والكباب الساخن تملأ المكان بأريج النجاة. نظر في وجه جمال المغسول بالوجع: «أكيد انت جوعان هسه، هذا عشاك الليلة. والله ما يمر عليّ طعام إذا ما تاكله انت».

جلسا على حافة الشطّ، صالح يضع الكباب في فم جمال بحنان الأب: «إكل عيوني». راقبه، كان يأكل بلهفة الجائع، وفي عينيه دمة حبيسة تحمل تاريخاً من الجوع والهوان وتوالي الخسارات. عندما انتهت الوجبة، انحنى جمال ليقبّل يد منقذه. سحب صالح يده برفق، ثم قبّل يد جمال، ثم رأسه في مشهد يختصر فلسفة الإنسانية كاملة، وانسحب من تحت الجسر طاهراً كيوم ولدته أمّه.

صباحاً، وجد جمال نفسه ملتحفاً ببطانية قديمة، كانت هديّة من المهدي صالح الذي عاد ساعة السحر ودثر بها جسد جمال ثم غاب تاركاً وراءه أثراً من الإنسانية. جلس جمال، متحسّساً وجهه فوجد كدمات جديدة انضمت إلى خريطة ألمه القديمة، متسائلاً: أي إنسان بقي فيه؟ أي فنان سيصمد داخل هذا الجسد المنهك؟ خرج إلى الشارع مترنحاً، وبخطوات متثاقلة وصل إلى سوق النجارين، ووقف أمام مقهى البؤساء متأملاً المارّة بعينين مثقلتين

بالقهر. كان يرتدي ملابس غريبة كأنها خرجت من أحلام خياط
مجنون، وجسده النحيل يكاد لا يقوى على حمل أعباء الحياة.
في ذات اللحظة، داخل المقهى، كان سرور جالسًا بصحبة وليد
وهما يحتسيان الشاي حسب روتينهما المعتاد منذ أن جمعتهما
جنازة جميلة الغحاحه. لمحاه عبر زجاج النافذة، ذلك الرجل
النحيل الواقف متطلعًا في الوجوه، باحثًا عن طوق نجاة فيها،
فخرجا ليتفحصا هذا الغريب عن قرب.

أدركا بحكمة تجاربهما أن هذا الرجل الذي يسمونه "نيروز"
يحمل في روحه مأساة سحقت طمأنينته تحت عجلات قطارها.
أشار سرور للچايچي العجوز ليحضر شايًا مُهَيَّلاً وقيمراً مع دبس
وصمون حار، ويضعه أمام جمال، نفذ العجوز ذلك مع ابتسامة
نييلة.

وبحركة متزامنة، أفسحا مكانًا بينهما لجمال، فجلس الثلاثة على
المصطبة الخشبية العتيقة التي شهدت عقد صفقات، ونسج قصص
حب، وتلحين همسات، وحياسة مؤامرات.
«نيروز تعال هنا».

اقترب جمال بخطوات مترددة وجلس بينهما متوترًا: «هل هما
من الأمن العراقي، أم من التوابين العراقيين؟» ردد وعيه الملتاث
بقلق.

تساءلا صامتين عن سر تعاطفهما الغريب مع هذا الرجل
المُهشم. ربما رأيا في عينيه انعكاسًا لوجودهما في عالم بديل، أو
اكتشفا أن الحدود بين العقل والجنون أرق من خيط الحرير.
بدأ جمال يدمدم بكلمات متقطعة: «الإنسان في الوحل... يا
سيدة الضباب عديني أن نغرق معًا بين النجوم».

سأله وليد وهو يدرس قطعة صمون مغموس بالقيمر والدبس في
فمه: «من هي سيدة الضباب يا نيروز؟»

لمعت في عيني جمال ومضة وعي: «كانت تلميذتي في
الأكاديمية، كنا سنقدم معًا مسرحية "سيدة الضباب"، وقبل الافتتاح
بأسبوع اعتقلوني، قالوا إنني تطاولت على السلطة بوصفها جائرة».
استشعرا توترًا أمنيًا مريبًا، فانتفضا من مقعديهما بحركة متزامنة،
وألقيا بالنقود على الطاولة قبل أن يتلاشيا في زحام الشارع كطيفين
هاربين. تسمرت عينا جمال على أثرهما، والرعب يتسلل إلى
أوصاله كالثعبان، متسائلًا عن سر هذا الانسحاب المفاجئ الذي
أثار في نفسه هواجس الخطر المحقق. لم يجد من سبيل سوى
الفرار، فانطلقت قدماه تحملانه بعيدًا وصوته المرتجف يردد
بالحاح يائس: «لا، لا، أنا نيروز، أنا لا أعرف جمال، جمال
بعينكم».

عاد إلى مخبئه تحت الجسر، فتح كيسه القماشي ورتب أعواد
الثقاب وأعقاب السجائر في صفوف منتظمة: صفّ للشخصيات
المسرحية، صفّ للأصدقاء، صفّ للسجانين، صفّ لأساتذة الكلية

وطلابها. وفي النهاية، وضع ثلاثة أعواد بعناية خاصة جانبًا: «هذا أنا»، أشار إلى عود مكسور. «وهذه نسرين»، أشار إلى عود طويل ذهبي. «وهذا...» تردد، نظر إلى العود الثالث المحترق تمامًا، وهمس بصوت مخنوق: «هذا طفلي الذي لم تَره عيناى».

وفي الشطر الثاني من المأساة كانت تَنزُفُ المدينةُ أساطيرها كجُرحٍ قديم، وما أن تلوح نسرين/جميلة في الأفق حتى تتعالى صرخاتُ الأطفال المذعورة كأجراسٍ تُنذرُ بقُدومِ كائنٍ خُرَافي: «الساطور، الساطور!».

كان يتردد صدى هلعهم في الأزقة المتشابكة، مُرددين أسطورة لا وجود لها سوى في مخيلتهم القلقة، فتواجههم ببريق عينيها وهي تُمرّر أناملها ببطء على خاتمِ زواجها الذهبي، لتستمد منه عزاءً صامتًا وقوةً خفية. اختبأت حقيقتها تحت طبقات متراكمة من التقمُّص والتمثيل، لتتحول إلى ذلك الكائن الهجين الذي يتأرجح بين الهويات المتداخلة. بين أوهام المدينة التي نحتت لها ساطورًا لا تحمله، وخاتمُ زواج حقيقي يرسو على إصبعها كشاهد صادق على حياة مضت، هو الشيء الوحيد الذي يهمس لها في لحظات الوحدة والخواء: "أنها كانت يومًا نسرين، وأنّ نسرين قد تعودُ من تحت ركام الأقنعة يومًا ما".

وفي زحمة تجوالها اليومي بين الماجدية وما يجاورها من مناطق مدينة العمارة، عبرت نسرين جسر الماجدية، ذلك الفاصل

بين عالم الأحياء والموتى الأحياء، حين أربكها سماع صوت
مألوف:

«زغيره چنت ونت زغieron».

وقفت فاعرة الفم أمام الرجل الخارج من تحت الجسر وقد
سيطرت عليها دهشة جعلت قلبها يرقص رقصة "الهجع"، عيناه
تبرقان في وجهه المتغضن ببريق سكّين في ليل حالك. تفجرت
دموعها: «هل نيروز المجنون هو جمالاً حقاً؟ أم علمني الجنون أن
أرى جمالاً في كل مجنون؟»

لأيام، تبعته بظلال خائفة، تراقب طقوسه الغريبة، مندهشة كيف
لجمال، الذي ابتلعه السجن، أن يعود محترق الجناحين أشبه
بطائر انقضى عهده مع الطيران.

تحت الجسر، دخلت خلفه. على ضوء أعواد الثقاب، لمحت
خاتماً من سلك نحاسي قد لف حول بنصره الأيسر بإحكام، ليس
من أجل تزيين يده بل تعذيباً يرسم خطوطاً من الوجد تتقاطع
فتخلق أحلامه كقضبان السجون.

ضحك جمال: «أأخذ مني أحدهم ولف هذا السيم حول
بنصري وقال مخادعاً: سأريه لزوجتك نسرين وأعود لك بخبر
منها». وهي تريه خاتمها الذي احتفظت به طيلة السنين التي مرت.
«هل تعرف من أنا؟» سألته. فهزّ رأسه نفيّاً، محطماً آخر خيط من
رجائها.

قَبَلته، وأزاحت خصلة من شعره المجعد بينما كان يلهج بكلمات غريبة: «قتلوه، باغوه، دفنوه». بحثت في وجهه عن ضحكته وغمازتيه، فلم تعثر فيه على شيء يشفي جروحها سوى مومياء شبح، ظلَّ رجل فقد ملامحه تحت وقع السياط.

فجأة، راح ييكي بمرارة وبدأ يصفعها: «من أنتِ؟ أكيد العريف سباهي... لا، لا! أنتِ التواب أبو علي، ذاك الذي كان يعجلدني كل يوم إحدى وعشرين جلدة». مدّت إصبعها حول شفتيه، مرددة أغنيتهما، كلمة السرّ الأزلية التي كانت بينهما: «زغيره چنت ونت زغیرون». مد إصبعه على شفتيها، عضته برفق، ابتسم. تشابكت أيديهما، وارتمت نسرين على عنقه بذراعين من دخان.

«غادرتنا يا جمال، تاركًا في أحشائي بذرة حياة. طفل لم أمنحه اسمًا، لم تره عيناى، فقد اختطفه مزاحم... أبي وأمي أعدمّا بتوصية منه... وأنا ما زلت أركض هاربة من ظلي، أنظر مستسلمة متى ستخترق رصاصات رفاقه المتوحشة ما تبقى مني». أصابته صاعقة من ذكريات سامة فانتفض جسده. تقيًا كل سنوات عمره المريعة، ثم استلقى بجانبها متقمصًا دور جثة عائدة من الحرب تواء. غطّت نسرين جسده المرتجف بأسمال بالية: «البرد يعضّ يا جمال، البرد يعضّ أرواحنا».

سألته: «هل تحتاج سيجارة تضيء بها ظلام روحك؟»
«أحتاج فقط أن أظل حيًا، لأتنفس هواء قربك». نطقت عيونه.
فجلست عند قدميه، خريطة متعرجة من الألم والقروح والأوساخ

المتراكمة. مرت أصابعها الرقيقة على جراحه تعدّها كمؤرشفة للمعاناة.

في العتمة، تلاقا جسدهما بشغف. نهران عاشا الجفاف دهرًا. انسابت أصابعه على منحنيات جسدها. يعيد اكتشاف خريطة ذكرياتهما المدفونة. نهذاها الناعمان استيقظا بتوتر ساحر، يرتفعان وينخفضان مع تسارع أنفاسها. موجتان تتلاطمان على شاطئ الشوق. رجولته تستيقظ من سباتها العميق. تتأجج نارًا عادت للحياة بعد رماد طويل. يداها ترتعشان وهما تستكشfan عظام جسده البارزة. تتحسس بحنان آثار السنين القاسية على جلده الشاحب. قبالة شغفها كان يرسم بشفتيه قصائدًا عاطفية على عنقها الرخامي. تماوجا في رقصة عاشقة. جسدهما يتحدثان بلغة ألفتها، رغم سنوات الفراق القاسية.

هي تفتح له أبواب روحها. وهو يغوص في أعماق كيائها. سهم يجد هدفه بعد تيه طويل. أنفاسهما تختلط مع همسات الليل. قلباهما يقرعان بإيقاع موحد. لم يفترقا قط في هذه اللحظة الخالدة. ذابت كل الحواجز. تلاشت كل الجراح. اتحدا في ذروة جارفة أطلقت روحيهما نحو النجوم. تموجات النشوة تتدفق عبر أجسادهما. أمواج محيطه تغمر شاطئ روحها.

جسدها يرتعش تحت لمساته الهشة. وهو يجد في حضنها الدافئ وطنًا ضائعًا. عاد إليه بعد غربة مريرة. في تلك اللحظة المقدسة، استعاد اسمها المدفون.

«نسرین». أخيراً، نطق باسمها.

الاسم الذي ظل مدفوناً في أعماق جنونه. خرج مع تنهيدة الانتصار على النسيان. أغمضا عينيهما. رأيا خلف جفونهما كل لحظات العمر. كل الانتظار واللهفة والحنين. مجتمعة في لحظة خالدة. بعد أن تركا على جدران الليل وشماً من عطر الياسمين والعناق المقدس.

مرّت ليلة وأخرى، وعند اللحظة الأولى للضوء وهو يختبر العالم فجراً. جمال يفتح عينيه. جسده النحيل يتمدد بحركة تشبه الاستيقاظ من غيبوبة طويلة. إلى جانبه، نسرین تنفض عنها بقايا النعاس. ذاكرة الليلة الحميمة تُعطر رويهما.

الأغطية البالية تنزاح بيديها. تكشف عن مشهد أخير لفصل مسرحي عفوي. حقيبة جمال المفتوحة تجذب انتباهها. أوراق مبعثرة تفتersh الأرض. أسرار هاربة من الكتمان. أعقاب السجائر وبقايا عيدان الثقاب تنزف من الحقيبة. شواهد صامتة على ليالٍ تآكلت في العزلة.

نحو خدّ جمال مالت شفتاها. قبّلتها، فلامستا برودة الرخام فيهما. وجهه المنحوت بإزميل المعاناة غارق في سبات عميق. بعناية أمّ لا ابن لها سواه، دثّرتة بأغطية أخرى. محاولة يائسة لحماية ما تبقى من دفء روحه. المطر يتساقط بعنف في الخارج. البرد يتسلل من دجلة الذي لا يكفّ عن التدفق.

ومن بين همسات الفجر، انسحبت نسرین فوق الجسر. ظلّ
يخشى نور النهار. في قلبها هموم تتكاثر. وفي عقلها خطة
خلاص تبلور مع أول خيوط الصباح.

على الطريق الموحد كانت تتعثر خطواتها. بيت خالها كَرِيم
شيشه هو الوجهة هذه المرة وبإيقاع الهارب ينبض قلبها، أنفاسها
تتقطع. الألم يشق صدرها وهي تخطو مسرعة محاولةً القبض على
فرصة للطيران بحبيبها جمال بعيداً عن كل هذا الضجيج.

عند باب خالها وصلت، يداها ترتجفان وهي تطرق الباب بإيقاع
متقطع، حولت دقاتها إلى طبول مأساة وشيكة. فتح ذراعيه
واحتضنها، وفي تلك اللحظة، عاد به الزمن إلى تلك الليالي
الطويلة، ليالي السعال المريع، وصوت أنفاس جميلة المتقطعة،
ورائحة الأدوية التي ملأت البيت. بكاءه الآن كان لأخته التي سرقها
المرض منه قطعة، قطعة، سعلة تلو أخرى، حتى لم يفضل منها
سوى ذكرى طيبة وابنة تحمل ملامحها.

«خالي». وهي ما زالت تعيش التكرار في هيئة جميلة همست
بصوت أمّها الذي أتقنت تقليده. «استدع لي الثلاثة».

نصف ساعة مرّت أفضت إلى دخول الثلاثة إلى بيت كَرِيم
شيشه دفعة واحدة، والفجر ما زال نشطاً يتجول في أزقة المدينة.
أبو جوربة بمسبحته الملتفة حول يده الضخمة تساءل عن سرّ هذا
الاستدعاء في وقت غير معتاد. بحذر شديد تفحص وليد الشارع

من خلال الستائر، وفي الخلف وقف سرور صامتاً يراقب الموقف بتركيز.

«ما الأمر الذي لا يحتمل الانتظار حتى الصباح يا نس، يا جميلة». توقف أبو جورية عن إكمال اسم جميلة، مستشعراً خطورة ما سيأتي.

أمامهم تحركت نسرين، في هيئة أمها المعتادة، في نفس الغرفة التي شهدت موتها، تحركت بروح هائمة تعرف أسرار الموتى والأحياء، كاشفة لهم عن حقيقة صدمتهم: «زوجي جمال... هو نيروز المختل. هذا ما اكتشفته حديثاً!!!»

كشطايا زجاج جرحت توقعاتهم عن سبب دعوتهم بهذا الشكل تجولت الكلمات في فضاء الغرفة. مثل ينابيع مكتومة انفجرت الدهشة في أعينهم، وسقط الصمت حجراً ثقيلاً على قلوبهم. تبادل وليد مع سرور نظرة طويلة محملة بثقل الإدراك المتأخر، فتشاركا لوعة اكتشاف مؤلم.

استنشق وليد نفساً عميقاً، كما يفعل حين تهاجمه ذكريات الألم، والحزن هذا الوحش المهول كان يعصر حلقه فيخرج صوته مبوحاً: «رأيناه». أما سرور فردد بنبرة محطمة، كمن يؤكد حقيقة مرّة: «نعم... رأيناه».

مثل جرح مفتوح بدأ وليد ينزف الكلمات: «رأيناه يتمايل بين الظل والنور في مقهى البؤساء في سوق النجارين... جسد هزيل يحمل روحاً أثقلتها الذكريات حتى تهشمت». للحظة صمت،

جامعًا شظايا الذاكرة من أرض الحاضر القاسي: «دعونا للجلوس بيننا، قدمنا له فطورًا محترمًا».

هنا تدخل سرور: «كان يأكل مثل طفل نسيته أمّه في محطة قطار، كان يتضور من الجوع، خوفًا من سحب اللقمة من بين أصابعه في أي لحظة».

«وفجأة».

والدمع يترقق في عينيه استرسل وليد: «انفتحت بوابة في جدار جنونه بعد أن سألته من تعني بسيدة الضباب، نظر إليّ بعينين تحملان بقايا ضوء، وبصوت تردد صدهاء في أرجاء المقهى، قال: كانت تلميذتي في المسرح، كنا سنقدم معًا مسرحية سيدة الضباب».

مختنقًا بدموعه توقف وليد. ثم أكمل بصوت متكسر: «قال وهو يلتهم الطعام بشره: إلّا أن رجالاً هبطوا من الفضاء بزّي زيتوني واختطفوني قبل الافتتاح بأسبوع إلى حديقة ضيقة... ضيقة جدًا... ظنًا منهم أنني دب قد هرب من قفصه ويجب عودته إليه، كانت تهمني: تناول سافر على السلطة».

«آآآآآه. لو رأيته عينيه في تلك اللحظة يا نسرين». باكيًا صرخ سرور وقد تكسر صوته: «عينان تحملان أطلال وطن مدمر، حلمًا مُحطّمًا، أمانًا مصادرًا، وحياةً كان يمكن لها أن تكون حقيقة».

بمرارة أضاف وليد: «تركناه خوفاً من ألسنة الوشاة، وغادرنا المكان، وبقينا نراقبه من بعيد قرب دكان أحد النجارين الصابئة... كان قد انطفأ الوعي في عينيه، وعاد الخوف يزحف متفصاً، ثم هرب وهو يصرخ كأن الشياطين تطارده: أنا نيروز، أنا لا أعرف جمال... جمال بعينكم!!!»

صامتاً سال دمع على خد نسرين وهي تهمس: «سيدة الضباب، كانت مسرحية عن امرأة تنتظر عودة حبيبها من الحرب، انتظرت، فلم يعد، حتى تحولت إلى ضباب يلف المدينة كل فجر». «الجنون نعمة أحياناً». بصوت كالبكاء همس وليد.

صمت الثلاثة، وطاف حولهم ظلُّ جمال يتراقص على جدران أحلامهم المذبوحة، وفي الهواء تعلقت كلماته: «يا سيدة الضباب، عديني أن نغرق معاً بين النجوم».

وعدّ لم يكتمل، ومسرّحٌ أغلقت ستائره قبل أن تُرفع. في خبايا عينيها حدق وليد قائلاً: «يا سيدة الضباب، أرى في أفق عينيك كلاماً أعظم وأكبر».

بصوت خفيض حازم أشبه بمن تطلب جناحين للطيران من قفص الوطن أجابت: «أريد جوازين، لي ولجمال. ملاذنا القادم باريس».

لمرتين كررت أنها تجيد الفرنسية بطلاقة، فقد عاشت فيها من قبل مع والديها سنيناً، مؤكدة لنفسها ولهم: باريس قد تكون الملاذ الأخير لقصة حب تأبى أن تموت.

نظرات قلقة تبادلها الثلاثة. هذا ليس طلباً عادياً، تزوير جوازات سفر في هذا الوقت الحرج - العراق والكويت على شفا جرف هار من الحرب - وفي ظل هذه الرقابة المشددة. أنت تطلبين المستحيل!

«الوضع خطير». أخيراً قال سرور، كان صوته يحمل نبرة قلق حقيقية. «السلطات في حالة تأهب».

كريم شيشه، الوحيد الذي لم يكن جزءاً من هذا النقاش، جلس يراقب المشهد، يرى في الواقفة أمامه شبح أخته، غير مدرك أن القلق الحقيقي للثلاثة هو من خطورة ما تطلبه نسرين.

«الأمر يحتاج ترتيبات». هكذا بدأ سرور. «وتأمين طريق آمن». أضاف وليد. «ووقت للتزوير المتقن». أكمل أبو جورية. ومن عينيها تفجرت نظرة حاسمة وهي تُقبل يد خالها. «الوقت يداهمنا». ثم أردفت بصوت خفيض: «والحرية لا تنتظر».

وإلى مخبأ جمال تحت الجسر عادت نسرين. المطر قد غسل كل شيء، الشوارع، الذكريات، وآخر بقايا الأمل. هناك وجدته، نائماً على ضفاف الحلم، جسده المتيبس يحكي قصة وفاء رجل ليس كباقي الرجال.

مُلقي وسط مسكنه الكارتوني كان جمال أشبه بعصفور سقط للأرض من عشه في أعلى شجرة. استدارة وجهه التي حفظتها عن ظهر قلب ما زالت ترتسم مثل قمر خجول. أمام هذا المشهد الذي

تناسل في حياتها مرارًا وقفت متجمدة كمن داس على لغم أرضي.
تراجعت قليلاً، والشك يتسلل إليها: أهذا كابوس آخر أم حقيقة
مرة؟

«جمال». بصوت يرتجف مع قطرات المطر نضحت كلماتها.
«جمال!» صرخت هذه المرة، فعاد الصدى محملاً بأصوات
من ماتوا من أحببتها وهم يقولون: «لا تقلقي... هو الآن، معنا».
للتو كان جمال قد رحل إلى مسرحه الأخير، حيثُ يستطيع
أخيراً أن يكون نفسه، لا نيروز المجنون، ولا جمال المطارد ولا
هاملت العراقي. هناك، حيثُ لا صوت للمحققين، ولا رائحة
للزنازين، حيثُ تظل أعواد الثقاب مشتعلة تضيء ما حوله.
مدّت يدها المرتعشة تلمس وجهه الشاحب، دمعة دافئة سقطت
كآخر نبضة حياة. في قبضة يده المتشنجة، وجدت منديلاً قديماً.
انتزعته، فاجتاحها موجة ذكريات مؤلمة: منديلها الذي كان معه يوم
اعتقاله. حيرة مميتة: كيف صمد هذا المنديل رغم التعذيب
والسجن وسنوات القهر؟

المنديل يرتعش بين أصابعها، يحكي صمته قصة وفاء لم
تكسرهما السنون. دموع جافة تبلله، وذكريات تتدفق من نسيجه
الهبش. كيف لقطعة قماش أن تتحدى جحيم السجون؟ كان المنديل
بالنسبة لجمال خيطاً رفيعاً يربطه بالحياة، بذكراها. نظرت إليه
وأقسمت بصمت: سيكون تعويذتها ضد النسيان، صلاتها الصامتة،

قطعة من روح جمال. ستحتفظ به كما هو، شاهداً على حب صمد أمام أفسى الامتحانات.

أخذت مكانها بجانبه، تحسست جيوبه فوجدت علبة ثقب قديمة. أشعلت عوداً، وفي الضوء الخافت، رأت ابتسامة مشرقة على شفثه، ابتسامة من وجد أخيراً سلامه المفقود. همست وهي تضم رأسه إلى صدرها: «كنت ستأخذني إلى باريس، إلا أنك أخلفت بوعدك فاخترت رحلة أبعد، رحلة إلى حيث لا سجان ولا قيود». نظرت إليه بدهشة عاشقة، تأملت تفاصيل وجهه عرفته في كل حالاته. انطلقت صرخة ظننتها العصفير إعلاناً للحياة، وفي الحقيقة هي صرخة تمثلت نعيًا لموت جديد - موتها الذي أتى بطيئاً مختلفاً. «جمال، استيقظ، لا يليق بك الموت».

فجأة، وبنيح متواصل حتى بان لسان المزمار، راحت تبكي: «مالي والجثث؟ هل كُتب علي أن أكون دفناً مرغماً على مواراة أحبه بيدين عاريتين؟»

تحت الجسر، وفي غبش بارد، ضربات يديها تنبض بإيقاع قلبها المكسور راحت تحفر في الأرض الرطبة بعمق يكفي لإخفاء جثة حبيب آخر عن عيون السلطة وكلابها.

برفق سحبت جسده نحو الحفرة. كانت حركاتها كحركات أم تضع طفلها في مهده بعد ليلة طويلة من الرضاعة. وقبل إيداعه فراشه الأخير، طبعت على غمازتيه قُبلة خفيفة أحدثت صوتاً بترنيمة فاخنة، خشية إيقاظه من سلامه الهش. ومن فوق رأسها

مرت زرة عصافير مخترقة فضاء ما تحت الجسر وهي تغني: «چي ما لي والي، بويه اسم الله». كانت تغرد طيلة انشغال نسرين بحفر قبر لجمال، تأملتها وهي تتعد في السماء قائلة: «تذكرنا بالسفر والهروب فتنبش مكامن القلق فينا».

قبل إخفاء جثة جمال بين الماء والطين وهي تتأمل وجهه الشاحب صامتًا دون روح، فكرت نسرين، فسرت في أذن وجعها: «سيذهبون بجثته للطب العدلي سيكتشفون أثر شفتاي على شفثيه. أرجوك جمال! تحلى بالصمت يا حبيبي لا تستسلم لهم، ترفع بصمتك كما هي عادتك». مقتنياته راحت تجمعها بارتباك، تستحبه للخروج من لحدده ومرافقتها إلى عالم النور: «جمال، استيقظ يا حبيبي، لنهرب قبل مدهامة قطط المدينة السوداء لنا... باريس تنتظر!!!» في أذن قبره باحت وجدها، سمعته يهذي من تحت القبر: «نسرين، نسرين، الظلام يأكلني. أشعلي عود ثقاب».

من تحت الجسر خرجت نسرين عقب إتمامها مراسم دفن جمال، متجهة نحو بيت خالها كريم شيشه. متكئة على يديها نهضت والتعب قد أكل من جرف قوتها فخانها جسدها وسقطت، تمسكت بآخر حلم ما زالت تعيش تفاصيلها حتى وقفت من جديد وهي تترنح مثل سكران فقد اتجاهه، تتمنع في مشيتها كخروف سيق إلى سكين القصاب. حتى تلاشت عن أنظار نفسها والعالم فمشت هكذا، مرددة: «كل يوم لي حياة وموت!»

(١٤)

"العمارة/ كانون الثاني، ١٩٩٠"

حول طاولة خشبية متآكلة خلف بار أبي جورية، في مأوى أم راضي تحلقت الوجوه الشاحبة: نسرین غارقة في الفراغ، سرور متوجس، وليد صامت بحذر، وأبو جورية بقلق متوارث. وفي حيز كئيب، انكمش كُرَيْم شيشه، طائرًا مبعثر الريش.

فضَّ همس سرور تأملات الحضور: «مزاحم نجا وأصبح المسؤول التنفيذي الأعلى لمطار بغداد، مما جعله شبكة عيون ومشاجب أسلحة، والنفاذ منها مستحيل». الكلمات تسللت خناجر صغيرة لقلب نسرین، وارتسمت الدموع على خديها.

ملف أصفر بين يدي سرور كشف خطّة الهروب الأخيرة: طريق ملتوي نحو الحدود الكويتية، حيثُ تنتظر الشّيخة صالحة - شخصية جديدة ظهرت فجأة في مسار هروب نسرین الدائم، وظيفتها الأساس المحافظة على نسرین والهرب بها إلى فضاءات الحرية.

بارقة أمل خافتة لاحت في عيني نسرین، سرعان ما انطفأت حين رأت خالها الغارق في عزلته، بنفس حزنه يوم غادرت أمّها جميلة عالم الأحياء. قالت له: «نحن أحياء على الدرجة ذاتها من الموت والدهشة يا خال!» زحفت نحوه واستندت إلى كتفه، وبصمتٍ محرّضٍ للجدران على العويل راحت تبكي. خطَّ كُرَيْم

اسم أخته "جميلة" على الأرض، كاتبًا آخر سطر في قصة عائلة مزقتها الأيام.

كسرت العجوز أم راضي ضباب الكآبة بدخولها، وكأنها نسمة ربيعية جلبت معها عبق الأمل. في يدها قلادة ترسبت عليها أحلام العصور، مضيئة بأسرار الماضي. برفق، وضعتها حول عنق نسرين، وابتسمت ابتسامة دافئة، قائلة: «ستحفظك هذه من كل سوء»، وكأن كلماتها تلامس روح الفتاة بشيء من السحر.

احتضنت أم راضي نسرين بحب، متممة أدعية الحفظ: «سور سليمان، سور سليمان». كانت الكلمات تتراقص في الهواء بين الهمس والصراخ، تحمل معها تعويذة الحياة. شعرت نسرين بفيض من الامتنان، فتمكنت من جمع شجاعتها وعمدت إلى يد أم راضي، تقبلها برقة وعرفان بحجم العطاء الذي منحته لها.

انسحبت العجوز ببطء، كمن يتراجع نحو عالمه، تاركة بصمة من الأمل والحنان في نفس نسرين. تلاشت خطواتها خلف الباب الموارب، تاركة وراءها سحابة من العواطف المتناثرة، وذاكرات حمدان المرتبطة بكلمات الحفظ التي لم تفارق الأجواء.

بكلمات مطمئنة، قطع وليد جسر الصمت، متحدًا عن اتصالاته وقدرته على فتح الأبواب. في زاوية المطبخ، تأمل كريم شيشه ابنة أخته، وبظاهر سبابتها كففت دموعه. استدارت نحو الثلاثة تسأل عن كيفية الوصول للكويت. سحب وليد نفسًا من نارجيلته، ورفع الملف الأصفر: «كل شيء جاهز». أضاف أبو جورية: «(من

العمارة إلى البصرة، ومن البصرة للكويت، ومن مطار الكويت لباريس. المهم: مغادرتك العراق قبل أن يستدل أحدهم على جثة جمال المدفونة تحت الجسر ويُكشف كل شيء».

غرق كَرِيم في عوالمه الشاردة، يردد اسم أخته جميلة الكحّاحة، ورأى في وجه نسرين شبح أمّها. «الوقت عامل مهم»، قطع أبو جورية دائرة القلق بحدّة. تبادل الثلاثة نظرات متفاهمة وحثّوا الخال على توديع نسرين، فمعها فرصة نجاة. ارتمت نسرين في حضن خالها، فالتحم الجسدان بعناق ألهب الغرفة حزناً.

من أعماق ذاكرة مشتركة، انفجرت شهقتها، فتدفق البكاء نهراً جارفاً حطّم سدود الصلابة في وجوه الرجال الثلاثة. اتسعت محاجر أعينهم بالدموع. ارتفع النحيب عبر جدران المطبخ، تسرّب عبر الباب، وامتد إلى القاعة الرئيسية للبار. توقف الزبائن عن الكلام، أنصتوا، ثم انسحبوا في صمت مهيب، كأنهم شهود على طقس مقدس لا يُسمح للغرباء بحضوره.

توقفت نسرين / جميلة أمام جدار مدرسة مكّة الابتدائية في الماجديّة. انتشلت قلم كحلها، وخطّت على الجدار: «المدينة لا تموت. تتغير فقط. مثل قلوبنا». فيما كانت الحروف تحفر في الأسمنت البارد ما اختنق في حنجرتها. تركت نقوشاً تشبه سكك روحها المتشظية. التفتت نحو الطريق البعيد، وواصلت نثر خطواتها على الإسفلت وهي تتحدث بلغة الوداع.

الفصل الرابع

”ربما كل تيه في الحياة هو استدارة نحو الوطن”

”كاتب مجهول”

انطلقت السيارة تلتهم الطريق باتجاه البصرة. وفي المقعد الخلفي جلست نسرين بجانب الشيخة صالحة، دليل الخلاص وعضو شبكة تهريب المعارضين. السائق يجتهد في التركيز، متخذًا من الخطوط البيضاء المتلاشية - التي بالكاد تُرى - مسارًا يقوده نحو وجهته السرية. خطّان جانبيان وآخر في المنتصف، كلها باهتة، لكنها الدليل الوحيد في هذا الطريق الملبد بالمفاجآت.

مع كل دورة للعجلات، تتلاشى مدينة العمارة خلفهم مُثقلة بذكرياتها. نسرين صامتة تراقب الطريق - خطأ وهميًا بين الموت والولادة. كل متر يقطعه السائق يبعدها أكثر عن طفولتها، عن مدرستها، عن الماجدية فينسلخ شيء من روحها مع كل ضغطة بنزين.

مرّ طيف رعب شاكس طمأنيتها: ما الذي سيصل منها في تلك الحال؟ لمسة حانية من الشيخة أيقظت طيف الحرية في عيونها. نظرت من النافذة الخلفية: العمارة بدت نقطة صغيرة تتضاءل، ثم اختفت نهائيًا.

راحت الشيخة تُلقّن نسرين أبجديات النجاة بهمسات متقطعة، بعينها الثابتين وحركاتها الدقيقة. امرأة على هيئة مارد تعبر بها من ضفة الموت إلى شاطئ الأمل، مدججةً بخبرة إنقاذِ مئات الهاربين، مُتقنةً الرقص على مسرح التهريب بساق واحدة.

أصابعها المجددة تضبط مقود الحياة لنسرين، زارعةً فيها يقيناً
أن المسافة بين الهلاك والخلاص يرسمها فن التخفي وشجاعة
المغامرة. الطريق يتلوى ثعباناً أسود، ونقاط التفتيش فخاخ تنتظر
الغرباء. السيارة رحم يُصاغ فيه مصير جديد، والرحلة عبور في
الزمن.

فجأة صرّت إطارات التكسي، وتوقفت أمام نقطة تفتيش غير
متوقعة. السائق همس: «أحدهم وشى بنا». ارتعدت أوصال
نسرين، انحبس صوتها، وهاجت دقات قلبها حتى غمر الفتور
عظامها. الشيخة صالحة احتفظت بهدوئها، مسحت التوتر ورسمت
ابتسامة واثقة. راقبت نسرين أفراد النقطة يتحركون وسط الضباب،
شعرت بالأرض تدور تحت قدميها. صوت الشيخة جاء حازماً: «يا
بنت، تذكرى، نحن آمنون معاً. الله يحمينا».

دخلت الشيخة بمهارة ممثلة: «ابنتي تعاني من حمى شديدة،
كانت ترقد في مستشفى صدام العام». أمسكت التقرير المزور،
ورسمت قلقاً مصطنعاً. الجندي فحص التقرير، وعينا نسرين
تدوران وهي تراقب الظلال، وتترأى لها مشاهد طفولتها ووجوه
أحبائها.

حين أبعد الجندي رأسه، أشعلت الشيخة المكان بروايتها، وبثت
عطفاً في نظراتهم. «اسمحوا لهما بالمرور قبل فوات الوقت...
الفتاة مرهقة، يجب خروجهم سريعاً». قال الضابط، فانطلقت
السيارة، وقد خلفت غباراً يمحو آثار حكاية كتبت بخط مأساوي.

نشوة النصر تسللت لروح نسرين، لتطلق نوافذها زغاريد الحرية، واكتشفت متأخرة كدروس جديدة أن سائق التكسي من رجال حمايتها.

واصلت السيارة رحلتها نحو البصرة، وأنين محركها يشكو المسافات. السائق شدّد قبضتيه على المقود، ولحاذ عينيه تراقب المرايا الجانبية بتلصص عجيب، فكل كيلومتر محفوف بالخطر. في حين انكمشت نسرين في المقعد الخلفي، يداها مطويتان، تحديق في النوافذ المُغبرة، والقلق ينبض في صدرها مثل نقّار الخشب.

أما الشبيخة صالحة فقد جلست منتصبة، ومسبحتها تدور بين أصابعها بإيقاع ثابت، كتساقط قطرات من حنفية تالفة في سجن قصي تحت الأرض: طق... طق... طق - إيقاع مختلف تمامًا عن الفوضى التي تعصف بقلب نسرين. عيناها تحسب كل احتمال، فعند كل كيلومتر يقتربونه، وفي كل حركة من حركات المسبحة تقرأ: لا حول ولا قوة إلا بالله. كأنها تحول صوت الحنفية التالفة في السجن البعيد إلى دعاء، إلى نسغ روحي يسري في الهواء بين المقعدين.

تعثرت مسيرتهم بموكب جنازة عسكرية مهيب، ضابط كبير سقط باغتيال المقاومة في القرنة. أقفلت الطرق لساعات، فاضطرت الشبيخة للتوقف في خان مهجور. بدا الخان كقلعة متهاكة، جدرانها تحكي حكايات العابرين. دخلتا إحدى غرفه المهجورة.

وقفت نسرین عند النافذة، تمسك بمصراعها المتآكلين، عيناها تتابع الدخان المتصاعد من طقوس التشيع في ساحة المدينة، بينما تتسرب إلى أذنيها أهازيج البعثيين التعبوية المدوية عبر مكبرات الصوت.

جلست الشيخة على حصيرة بالية، مسبحتها تدور بين أصابعها، شفتاها تتمم بدعوات خافتة تختلط مع ضجيج الخارج. رفعت بصرها نحو نسرین: «سنبقى هنا حتى تنتهي مسرحية التشيع هذه».

أخرجت "نستله" وعصير برتقال لنسرین. «الطرقات بعد القرنة مليئة بالكمائث، وعلينا انتظار توجيهات فريقنا». إلا أن نسرین أشارت بيد مرتعشة: «أخشى أن يكونوا قد تتبعوا أثرنا. ألم تلاحظي تلك السيّارة السوداء التي مرت بنا لثلاث مرّات؟» ابتسمت الشيخة ابتسامة غامضة، أخرجت مسدسًا صغيرًا: «لكل قدر تدبير يا ابنتي. نحن نساء شرسات لا نخضع لمصير يختاره غيرنا».

ولمّا حلّ الليل، تسلّلت أصوات غريبة. ارتجفت نسرین. انتصبت الشيخة شجرة سنديان. دسّ السائق رأسه في فضاء الغرفة محذرًا: «جنود يفتشون المكان، يبحثون عن مطلوبين». تبادلّت الشيخة ونسرین نظرات صامتة، ثم أشارت الشيخة إلى فتحة سرية في أرضية الغرفة: «انزلي هنا. سرداب قديم يكفي لشخصين مُوصل بمصدر هواء». «وماذا عنكِ؟» تساءلت نسرین. قبّلت

الشيخة جبينها: «سأموه عنك. امرأة عجوز مثلي لا تثير الشبهات. كل شيء مُعدّ له بدقة». بدموع صامتة، انزلت نسرین إلى الظلام. سمعت الشيخة أصوات الجنود تقترب من الممر الخارجي. سارعت إلى إطفاء الشمعة الوحيدة في الغرفة وارتدت عباؤها السوداء كاملة، ثم استلقت على الحصيرة مُظاهرة بالنوم العميق. دخل الجنود بقوة، أضاءوا مصابيحهم على وجهها. هزّها الضابط بقدمه بخشونة: «قومي! تفتيش أمني».

تظاهرت بالاستيقاظ مذعورة ومرتبكة، بدأت ترتجف وتتمتم بصوت ضعيف: «لا إله إلا الله... محمد رسول الله... اللهم استرني».

نظر الضابط إلى رفاقه وهمس: «امرأة عجوز، تبدو مُختلة مثل المرأة التي في الخارج... انظروا كيف تتمم». حدّقت الشيخة فيهم بعيون فارغة، وتحدثت بصوت متقطع: «أين... أين أولادي؟ متى سيعودون من الجبهة؟ قالوا لي انتظري هنا... انتظري».

في تلك اللحظة انفجرت ضوضاء جهاز اللاسلكي في يد أحدهم: «الوحدة سبعة... الوحدة سبعة... استدعاء عاجل. اشتباك مسلح في "العزيز". تحركوا فوراً». ردّ الضابط: «نعم سيدي... نحن في الطريق إلى العزيز».

التفت إلى الشيخة التي كانت لا تزال تتمتم وتهز رأسها، ثم قال لجنوده: «ابتلينا بالمخايل». انسحبوا مسرعين تاركين وراءهم المكان في صمت تام.

بعد دقائق، دخل السائق من جديد، وجهه يشع بالارتياح: «اخرجوا... الدار أمان الآن».

خرجت نسرين من السرداب وهي ترتجف، غبار الخفاء يلتصق بثوبها. ربت الشيخة على كتفها: «انتهت المحنة يا ابنتي. سنغادر عند الفجر».

لكن فرحتهما لم تدم طويلاً.

في الركن المعتم، حيث تتجمع الأشياء التي لا نريد أن نراها، برزت امرأة شعشاء. لا، لم تبرز. كانت هناك دائماً، تنتظر أن يكون هناك ضوء كافٍ لثرى. تلك المجنونة التي ذكرها الضابط قبل قليل. حطام إنسان تماماً كما قال.

لكن حين اقتربت نسرين، شعرت بأن الظلام يتراجع ببطء. الشعر الأشعث انزلق من الوجه وحده، كالستار يُفتح عن تمثال قديم. فكانت السيدة سعاد.

مُدرستها - صوت يقرأ الشعر بحنان - يداها ترتب الكتب على الرفوف. ضحكاتها تملأ الفصل - كانت زميلة والدتها خديجة في مدرسة سيناء للبنات، حين كان كل شيء عفويًا.

الجنون لم يأتِ دفعة واحدة. جاء كقطرات ماء على الحجر - كل قطرة حفرة صغيرة حتى أصبحت بئراً. الجنون المشوه لوجود

المرأة - جاء به زوجها الضابط الكبير ساعة أن طلقها وتزوج بميمي طربگه، الراقصة التي أضاءت الليل بجسدها أمام أنظار السكارى الماجنين بينما سعاد تذوي متلاشية في خان عتيق. الآن وقفت سعاد في الركن، وعينا نسرين تعكسان بعضهما البعض كمرآتين ملتصقتين. كأن نسرين تنظر إلى صورتها التي لم تولد بعد.

من بعيد، تمتت الشيخة صالحة بأن كل امرأة تحمل امرأة أخرى في جيبها، لكن سعاد لم تسمع. صرخت بعينين تتسعان بذهول، تشير إلى نسرين باسم أمها: خديجة! إنها خديجة! وسألت بهستيريا مكتومة هل ما زال الأمن يحتفظ بجثة خديجة - خديجة المناضلة الشيوعية!

اقتربت بخطوات متعثرة، يدها المتسخة تمتد نحو وجه نسرين، وهذيانها يلف المكان بحكايات المدرسة والخيانة وميمي طربگه. ارتعدت نسرين من موقف لم يخطر على بال أحد، خاصة حين اندلعت الضحكات الهستيرية من سعاد، التي توعدت بإخبار الضابط عن وجود خديجة، آملة في استعادة زوجها. حياة خديجة مقابل استعادة زوجي! همست بجنون.

لكن الشيخة تحركت بخفة. دسّت في يد المجنونة بعض النقود، وردّدت بصوت حنون تبشرها: سيعود زوجك، فقد طلق الراقصة ميمي طربگه.

توهجت عينا سعاد بفرح كاذب. احتضنت النقود وراحت
ترقص وتتمايل، تسأل بصوت مختنق: صدك؟ طلّغها؟ راح يرجع
لي؟

ثم سحبت الشيخة نسرین باتجاه التکسي بسرعة، تشير للسائق
بالتحرك. وراءهما، صراخ سعاد يتسلق الجدران الآيلة للفناء،
يزحف خلفهما كشيء حي، كلعنة بحبل سري.

في ليلتهما الأخيرة قبل الوصول للفروانية، استقرتا في فندق
البصرة، بأوراق مزورة تثبت قدوم الشيخة وابنتها للعلاج. داهمت
قوة أمنية الفندق بحثاً عن شبكة تزوير. خفق قلب نسرین رعباً،
والضابط يدقق في الأوراق. سأل عن سبب اختيار البصرة بدلاً من
بغداد. الشيخة بثقة، أخرجت ملفاً طبيّاً مزوراً ببراعة، وشرحت
تفوق أطباء البصرة على أطباء العمارة. عيون الضابط المتشككة
أصرت على الاقتراب من نسرین.

اضطرت نسرین للتظاهر بالمرض، ارتجف جسدها، والحمى
تصاعدت. فجأة انفتح باب الغرفة، ودخل مدير الفندق، متعرفاً على
الشيخة كزبونة معروفة. أكد المدير ثقته، وغادر الضابط. تنفست
نسرین الصعداء، وابتسمت الشيخة ابتسامة النصر. حين لاحظت
الشيخة دهشة نسرین، قالت بحسم: «قبل مغادرتك الكويت وأنتِ
تتجهين إلى الطائرة سأبرد غليل أسئلتك». تيقنت نسرین أن الطريق
لم يزل طويلاً، والفروانية وجهة عابرة.

بعد ليلة متوترة، اتجهت نسرين والشيخة فجراً إلى ميناء صغير في الفاو، حيث شبكة سرية معقدة. تبين أن الشيخة صالحة عضو فعال في منظمة دولية. في تمام الثالثة فجراً، استقلت نسرين والشيخة قارب صيد كويتي منهك، بقيادة رجل صامت. حين غطتها الشيخة بشباك الصيد، اختبرت نسرين ولادة ثانية. كانت تتنفس ببطء، وتسمع دقات قلبها تتناغم مع هدير الموج. لم تدرك متى ينتهي جسدها ومتى تبدأ خيوط الشباك، فقد تشابكا في تماء غريب. خلال تلك الساعات الثلاث، بدأت تفهم لغة البحر.

عند نقطة محددة في المياه الكويتية، تبادل القارب إشارات ضوئية مع مجموعة من أعضاء المنظمة، وتم نقل نسرين بهدوء. وصلت أخيراً إلى ميناء صغير في الكويت مع شروق الشمس، حيث كانت سيارة في انتظارها لنقلها إلى الفروانية، مقر المنظمة السري، حيث بيت الشيخة صالحة. لم تتخيل نسرين حجم الشبكة التي أنقذتها. في الفروانية، بدأت تكتشف خيوطاً تمتد من بار أبي جورية حتى قوارب الخليج.

وعند عتبة قصر الشيخة، انفتحت أبوابه المتلاثلة. دخلتا سوية: «نسرين، أنت في أمان الآن». «هذا المكان، ملاذ لأرواح كافحت، فكل واحد هنا يحمل قصة، وقصتك ستضاف للحكايات المروية ما دام في الأفق شبح طاغية يترصد أنفاس الحرية». قالت الشيخة. تنبعت نسرين لحقيقة الشبكة، فانفض القلق يمور في صدرها: «إلى أين سنذهب؟ ولماذا أنا بالذات؟»

في غرفة قصيّة، اجتمع أهل الشبكة، وانسابت توجيهاتهم في أذن نسرين، أيقنت أنها جزء من كيان أكبر منها. وعند المساء، راجعت نسرين أوراقها المزورة، تأملت صورتها في الجواز الفرنسي، وتساءلت عن مصيرها في باريس. أنوار الماضي التعس بدأت تتلاشى، والحلم الجديد ينتظر. طيف جمال ما زال يسكن أحلامها.

مرت الأيام في الفروانية والكويت العاصمة، كانت فيها نسرين تتقمص شخصية صوفي الفرنسية من خلال تدريبات احترافية لشهر كامل. باريس لم تكن غريبة عليها، ففي طفولتها، كانت تتردد المدينة في روحها لحناً قديماً. الفرنسية تجري في دمها نهرًا سريعًا. في آخر ليلة، قصّت شعرها الطويل بيد مرتجفة ودموع محبوسة. ومع كل خصلة، تسقط ذكرى. بكت على كتف الشيخة بكاء الطفل والحكيم، وقالت: «أشُم فيك شيئًا من أمومة خديجة». حكمة الشيخة انسابت بصوت حنون: «لن نتخلى عنك أبدًا، ستكونين تحت أعيننا حيثما ذهبت، سنرعاك من بعيد، نسندك وقت الضعف، نوجهك في المنعطفات الصعبة، لن تكوني وحدك أبدًا». بدأت الشيخة تكشف لها خيوط المسرحية المحكمة كما وعدتها: «كما وعدتك: أغلب من مرّوا بطريق هروبك من الماجدية حتى اللحظة هم قوارب نجاة وجدت خصيصًا لنقلك إلى الضفة الأخرى». تنهدت نسرين، ثم صُدمت حين نادتها الشيخة: «إلى اللقاء وبالتوفيق... يا ساره». اسم ساره أحدث شرخًا عميقًا في

ذاكرتها، فاستيقظت ذكريات والدها البيولوجي موشيه داوود. تبادلنا
ابتسامة شفافة، واحتضنتنا بعضهما، فنسجتا فستان عرس جديد من
خيوط الحب والأمل.

(١٦)

مطار الكويت

السابع من نيسان / ١٩٩٠

عبرت نسرين خطواتها الأولى عتبة المطار نحو أمتار مجهولة تفصل بين حياتين. الجواز الفرنسي في كفّها ليس وثيقة، إنما موت معلّب. لا تستطيع تسمية ما يحدث: الهروب ليس اختيارًا، غير أنه إجبار على فناء النفس لتعيش. يُولد الإنسان من خلال ما يفقده، من خلال النقص الذي يشكّل ذاته الحقيقية.

رحم المطار يحتضن ميلادًا مؤجلًا. لكن الميلاد يؤلم. القلق نبض مستقل يتجاهل تعقلها، يسكن جسدها قبل أن يصل الوعي. ليس خوفًا من شيء محدد، إنما تهديد أعمق: تهديد الذات بأن تصبح شيئًا آخر لا تعرفه.

واثقة ومرتبعة معًا. نقيضان يسكنان صدرًا واحدًا، متصارعان بدون حل. لا تصبح المرأة إلا بموت من كانت. لحظة واحدة تشهد غياب نسرين وظهور صوفي. إنه موت بلا قبر، وميلاد بلا شهود.

فجأةً، وفي صالة الانتظار العامة طاردها صوت زميلها في الأكاديمية معاذ الدليمي الذي انبثق كشبح من رحم الذاكرة.

«أستاذة نسرين!»

لفظ كلماته بحروف صنعتها لعنة الماضي، فراحت تنبش في جسدها بطعنات خنجر. توقف الزمن، فتجمدت الأنفاس صامته داخل لوحة معلقة بين الوجود والعدم.

استدارت ببطء. عيناها، عينا صوفي دوبوا، تتفحصان معاذ ببرود مصطنع تحت قناع اشتعلت أمامه براكين من المشاعر المتناقضة. كانت تحمل في جسدها قارة كاملة من الألم، وقارة أخرى من الانتقام.

لمحت في عينيه ندمًا خافتًا، آيلًا إلى شمعة تحتضر. كلمة «خونة» التي رماها ذات يوم في حفل تخرج دفعتها من الأكاديمية كانت قذيفة مزقت ستائر عالمها، وها هي الآن تعيد خياطة الجراح بخيوط من صمت وغربة.

«نعم؟»

قاتلها بالفرنسية، صوتها يحمل ثقل مدينة من التتكر. كانت صوفي دوبوا، وكانت نسرين في آن واحد. امرأة تولد من رماد ذكرياتها، تعبر الحدود كما تعبر الأرواح المنفية حدود الوطن. «آسف. ظننتك شخصًا آخر».

تعثرت الكلمات على شفثيه. حدّقت فيه موبخةً بابتسامة باردة، وهزّت رأسها نفياً بحركة متقنة، مستعينة بسنوات من الخبرة في فن تجاوز المواقف الصعبة. أنكرت الماضي بمهارة ممثلة محترفة، معتبرة إياه "سالوفة" غريبة تخص شخصًا آخر، شخصًا لم تعد تعرفه.

مضت تذرُع طريقها بشراع سفينة تحاول الإبحار في بحر من قلق. خطواتها الموزونة كانت كذبة متقنة تخفي عاصفة من الهلع. كل مفصل في جسدها يحمل حكاية هروب، وكل نبضة في قلبها تروي مأساة امرأة تريد دفن نفسها حيّة هرباً من قلق كاد أن يفتك بها.

عند مكتب تدقيق الجوازات، كان الموظف يتصفح جواز سفرها بتمعن مريب، مجتهداً لقراءة أسرار كتبت بحبر سري: «سيدة دوبوا، ما سبب زيارتك للكويت؟» «كنتُ في مهمة صحفية». أجابت بثقة مدروسة، مستعينة بالأوراق المزورة التي أعدها فريق الشيخة صالحة بإتقان. «صحفية؟»

رفع حاجبيه بشك. «لم نر تغطيتك في الصحف المحلية. القبس مثلاً؟».

«أعمل لصالح مجلة صغيرة في باريس. مقالاتي عن بحارة الخليج وطقوس رحلاتهم».

صرخ قلبها، بيد أن شفيتها احتفظتا بصمت جليدي. اقتحم الضابط القاعة، فركد الهواء وتحولت الوجوه المحيطة إلى تماثيل فارغة نحتتها يد الخذلان، تراقبها بعيون اخترقت روحها.

«هل هناك مشكلة؟» سؤاله حوّل الأنفاس إلى بخار متكاثف، خنق قلب نسرين المرتعش. «لا سيدي... إجراءات روتينية». رد

الموظف بنبرة فضحت موقفه الرابض بين هرمين: الشك بهذه المرأة اللغز، واليقين بنعومة هذا الكائن الشفاف.

تعاقت أنفاسها مع عقارب الساعة المتسارعة. احترق عقلها بالاحتمالات وتلاحقت الصور: نظرات مزاحم المسمومة، لحظة إعدام والديها، جثة حمدان، دموع عنيده، وجه جمال المعذب، صراخ طفلها المخطوف، وخالها كُريّم شيشه معلقًا بين السماء والأرض بخيط دقيق من الأمل.

شعرت بنظرات الضابط تخترق وتُشرّح ظهرها بمشرط جراحي ساخن، وكل ثانية تمر تخبر عن أبدية من العذاب. حياتها كلّها مكثفة في لحظة وجود واحدة، معلقة على حافة الفناء.

«مدام دوبوا؟» ناداها الضابط بالإنجليزية. «هل استمتعت بزيارة الكويت؟»

«Oui, c'était très intéressant.»

«نعم، كان ذلك مثيرًا للاهتمام جدًا.»

أجابت بالفرنسية، متعمدة تجاهل لغته الإنجليزية، مضيفة ولكنها فرنسية ثقيلة: «إلا أن الطقس...».

قاطعها ضاحكًا بسخرية. «نعم، بلادنا حارة كالبحيم صيفًا وشتاءً». وعرز نظرتة في عينيها مباشرة. للحظة، ظنّت أن عينيها كانتا تحاولان الكشف لمعرفة معلومة خفية، رغم أنها لم تصادف كويتيًا في حياتها، فاستدركت مُحافضة على ابتسامتها الباردة،

وأظافرها تنغرس في راحة يدها، كأنما تحاول منع التوتر من السيطرة على جسدها.

«تفضلي سيدتي».

قال الموظف أخيرًا وهو يختم جواز سفرها. صوت المطاط على الورق ليس ختمًا، إنما حكم بالموت والميلاد معًا. غادرته ماشية ببطء محسوب نحو بوابة المغادرة، متأمل ما حولها ببطء. الأضواء الفلورستية تعري كل شيء: الوجوه المتعبة، الحقائق الثقيلة، الخطوات التي تحمل أحلامًا مختلفة نحو اتجاهات متباعدة.

ثلاثون دقيقة فقط. هكذا يُقاس الفرق بين النجاة والهلاك. هكذا ينقسم الزمن إلى قبل وبعد. ثلاثون دقيقة تفصل بين امرأة كانت وامرأة ستصبح. ليس وقتًا عاديًا يمضي كسائر الأوقات، إنما عتبة تحترق تحت قدميها.

بين مستقبل مجهول يفتح فاه أمامها وماضٍ يطاردها بأشباحه التي لا ترحم. جميلة في الركن تصرخ. خديجة وعنيدة في القبر الصامت. ميمي طربكه تضحك من بعيد. وكل امرأة عاشتها وعاشتها تخطو معها نحو البوابة. ثلاثون دقيقة. ومن بعدها، بريق الحرية.

حاولت نسرين تجنب عيني الضابط كي لا تسقط بين براثن شكوكه، ومع ذلك فإن الخوف يصنع عوالمًا غريبةً بين الخائف والمخيف تدين هشاشة هذا الكائن وخواء إرادته.

علاقة سامة تربط الصياد بفريسته. هي تعلم ما لا يعلمه. الوثائق في حقيبتها مزورة بإتقان. اسمها مزيف. ماضيها مدفون. مستقبلها معلق على خيط رفيع من الحظ.

«مسافرة إلى أين؟» سألها فجأة.

كان صوته عادياً، إلا أنه وصل إلى أذنيها بصخب صرخة دوت كقنبلة في فضاء الصالة. الكلمات البسيطة تحولت إلى سلاح.

«باريس». أجابت بصوت أرادته ثابتاً، وابتسامة حفظتها جيداً. متزنة. لا تكشف شيئاً. لا خوف، لا قلق، لا فرح. ابتسامة محايدة كتلك التي تمنحها للغرباء في المصعد.

المفارقة أن كل ما تملكه الآن هو الهدوء، وهي التي تحترق من الداخل. في بعض الأحيان، الخوف الشديد يمنحك قوة غريبة. ما الذي يمكن أن يخسره من فقد كل شيء؟

«تحميلين كثيراً من الأدوية». قال وهو ينظر إلى القرص الذي تبقى في يدها. لحظة صمت. ومن ثم...

«أعاني من الغثيان أثناء السفر». قالتها وعيناها تلتقيان بعينه. هذه المرة، هي من اختارت المواجهة. المخاطرة تُولّد الجرأة أحياناً.

تذكرت سريعاً كلمات خالها كُريّم: "حين تكذّبين، انظري في العيون. الكذبة الشجاعة خير من الحقيقة المرتعشة".

الضابط يتفحص جواز سفرها مرّة أخرى ناظرًا بإصبعه فوق اسمها. لحظات متضخمة مرت بثقل سنوات. ثم، بحركة بطيئة، أعاده إليها. وأخيرًا...

«رحلة سعيدة». كلمتان فقط. في حين أنهما حملتا ندالة التاريخ وبؤسه.

«المسافرون على رحلة باريس، فضلًا التوجه إلى البوابة رقم "٧"».

انطلق النداء الأخير لرحلتها. صدفة عجيبة أن يكون منفذ حريتها ليس اختياريًا، إنما البوابة رقم "٧" بعد أن كان هذا الرقم يحمل نفس تفاصيل تهميش جمال القاتل. ليس مصادفة عابرة، غير أنه إعادة لكتابة القدر بنفس الأرقام. السابع من نيسان. تاريخ ولادة حزب البعث وولادة الموت معًا. كأن كل ثورة تبني عرشها على أنقاض جحيم المواطن.

صدفة وسوء حظ أرخا لصراع وجودي بين حقيقتين: الأولى تشدّها للداخل، والأخرى تدفعها إلى الخارج. أي تناقض هذا الذي تعيشه كل من اقتربت من هذا الرقم؟ من تحمل في جسدها حصارًا قديمًا وتسير نحو تحررٍ مرقّم بنفس الرقم الذي قيدها؟ هذا الرقم الذي يشطر العوالم. يشطر بين ثورة وثورة. بين نظام ادّعى التحرير فأرسل قيودًا أقسى من الحديد. نظام وُلد بالسابع من نيسان وسيموت بالسابع من نيسان في قلب كل امرأة فرّت منه.

في الأساطير ليس نهاية، إنما دورة كاملة. سبع سماوات وسبع
أراضين وسبع سنوات عجاف وسبعة حصون وسبعة أقاليم وسبع
قارات. الرقم الذي يعيد الخلق. الذي يغلق ويفتح في آن.

ولو كان الخوارزمي حاضراً معها الآن لأوصته بحذف السابع
من مجموعة الأرقام الحقيقية، حفاظاً على شفيف منامها علّها
تحظى برقم يرمم كل هذا الخراب ويختم تفاصيل وجعها. برقم لم
تولد فيه تفاصيل طاغية. لم يُكتب به ميثاق ظلم.

لكن الأرقام ليست رحيمة. والسابع منها يُعاد كتابته في جسد
كل امرأة تخطو نحو ولادتها الثانية. جسد كل امرأة هربت من
حزب فولدتها الحرب. البوابة تنتظر. والحصار يخطو معها. لكن
هذه المرة - هذه المرة فقط السابع ينقذ بدل أن يقتل.

قالت عيناها: يا بشرى... ها قد حان وقت الخلاص. أما روحها
وكما تعلمت من تجاربها المريرة، لا شيء من المعاناة ينتهي حقاً،
فالهروب ليس سوى بداية جديدة لمطاردة طويلة الأمد لا فكّك
منها حتى تُشيع صاحبها إلى مثواه الأخير، إما زنزانة أخرى وسجان
جديد، أو قبر ضيق ومنكر ونكير وأسئلة ساذجة.

«لديكِ عينا جميلتان!»

ما كانت ملاحظة بريئة، إنما فخّ نُصب بعناية. رمشت نسرين
مرتين، محاولة استعادة توازنها. صوت الضابط كان سمّاً مغلفاً
بالعسل. «تذكراني بامرأة عراقية كنت أعرفها».

دق ناقوس الخطر في رأسها. هل اكتشف هويتها المزيفة؟
«Merci».

بضعة حروف لفظتها، إلا أنها كانت تحمل كل استراتيجياتها
الدفاعية، وهويتها الجديدة. ثم أضافت بثبات مصطنع: « Mais
monsieur لكن سيدي!»

بصوت يقطر جلافة صحراوية قال مقرباً فمه من وجهها: «نعم
هل هناك شيء؟»

«يجب أن أسرع، طائرتي ستقلع قريباً». خلف عينيها الهادئتين،
كانت تحسب المسافة إلى بوابة النجاة. كل خطوة. كل ثانية. كل
احتمال.

ابتسم بغموض: «أتمنى أن تكتبي أشياء جميلة عن الكويت».
وفيما هي تتعد بخطوات مدروسة، سمعت همسه للآخر:
«هناك شيء غريب في تلك المرأة. أشك في كونها صحفية
فرنسية».

تسمرت في مكانها للحظة، ثم استعادت حركتها. البوابة أمامها
الآن. عشرون متراً فقط تفصلها عن الحرية. راحت تعد بدقات
قلبها «واحد، اثنان، ثلاثة...».

عند نقطة التفتيش الأخيرة حيث ذراعان من ريش امتدا باعاً
تستقبلانها. قدّمت جواز سفرها والعرق يتصبب منحدرًا على
ظهرها حتى مفرق وسطها. بدأ الموظف يقلب الصفحات ببطء

قاتل. خلفها، سمعت وقع خطوات عسكرية تقترب كطبول الموت.
«سيدة دوبوا...» قال الموظف بصوت مليء بالشك.

في تلك اللحظة بالذات، اندفع رجل مسن وهو يصرخ: «قلبي!
قلبي!» وسقط متشنجاً أمام المكتب. تحول انتباه الجميع إليه، حتى
الضابط الذي كان يناديها. في خضم الفوضى، أعاد الموظف جواز
سفرها بسرعة، ملوحاً لها بالمرور.

عبرت البوابة بخطوات ثابتة، والضابط يصيح بها منادياً: «مدام
صوفي، انتظري!»

التفتت برشاقة، وعلى وجهها ابتسامة متقنة: «oui؟ ... نعم؟»
«هل يمكنني...؟» بدأ كلامه محاولاً زجّها في اختبار آخر إلاّ
أن صوت ضابط آخر قاطعه مؤبّناً: «سيد حنظل، نحتاج مساعدتك
هنا! الرجل في حالة حرجة، أرجوك!»

تعلقت الكلمات في الهواء. والحرية أصبحت قريبة، أقرب من
أي وقت مضى. في عالم الهروب، النهايات السعيدة ليست سوى
فصل آخر في رحلة لا تنتهي.

بعنف امرأة من نار دفعت نسرين نفسها إلى داخل الطائرة محلقةً
بجناحيّ طائر نال حرية متأخرة كان ينشدها طويلاً. خطواتها متزنة،
كل شيء فيها يتحرك بدقة متناهية، إلاّ قلبها... كان يركض أشبه
بحيوان برّي مطارد. وخلفها، غرق المطار في فوضى المسرحية
المثالية للمسن الغامض التي منحتها فرصة العبور لعالم الأحياء.

استقرت في مقعدها ملاصقة للنافذة، لا إرادياً جذبها المقعد إلى هناك، كأنه يختطفها دون أن تختار. أغلقت عينيها للحظة، محاولة أن تستعيد توازنها. كانت تشعر بأن الطائرة سوف لن تقلع، وكأنها كتلة من الانتظار المكتظ بالمشاعر، تنتظر إشارة الانطلاق، بينما داخلياً، كانت تحتضر حاضرة بين لحظة الرحيل وحالة الانتظار التي لا تنتهي. كانت كأنها امرأة تنتظر تنفيذ حكم الإعدام، عالقة في غرفة انتظار بين حينين، تتقرب لحظة النهاية أو بداية جديدة، غير قادرة على إحداث أي حركة.

ثم شعرت به، الإحساس الذي لا يكذب. القلق الجسدي. الضغط على مئانتها يصرخ أقوى من أي خوف نفسي. الجسد، في لحظات الأزمة، لا يعبأ بالدراما. إنه يطالب بحقوقه الأساسية بوحشية عادية.

لكن الحقيقة أعمق. لم تكن الحاجة الجسدية سوى ذريعة للهروب. ذريعة شرعية للنهوض، للحركة، للاختباء مؤقتاً خلف باب مغلق حيث لا أحد يستطيع الوصول إليها. حيث لا توجد أسئلة، ولا نظرات مريبة، ولا احتمال أن يرفع شخص ما جهاز لاسلكي (walkie-talkie) ويقول:

«هناك امرأة تطابق الوصف...»

النهوض والذهاب للتوالت، هذا ليس فعلاً فسيولوجياً بسيطاً. إنه انتفاضة صغيرة. إنه رفض من الجسد أن يبقى جالساً، معرّضاً، منكشفاً، قابلاً للفحص مثل حيوان في قفص. نهضت بحركة

مدروسة، لا سريعة جدًا قد تثير الشكوك، لا بطيئة جدًا قد تظهر الخوف، متزنة، طبيعية. التفتت حول نفسها. لا أحد يراقبها. المسافرون منشغلون برواياتهم الخاصة، بأفكارهم، بملاهيهم البدائية: جريدة، مجلة، حلم لم يكتمل بعد. للحظة، للحظة قصيرة جدًا، كانت غير مرئية. اتجهت نحو المضيضة:

«معذرة... التواليت؟»

كانت تلك الكلمة البسيطة أكثر صعوبة من اختراق حدود بلد. لأنها لم تكن مجرد سؤال. كانت صرخة صامتة: "دعيني أختفي. دعيني أتنفس. دعيني أكون وحدي للحظة قبل أن ينهار كل شيء". اعترافًا بالحاجة. بالضعف. لكن أيضًا، وهذا ما لم تفهمه المضيضة، اعترافًا بالحنين إلى الاختباء. المضيضة أشارت بلطف نحو آخر الممر.

أغلقت الباب خلفها وأدارت القفل.

القفل، تلك الكلمة البسيطة التي تعني الحرية المؤقتة. حتى لو كانت وهمًا. حتى لو كانت مجرد صندوق معدني طائر معلق بين السماء والأرض.

لم تذهب إلى التواليت فورًا. وقفت مثل حيوان صيد جريح يختبئ في كهف. يديها ترتجفان قليلًا. تنفسها لم ينتظم بعد. نظرت إلى المرأة الصغيرة. وجه غريب ينظر إليها. عيون لم تعرف راحة منذ ساعات. شفاه رسمت ابتسامة متقنة أمام الموظف، تلك

الابتسامة التي قتلت نسخة منها ولدت حرة يوماً ما. رفعت يديها إلى الحوض. الماء البارد.

"ما الذي أنقذك؟" سألت نفسها وهي تغسل وجهها. "الحظ؟ الرجل المسن الذي سقط؟ أم كنتِ مستعدة لهذه اللحظة منذ البداية؟"

جففت وجهها بمنديل الورق الرقيق. كل ضربة هي اختبار صغير للوقت المتبقي.

"كم دقيقة يمكنك أن تقضي هنا قبل أن تصبحي مريبة؟ قبل أن يطرق أحدهم الباب ويقول: هل أنتِ بخير؟"

جلست على المقعد. لم تكن بحاجة حقاً، لكن الحاجة ليست بتلك الأهمية. المهم هو أن تكون وحدك. وحدك حيث لا يمكن لأحد أن يقول:

«سيدة دويوا، من أين أنتِ بالفعل؟»

«لماذا هذا الخوف في عينيك؟»

«هل أنتِ من تبحث عنها الشرطة؟ ومن هو مزاحم»

هنا، في هذا الفضاء الصغير، كانت آمنة من الأسئلة. استنشقت بعمق. ثم نهضت. الوقت انتهى. الاختباء المؤقت يجب أن ينتهي. فتحت الباب. عادت إلى المقعد.

«انتهى الأمر». خاطبت نفسها تبشرها بالخلاص المؤقت:
«ثلاثون دقيقة والحرية ستخلق تاجًا فوق رأسي». انحنى المضيفة
نحوها: «مدام؟»
«صوفي». أجابت بتلقائية، كأن الاسم المزيف أصبح جلدًا
ترتديه.

«مقعدك في الخلف. تفضلي، لو سمحت؟» قالت المضيفة
وهي تحفر بعينيها الخضراوين باطن نسرين بحثًا عن مصدر مكامن
القلق البادية عليها بوضوح.
أغلقت أبواب الطائرة، وكل موجة ضجيج في آلية الإغلاق
كانت تبعتها خطوة عن ماضيها. ومن النافذة، راقبت المطار
يتقلص في منظور عينيها، متحولًا من مبنى إلى شبح ضبابي هائل
يمثل ثلاثين عامًا تحولت فجأة إلى نقطة باهتة.
«الشرق الأوسخ، وداعًا». نطقت عيناها وهي تتابع الأرض
تنسحب من تحتها.

فتحت حقيبتها اليدوية، كل ما تملكه في هذا العالم الآن. بين
الأوراق المزورة بإتقان، استقر منديل قماشي بين أصابعها، آخر ما
مسحت به دموع جمال ليلة دفنه تحت جسر الماجدية. بجواره،
عود محترق احتفظت به كآخر مقتنياته. أشياء صغيرة تحمل ثقل
حياة كاملة.

«سيدتي، هل أنت بخير؟»

التفتت نحو جارها في المقعد. عيناه محملتان بفضول أزرق مقلق. «نعم». ابتسمت بتحفظ، ثم أضافت بحدة خافتة: «أنا بخير. هل هناك ما يقلق؟ انتبه لنفسك رجاء».

سمحت لجسدها المتوتر أن يسترخي قليلاً. كانت تتجه نحو عالم لا يتظرها فيه أحد. لا مواعيد. لا لقاءات. فقط غموض مستقبل، وعائلة فرنسية هيأتها المنظمة لإيوائها. «مدام، يبدو أنها أول رحلة لك». قَدَم الرجل المجاور نفسه بصوت ناعم: «جان بيير».

لاحظت اهتمامه، أوجست منه خيفة. نظراته المترددة، كوعه الذي يلامس خاصرتها أحياناً. لم يدرك أن هذه المرأة الصامتة قد اجتازت من الألم ما يجعل أي اهتمام رجالي يبدو تافهاً. «هل تخشين الطيران، مدام صوفي؟» سألها بلكنة باريسية أصيلة.

«لا، لا أخشى الطيران». أجابت بفرنسية متقنة. «أخشى الهبوط».

لم تكن تقصد هبوط الطائرة، إنما هبوط أحلامها في أرض غريبة. ثلاثون عامًا علمتها أن الحياة لا تمنح النجاة مجاناً. ارتشفت رشفة من القهوة المميزة التي قدمتها لها المضيضة قبل قليل، فاجتاحتها رائحة بيتها في الماجدية وما جاورها من مناطق مدينتها الأم العمارة: المحمودية، السريّة والسراي، الجديّة، عواشه، الدييسات، كوجود موازٍ.

تذكرت مستنشقةً دخان القهوة كلمات وليد النادل المصري في واحدة من وصاياه: «الغربة يا ست نسرين مثل القهوة المرة، إما أن تدمنيها أو تلفظنيها».

«أنتِ تبسمين لأول مرّة».

التفتت إلى جان بيير بحذر. في عينيه اشتعلت تلك الشرارة من الفضول التي تعرفها جيدًا عند أمثاله من الرجال الفضوليين. «تبددين أجمل حين تبسمين».

«هل من أحد غيري قال لك: كم أنتَ فضولي يا هذا؟»

ارتسمت على وجهه ابتسامة حرج مصطنع. «آسف». ثم همس لنفسه: «شرقية! وستبقين!»

مرّ طفل في الممر، وانطلقت ضحكته تملأ الفضاء بتفاصيل جميلة فاخترق صوته لحظتها قلبها بحدّةٍ سكينٍ ذكرها بابنها: «هل يضحك الآن بهذه البراءة، أم أن صوته اختفى إلى الأبد؟»

«لديكِ روح أسطورية، تذكرني بعشتار... كأنكِ عشتِ ألف عام». توقف قلبها للحظة. كيف استطاع أن يرى ما خلف قناع صوفي؟ «كلنا نحمل في أرواحنا قرونًا من الحكايات». أجابت بحذر مدروس. «أنا فرنسية، أرى ما حولي بدقة متناهية، كما إنني الآن أرى فيك مزاحمًا آخر».

ابتسم ابتسامة بألف معنى. كأنه يقول: «كاذبة بدرجة امتياز فيما يخص أنكِ فرنسية، وغير صادقة بامتياز أيضًا فيما يخص أنكِ ترين فيّ مزاحمًا آخر».

تصنّع ابتسامة حاول بها بث الاطمئنان لديها: «أنا أستاذ في علم الآثار، ونحات أيضاً. أقرأ التاريخ في العيون والتجاعيد. عيناك حكاية، - وأيّ حكاية». تسارع نبضها. هل اكتشف؟ هل يعرف شيئاً عنها؟

«نحن جميعاً آثار متحركة». ردّت بهدوء مصطنع. «نحمل ندوب الزمن على جلودنا».

عادت لتحقق في النافذة. تحت الطائرة، مرت سحب بيضاء مثل أشباح هاربة. تذكرت صوت الشیخة صالحة: «من اليوم وما بعده أنت صوفي. انسي حتى ظلك القديم».

كيف تنسى ظلّ ثلاثين عاماً؟ كيف تمحو اسماً نُقش على روحها بسكين الألم؟

«باريس جميلة في الصيف». قطع صمتها. «أعدك، ستحيينها» هزّت رأسها بابتسامة باهتة. كيف تشرح له أنها تبحث عن مساحة للحرية، في مكان تستطيع فيه أن تكون نسرین مرّة أخرى، دون خوف؟

الفصل الخامس

”نحن تماماً كمن يهرب من حريق يشب في بيته ، بإلقاء نفسه من أعلى طابق. لا يهمه تهشم عظامه. المهم ألا يموت محترقاً. أن ينجو بجلده من ألسنة النار. ولا ينتبه لحظتها إلى ما ينتظره أرضاً وهو يلقي بنفسه إلى المجهول”

”أحلام مستغانمي”

(١٧)

"باريس / نيسان / ١٩٩٠"

لمست عجالات الطائرة أرض مطار شارل ديغول بارتعاشة خفيفة، معلنة وصول روح إلى عالم جديد لم تألفه بعد. المطار الذي يحمل اسم الجنرال شارل ديغول، الرئيس الفرنسي الأسطوري ومؤسس الجمهورية الخامسة، يعرفه الفرنسيون ببساطة باسم "رويسي" (Roissy-en-France)، نسبةً إلى البلدة الصغيرة التي احتضنته منذ عام ١٩٧٤، شمال شرق باريس حيث تختبئ الأحلام خلف ستائر المطر.

وكان السماء كانت تنتظر وصولها، انفتحت أبوابها فانهمر المطر بغزارة مدرارة، يغسل مدرجات المطار ويمحو آثار من سبقوها. بقيت نسرين جالسة في مقعدها، جامدة، متجمدة في لحظة عالقة بين سماءين. لم تحرك يدها لفتح حزام الأمان الذي بات يشبه آخر خيط يربطها بما كان.

حولها، بدأ الركاب ينهضون واحداً تلو الآخر، كأرواح تسير نحو قدرها المحتوم، يجرون حقائبهم وأحلامهم، بينما عيناها تتبعهم بصمت ثقيل. ثم التفتت نحو النافذة.

قطرات المطر تنحدر على الزجاج بعناد، تاركةً خطوطاً متعرجة بهيئة دموع لا تعرف طريق التوقف.

«كم هو جميل بكاء السماء!»

همست، ومدّت يدها ببطء حتى لامست الزجاج البارد. برودة حادة سرت في أطراف أصابعها، فأدركت أن هذا اللمس العابر ربما يكون آخر ما يربطها بالماضي، آخر جسر بين من كانت ومن ستصير.

تمنّت، في قرارة نفسها، لو أنها تُحبس في هذه الطائرة إلى الأبد. خوفاً مما يحمله الخارج من مفاجآت لا تملك لها درعاً، كجنين يأبى مواجهة الحياة فيتشبث برجاء هش، يائس، في البقاء سجين رحم أمّه، حيث الدفء والأمان وحيث لا أسئلة تنتظر إجابات.

لكن الطائرة كانت تفرغ من الأرواح، والصمت يتسلل إليها مثل ضيف ثقيل.

وباريس في الخارج تنتظر.

نهضت أخيراً، ببطء. حلمٌ طويل ينتهي، وكابوس يبدأ. حملت حقيبتها الصغيرة، وسارت في ممرات المطار الطويلة. أضواء النيون البيضاء الباردة تنعكس على البلاط اللامع، والوجوه من حولها غريبة، تتحدث بلغات شتى لا تفهمها، تتحرك بثقة من يعرف وجهته.

أما هي، فكانت تسير وحسب.

وصلت إلى كاونتر الجوازات. وقفت في الطابور، تتأمل انعكاسها الباهت على الزجاج السميك الذي يفصل بين عالمين.

وجه امرأة لا تعرفها يحدّق فيها. عيون فارغة، شفاه مرتعشة، ملامح غريبة رغم أنها ملامحها.

«من أنت؟»

همست للانعكاس، لكنه لم يُجب.

«Passeport, s'il vous plaît... جواز السفر، من فضلك»

صوت موظف الجوازات قطع حبل أفكارها الرفيع. رفعت عينيها، فوجدته ينظر إليها بابتسامة دافئة، مُبتسمًا بإعجاب لم يحاول إخفاءه.

مدّت يدها المرتعشة بالجواز. تناوله، فتحه، نظر إلى صورتها، ثم إليها، ثم ابتسم مجددًا وهو يختم الصفحة بحركة روتينية سريعة. «Bienvenue en France, Mademoiselle... أهلاً بك في فرنسا، آنسة» قال وهو يناولها الجواز. قبضت عليه كطوق نجاة يُلقى لغريق في بحر لا ساحل له. أصابعها التفتّ حول الغلاف الأخضر بقوة، وكأنها تخشى أن يتبخر بين يديها.

نظرت في عينيه لثانية واحدة، ثم أجابت بصوت امرأة فقدت آخر خيط يربطها بنسرين: «Oui... نعم» كلمة واحدة، خرجت من فمها غريبة، ثقيلة، محمّلة بكل ما تركته خلفها. تجاوزت البوابة، وبكل خطوة كانت تبتعد أكثر عن نفسها القديمة. باريس الآن لم تعد في الخارج تنتظر. باريس أصبحت هنا. وهي، أصبحت لا أحد.

«إلى سانت جيرمان، شارع بونابارت». أكدت للسائق وهي تتحسّس جواز سفرها في جيب معطفها. انعكست صورتها على زجاج النافذة: امرأة في الثلاثين، عيناها متعبتان تحملان ثقل سنوات الهرب من مدينة إلى أخرى، من هوية إلى أخرى. انزلقت سيارة الأجرة في طريقها إلى سانت جيرمان، حيث كانت تجوب طرق المدينة بسرعة في الليل المظلم. كانت قطرات المطر تتساقط على الزجاج، كأنها أرواح تبحث عن مأوى. فتحت حقيبتها بحذر، كمن تنزع فتيل قنبلة انفجرت أمام عينيها من قبل. كانت تسحب الوثائق المعدة بإحكام، تحت إشراف سرور ووليد والشيخة صالحة. كل ورقة بين يديها تشير لامرأة لم تسافر كثيرًا: صوفي دوبوا، الفتاة الباريسية، خريجة السوربون. انفجرت ضاحكة من هذا الجنون المحشو بالوثائق المزورة، فقد استرعت انتباه السائق المُسنّ بحاجبيه الثلجيين، الذي راح يتأملها بريبة من خلال مرآته الأمامية شاكًا بها، فظن أنها شخصية انسلت للتو من رواية بوليسية غامضة.

تساءلت في نفسها، وهي تتأمل هذه الأكاذيب المحبوكة بإتقان صانع ساعات سويسري: «كم من الأكاذيب نحتاج لنصنع حقيقة واحدة تجعلنا قادرين على مواصلة الحياة؟»

لمعت أضواء مدينة النور في الأفق، فانغrust في قلبها سكاكين الذكريات. من نافذة السيارة، راقبت نسرين خط سماء باريس

يتكشف أمامها باتساع لوحة متغيرة باطراد. نعم... هي ليست المدينة التي عرفتها طفلة.

«الشانزليزيه لم يعد كما كان!» تشكلت كلماتها شريطاً سينمائياً وهي تتذكر نسرين الصغيرة ذات الصفائر السوداء الطويلة، تلك الطفلة بنت السادسة، بمعطفها الأحمر القاني، تُمسك بيديّ ميشم الوالي وخديجة، ترقص معلقة بينهما رقصة القرفصاء العائمة.

ومن وراء أشجار الكستناء المتناثرة، كانت تلمح بوابات قصر الإليزيه الحديدية السوداء تحرس صمت شارع فوبور سانت أونوريه. كانت تتسائل وهي طفلة عما يحدث خلف تلك الجدران الكريمة اللون، والآن تعرف أن سلطة فرنسا تتنفس هناك منذ قرن ونصف، بينما العراق يتنفس ضِعْداً تحت وطأة قراراتٍ قد تُتخذ في صالونات ذلك القصر ذي الـ ٣٦٥ غرفة. كانت باريس في ذاكرتها طبقات من الضوء والدفء البعيد.

«كم تغيّرت باريس في عينيك؟» مبالغاً أفكارها سألها السائق بفرنسية متقنة، محاولاً اختراق صمتها.

«كثيراً، ولم تتغير أبداً». أجابت بِلَكْنَة فرنسية مدروسة بعناية - لَكْنَة صوفي دوبوا حصراً.

انعطفت السيارة نحو نهر السين عبر جسر نويي، والأفق الغربي انفتح فجأة أمامها كمسرح واسع، فلاح أمامها أبراج لاديفانس البعيدة تقف بانتصاب حرس حديدي في أقصى الخط البصري، متناثرة خلف قوس النصر الذي بدا قزماً أمام شموخها الحديدي.

«لم تكن هذه الأبراج موجودة». فكرت وخط الأفق بمصايحه المتلائة يتبدل أمامها. السائق استطرد وهو ينحدر نحو الضفة اليسرى»: هذا الطريق أطول قليلاً، لكن المناظر فيه أجمل من المرور المباشر عبر شارع ريفولي». كان محقاً، فالمنحنى الذي رسمته السيارة حول قلب باريس كشف لها المدينة كخريطة حية، وأبراج الأعمال الغربية تهيمن على الأفق مثل أصابع عملاقة تشير نحو المستقبل.

لمحت هرم اللوفر الزجاجي من بعيد، يلمع تحت قطرات المطر المتساقطة متخذاً شكل نصب جنائزي لزمان قُتل فوقه مصلوباً، تأملته مستعيدة أيام طفولتها حين كان اللوفر متاهة من اللوحات التي تراقب الضيوف بعيون الماضي. كيف يمكن لهرم من زجاج أن يرتفع وسط هذا التاريخ العريق؟

على يمينها، برز مركز بومبيدو بأنايبه الملونة وهيكله المكشوف بتحدٍ صارخ للتقاليد المعمارية الباريسية. لم يكن هذا المبنى العجيب موجوداً في ذاكرتها، فقد كانت المنطقة سوقاً صاخبة تعج بالناس والأصوات. أين ذهبت تلك الأسواق وأصوات الباعة وروائح الخضار التي كانت تمتزج برائحة نهر السين؟

«الحي اللاتيني، كيف أصبح الآن؟» سألت محاولة أن تبدو كفرنسية مغتربة.

«ما زال يعج بالطلاب والكتب، أما الأسعار فقد ارتفعت كثيراً. والأبراج راحت تأكل باريس من الأطراف». أجاب مشيراً إلى برج

مونبارناس البعيد، ذلك البرج الأسود الذي يقف وحيداً مثل إصبع
وفاقٍ مرفوعٍ في وجه سماء المدينة، ولو كان هذا البرج في مركز
عاصمة بلد عربي مثل بغداد لقالوا عنه إصبع إدانة يقف منتصباً
بوجه الله ولا بد من هدمه وإزالته من الجذور.

انحدرت السيارة في شارع ضيق تحرسه أشجار متساقطة
الأوراق. الهواء البارد يحمل عبق نيسان ورائحة المطر على
الأرصفة الحجرية. حتى رائحة المدينة تبدو قد تغيرت. فكّرت
قليلاً، أو ربما هي من تغيرت؟

تلك الطفلة التي قفزت فوق بحيرات المطر في حدائق
اللوكسمبورغ باستمتاع محروم، تعود الآن كظل لبراءة قديمة. كان
ميثم الوالي يقول لها وهو يحملها بهيئة حميمة تسميها عجائز
الماجدية "هدوب":

«ستكونين جسراً بين الحضارات يا نسرين». لم يكن يعلم أنها
ستصبح جسراً مقطوعاً بين هويات عدّة.

التهمت جسر نوتردام بعينيها فبدا وحشاً أضاءته الأنوار، بناؤه
الحجري المتقن يعكس أضواء المدينة على صفحة المياه السوداء.
كان أيقاً كما تذكرته، إلا أن شيئاً ما تغير في روحه، كأن المدينة
بأكملها تحملت وزناً إضافياً من التاريخ.

توقفت السيارة أخيراً في زقاق ضيق متفرع من شارع بونابارت،
حيثُ تشابكت الأزقة خلفه كخطوط على كف عرّافة. هنا

ستستقبلها عائلة فرنسية، حسب خطة المنظمة، لتذوب في النسيج المجتمعي مثل أي مواطنة فرنسية لها وجود حقيقي في ذاكرة المدينة.

دفعت الأجرة ونزلت حاملة حقيبتها الوحيدة. تنفست هواء باريس، وقد تسلل إلى رثتها الشعور القديم نفسه: الغربة... اغتراب وهي طفلة، واغتراب وهي امرأة بتفاصيل لعنة.

ارتعشت قليلاً بقشعريرة الغرباء في الهواء البارد، ونظرت إلى الشارع المضاء بأعمدة الإنارة الكلاسيكية. الماضي والحاضر يتداخلان أمام عينيها - شَيْدَ بومبيدو وهُدمت الهالات، اختفى الرصيف الذي قفزت عليه ذات يوم، ظهر المترو الجديد يربط أطراف المدينة، وقامت أوبرا الباستيل حيث كان السجن القديم.

في المقابل، ظلّت رائحة الكرواسون المنبعثة من المخبز المجاور تتجول في روحها، إلى جانب همسات العشاق في زوايا المقاهي المظلمة، وأنغام الأكورديون، وظلال الأشجار على جدران المنازل العتيقة، حيثُ المدينة كانت قلباً ينبض تحت طبقات الحداثة.

بتوسّل عاشقٍ صدحت حنجرتها: «باريس، كيف ستخبئيني هذه المرأة؟»

تنهيدة صدرت منها كشكوى وجع تواجه بها الإنسان والبنيان وهي تخطو نحو المدخل، محاولة الذوبان قطرة مطر في بحيرات

المدينة. رغم يقينها أن أنف مزاحم لن يتوقف عن تعقب رائحتها، وأن بصماته تمتد عبر القارات كأذرع إخطبوط هائل تتبع خطواتها. وقبل أن تبتلعها البناية حيث مأواها المؤقت الذي هيأته المنظمة لها، التفتت نحو نهر السين البعيد، فتذكرت آخر كلمات سمعتها من والدها قبل اعتقاله: «المدن لا تتغير يا نسرين، نحن من نتغير: ظروفنا، أحلامنا، ملامحنا، وقراراتنا».

في شقة بناية قديمة بشارع بونابارت، وجدت نسرين ملاذها الآمن المؤقت مع عائلة أشبه بفسيفساء من الثقافات: مدام إيفيت، المصرية المسيحية السمراء التي تجاوزت الخمسين، وزوجها الفرنسي شارل، الأصهب الستيني.

«بيتك الجديد». همست إيفيت بحكمة النيل، يدها تغرس الدفء الأمومي المفتقد على كتف نسرين. من زاويته حيث كان يجلس على كرسي خشبي، حذرها شارل بلكنته الثقيلة: «باريس جنة ومناهة. احذري موطئ خطواتك فيها».

الليلة الأولى في شقة سان جيرمان دي بريه، حيث التاريخ يتنفس والفلاسفة يهمسون. أقامت في غرفتها طقسًا تطهيريًا، تجردت من ثيابها منغمسة بصلاة وثنية وعبثية في آن واحد. تمزقت عليها آخر خيوط ماضيها، فتناثر قماش ملابسها "وصله ما تلايم وصله"، مستخدمة في التمزيق جميع أسلحتها: أسنانها، أظافرها، مقصًا حديدًا مهملاً بيد بلاستيكية، وحتى أحلامها كانت سلاحًا

فاعلاً في التمزيق ومواجهة الخراب بخراب آخر فراح لهاثها
يتصاعد ملولباً مشاكساً السقف:

«لا أريد شيئاً يذكرني بالماضي».

في نهاية طقوس جنونها كانت المفارقة الكبرى حاضرة
باكتشاف عجزها عن النسيان - نسيان صورة جمال التي ما زالت
تختمر في قلبها خمرة مُعتّقة، وصراعها مع مزاحم بتفاصيل أسطورة
خالدة. فالماضي البعثي المتسلط، متاهة بورخيسية - كلما حاولت
الهروب، جذبتها خيوط من حرير وفولاذ.

بعد يوم طويل، استيقظت عاريةً من ثيابها ودروعها. ومن خلف
الباب المواردب، همست لإيفيت تستعير ثياباً تواري عري روحها.
وبزاوية ضيقة من الغرفة الصغيرة انكملت، كطائر جريح، كجنين
يتوق لرحم الحياة الأولى. رأسها يصطدم بركبتها لطرد شياطين
ذكرياتها. «عقد كامل لم تعف عيناى فيه... أريد أن أنام».

باريس، المدينة التي احتفظت في طياتها بأسرار الزمان، كانت
تضيء وتغفو في آنٍ واحد. مرت ثلاثة أشهر بثقلها على نسرين،
كان كل يومٍ يبدو كنسخة من الذي قبله، محاطاً بذكرى طفولتها
وضياعها وخوفها الدائم.

كانت تشعر بنفسها محشورة في شقّة بمساحة تضيق، فتئن
بصمتٍ يفوق الوصف، وميشيل وإيفيت يراقبان الحالة النفسية لتلك
المرأة التي كانت تتأمل في ظلال جدرانها. كل شيء كان في حالة

من الركود، والألوان قد تلاشت، كما تلاشت أحلامها مع مرور الزمن. لم يكن هنالك حديث أو صوت، فقط أنفاس مختنقة وهمسات خافتة تعبر عن قلقها المتزايد.

وعلى غير العادة، في أحد الصباحات، وبدون مقدمات، جاءتها صحوّة غامضة مصدرها ربما كان زقزقة عصفور يئن في البرد، أو شعاع شمس لطيف مس شغاف قلبها، أو حتى ذكرى خفيّة لأمرها جميلة أو ابتسامة جمال بغمازيه الساحرتين. استيقظت من غيوبتها بعينين متسعيتين، تنظر إلى رفيقيها اللذين ينتظران القرار المناسب.

وبصوت يرتعش من وقع المفاجأة قالت: «سأخرج اليوم... باريس تنتظرنني» كانت كلماتها بمثابة تدشين فصل جديد. تلك الكلمات، التي انبثقت عن روح رمادية، كانت تعلن انتفاضة على الموت الذي سكن قلبها لدهور.

عادت كما يعود الربيع بعد شتاء قارس. باريس تستقبلها بوهج أنوارها وسيمفونية حياتها الصاخبة، وفي صدرها يرقص شغف متقد، يخبرها أن الحكاية ما زالت تحبو نحو ذروتها. هي تعلم الآن أن الألم لم يكن سوى محطة، حيث صنعت من شظايا ماضيها قوس قزح جديد، يسرد حكاية إرادتها في البقاء.

قبل خروجها الأول، وقفت أمام المرأة، ترتب شعرها للمرة الأولى، تضع قليلاً من أحمر الشفاه. راسمة اللمسات الأخيرة على لوحة ميلادها الجديد. وقبل المغادرة، تطلعت من نافذتها فوجدتهم

يَنتظرونها - أحبتها متتصين كهياكل بأعواد ثقاب محترقة أسفل
البنية. وجوههم الممزقة تنقر أقاصي روحها.
همست: «سامحوني، سأعيش من أجلكم، من أجل كل الذين
أحبناهم وفقدناهم. سأعيش لأحكي حكايتنا للعالم».
وقبل أن تغلق الباب خلفها أتاها صوت ميشيل ناصحًا بتحذير
يحمل حكمة المجربين وخوف العارفين بمتاهات المدينة الساحرة.
«حَلّقي... على ألا توغلي بعيدًا».

بعد أيام خرجت من زقاقها الضيق في شارع بونابارت، وسارت
بضع خطوات حتى وصلت تقاطع شارع سان جيرمان. هناك، على
بُعد أمتار معدودة من باب بيتها، امتد أمامها الشارع كشريان نابض
بحياة الحي العريق. تخطّت مخاوفها فيه، حيث كانت تتسلل رائحة
التاريخ في كل زاوية مرحة بها، كانت نسرين تسير بخطى ثقيلة،
تحمل على كتفها صليب ذكرياتها المثقلة. إيقاع الشوارع كان مليئًا
بصخب الحياة، إلا أنه أغرق قلبها في الخواء. رغم جمال باريس
وقصصها المدهشة، لم تستطع روحها الفكاك من ماضيها القاسي.
«ليت الحياة كانت واضحة وحاسمة»، تمتعت كمن يتوسل
إلى السماء. اختلطت خطوط هذه الحياة بظلال الموت، وتشابكت
خيوط الحب بأشواك الفقد. تمت لو استراح قلبها، وهذا محال،
فالآلام لم تتثنى وتعلن استسلامها بل تشبثت بها بإصرار عنيد،

فتفجرت منها تنهيدة يأس انفصلت عن صدرها كالسهم المسموم:
«آآه...»

تمنت لو ماتت بجوار جمال على شاطئ دجلة وذفنت معه -
تمنت أن ينقذها القدر من هذا الجنون الذي طاردها في شوارع
الماجدية، والذي بدأ الآن يلاحق سكيتها في شوارع باريس.
قادتها قدمها المتعبتان إلى المقاهي المتلائة في بحر الغربة.
كانت باريس، بطبيعتها، تعرف كيف تُغري الغرباء بمقاهيها،
تحتضن المنفيين بحفاوة، حتى يفقدوا ما تبقى من عقولهم.

توجهت نحو مقهى "فلور" الأسطوري الذي يقبع على الزاوية
مثل حارس قديم للذاكرة الأدبية، حيث امتزجت رائحة البن
المحمص بعبق قرنين من التاريخ. كانت تعرف أن خطواتها القليلة
هذه تحملها من عزلة شارعها الهادئ في بونابارت إلى قلب الحياة
الثقافية الباريسية، من نوافذ شقة إيفيت الصامتة إلى واجهات
المقهى التي شهدت محادثات غيرت مسار الفكر الأوروبي.

في هذا المكان، واجهت مسرحية يومية اعتادت على تكرارها.
مارسيلو، الإيطالي الأنيق الذي يرتدي ربطة عنق سوداء، كان يقوم
بدوره اليومي كنادل بمهارة، يُخضع كل زبون لجاذبيته.

«آه، مادمازيل صوفي!»

كانت كلماته تنتشر في فضاء المقهى كعطر مصطنع يخفي رائحة
أخرى. ذراعه المنفتحتان كجناحي طاووس متباهٍ، حركة محفوظة
عن ظهر قلب لكل زبون جديد.

عين نسرین المُدرّبة على فكّ شيفرات الرجال التقطت على الفور زيف هذا الأداء المُبهرج. كان مارسيلى يستنسخ الضيافة كما يستنسخ عامل المصنع قطعة واحدة مرارًا وتكرارًا: نفس الابتسامة المرسومة، نفس النبرة المُعايرة، نفس الحركات المُخرجة إخراجًا مسرحيًا دقيقًا.

يسعى إلى تحويل المقهى إلى خشبة عرض وتحويل نفسه إلى ممثل رئيس عليها، بينما الروح غائبة عن هذا العرض، والحرارة الإنسانية مُجمّدة تحت طبقات من التمثيل المهني.

بحدسها الأنثوي الثاقب، استطاعت نسرین أن تخترق قناع الضيافة المتكلّف، وتكتشف أن الذراعين المنفتحتين ليستا سوى فخ ناعم لاصطياد الإعجاب والبقيش - ستارة مسرح تفتح بحفاوة، تُخفي خلفها ممثلًا يمارس طقوس الضيافة كسيمفونية تُعزف بلا روح.

عندما سألتها، «قهوتك المعتادة، مادمازيل؟»، أومأت برأسها، متذكّرة كلمات وليد: «لا تفوتي مقهى فلور. القهوة هناك ليست مجرد مشروب، إنها طقس لاستعادة الحياة» كان وليد يعرف باريس جيدًا بحكم عضويته في المنظمة، وكان يعلم أن هذا المقهى كان ملتقى أعظم الكتاب والفلاسفة والفنانين.

هنا، في هذا المكان، غالبًا ما يجلس سارتر وسيمون دو بوفوار، يتناولان القهوة أثناء نقاشات عميقة حول الوجودية. إلّا أن المكان

كان مسرحًا لأداء آلي متكرر. مارسيلو يكرّر حركاته المبالغ فيها مع كل زبون "مميز"، مُبدعًا لوحات من التملق والإطراء.

«تفضلي، مادموازيل، طاولتك المفضلة»، كان يقودها دائمًا إلى نفس الطاولة قرب النافذة، حيثُ بإمكانها مراقبة حياة الشارع بتفاصيلها الصاخبة. تحتسي قهوتها ببطء، متأملّة كيف أصبح المكان العريق متحفًا حيًا، حيثُ يتظاهر الجميع بأنهم جزء من تاريخ يحلمون باجتراحه وعيشه.

رغم انزعاجها من سلوك مارسيلو، إلّا أنها كانت تعود إليه مرارًا. تركت من حولها شعورًا غريبًا بالانتماء، ربما لأن المقهى، مثلها، يحمل حكايات قديمة تحاول التكيف مع الزمن الجديد. أو لأنها أدركت كون الحياة في النهاية ليست سوى سلسلة من الأدوار، بعضها حقيقي وبعضها مزيف، قبل أن تجد الدور الذي ينفي بقية الأدوار.

من خلال زجاج النوافذ الشفافة المنتشرة على واجهة المقهى، كانت ترى مشهدًا سرياليًا يتجاوز حدود الواقع، مما أثار فضولها. كانت الشوارع أمامها تمثل فيلمًا سينمائيًا جديدًا بعيدًا عن حياتها. سيقان النساء الناعمة تتمايل في الشارع، كأغصان تتراقص في نسيم الصباح الباريسي، متجسدة موسيقى الحياة في حركتهن.

مع انشغالها بالمشهد، تساءلت: «هل يعي البشر حقًا كيف يعيشون؟ أم تراني أشهد واجهات زائفة تحجب فراغات لا قرار لها؟» لفت انتباهها امرأة مسنة غائبة عن الوجود بقبلة عبثية مع

شابّ وسيم، يبدو أنه ليس ابنها. كما رصدت رجلاً يغازل حبيبته، محاطاً بموجة من الكلمات الفاضحة، دون أي خجل أو موانع مصدرها مجموعة من الشباب يحرضونه على فعل فاضح بكلمات جريئة «نيكها! العق كسها! هيرو البطل، هيا، نيكها بعنف!»

مركز الفوضى كان هنا، في مدينة تتنفس الحرية، وهنا وجدت نسرين نفسها تشعر بغربة مضاعفة تحاصرها بين عالمين: عالم تركته مليئاً بالقيود وعالم جديد لا يعرف الحدود.

راقبت من خلال فنجان قهوتها، متألمة كيف يفصلها زجاج النافذة عن هذا الوجود المختلف. هؤلاء الناس، الذين يعيشون بتجارب غريبة عن ماضيها، كانوا ككائنات غريبة عن كوكب آخر.

داخل المقهى، كان جميع الزبائن غارقين في عوالمهم، لا يرون وجودها، كانت كطيف يمارس دوره بينهم. في لحظة من الجنون، فكّرت في أن تدوس على قدم امرأة تتكئ على رجل أشقر، بيد أنها لم تشعر بشيء، وربما شعرت! ولكنها مشغولة بحدث أكبر. همست لنفسها: «هل أنا الوحيدة هنا؟ أم أنني لا أرى سوى ظلال صور تمر أمامي؟»

وفجأة، وجدت مارسيلو واقفاً أمامها، حين سكب في كأسها شيئاً من الفودكا، مما أثار في عروقها شعوراً بالخدر. رفعت الكأس إلى شفيتها، تتجرع الفراغ في قلبها. «لقد جننت حقاً»، اعترفت لنفسها، تحاول التخلص من عبء الجنون المتربص بها في كل زاوية.

عندما خرجت، ابتلعها الشارع، كما تبتلع المدينة الغرباء. التفتت يمينًا ويسارًا، ورأت العالم منشغلًا بنفسه، كل إنسان في فقاعته الخاصة، مما زاد من قلقها وشعورها بأنها تعيش في عالم مواز لا يراه سواها. اصطدمت برجل طاعن في السن، يحمل أسئلة الوجود على كتفيه، نظر إليها بعمق ثم بصق سؤالًا بمزيج من القسوة والحنان: «هل الحياة مأساة، أم ملهاة؟» وقفت مذهولة أمام السؤال وهو يتردد في سماء باريس، ملخصًا تناقضات وجودها بين الضحك والبكاء، الحياة والموت، الحقيقة والوهم.

ثم توجهت نحو النهر القريب من سان جيرمان، باحثة عن سر في مياهه المتدفقة. كان النهر كائنًا حيًا، زُرقة مياهه تلامس الأفق، حيث كان يسرد حكايات غامضة. على ضفافه، جلست طويلًا تتأمل انعكاسات السماء، تأملًا متكررًا عن شيء مجهول.

وعندما عادت إلى منزل ميشيل وإيفيت، كانت حقيبتها فارغة إلا من الخيبة. بحفاوة وترحيب، سألتها الزوجان: «ماذا حصلت عليه اليوم من تجوالك؟» ابتسمت ابتسامة غامضة، مُجيبية: «لا شيء! أنتظر اصطيداد وحش ماءٍ دون أن يراني أحد...» تبادل الزوجان نظرات مرحة، إذ أصبح هذا الحوار طقسًا يوميًا بين الثلاثة. «وأين ستجدين وحوش الماء هذه؟» سألاها بدفع.

أطلقت نسرين حكمة غريبة بلا وعي: «هذه الوحوش ليست إلا قصاصات ورق استحوذت عليها الريح. أخرجها ثم أرميها في الماء. عبثي هذا هو سر وجودي».

كانت تتحدث عن قصاصات روحها المبعثرة بين الماجدية وبغداد والبصرة والكويت وباريس. عن ذكريات سبحت بعيداً تنتظر من يعيد لها هيئتها الأصلية.

سألت إيفيت بفضول: «بماذا تشعرين؟»

«أشعر أنني تائهة، كما في رواية كولن ولسن "ضياح في سوهو". في الماجدية كان الأسود أسود والأبيض أبيض، أما هنا فأعيش في زحام مدن وزحام نوايا». هنا أعلنت عن تنازلها عمّا اختزنته ذاكرة طفولتها عن باريس في الستينيات.

علّق ميشيل: «سوهو كانت عالمًا منفصلاً، مليئًا بالعجائب. كانت تعزل الناس عن ذواتهم. هل تشعرين بنفس الانفصال في باريس؟»

«باريس ضياح لا نهاية له. كما في الرواية، أعني المعاناة وسط الأضواء. العالم يدور وأنا محتجزة في نفس النقطة. بماذا تختلف باريس عن سوهو؟ مدينتان تعطيان وهجاً وتكشفان خواء العالم في الآن ذاته».

ابتسمت إيفيت: «إذاً أنتِ تعيشين "ضياح في باريس". وكما في الرواية، ربما تحتاجين لهذا التعثر قبل اكتشاف الذات».

نظرت نسرين إليهما مبتسمة: «مهما كان هذا الضياح، لا أستطيع إنكاره. إنه ظلّ يتبعني في شوارع باريس، وكما في سوهو، أو من بعثوري على نفسي في النهاية، حتى لو كان ضياحي هو طريقي».

إيفيت وميشيل كانا يعيان دون إدراك كامل أن صديقتهما لا تصطاد سمكاً، بل كانت تبحث عن نفسها وسط الضياع. كانا يراقبان طقوسها اليومية بمزيج من القلق والإعجاب، فتولّد لديهما انطباع يشي بأن هذه المرأة الشرقية تُخفي في روحها وحش الـ “كراكن”، الذي يصعب على صنارة عادية اختراق فكّه المفتوح على التأويلات، والذي طالما سحب السفن عميقاً عند قاع المحيطات.

وفي واحدة من جولاتها التي لم تنقطع منذ إعلانها التحرر بالخروج من عزلتها، واستجابةً لرغبتها القديمة الجديدة في بثّ ألَمها على صفحات ورقية قابلة للنشر، صادفت في مسار حلمها زقاقاً حجرياً ضيقاً، يتفرع من شارع الحي اللاتيني الصاخب، انبرت على استحياء من أحد جانبيه دار نشر صغيرة.

واجهتها الأثرية البالية بالكاد تلفت الانتباه: باب خشبي داكن، تتسلق جدران المبنى من حوله نباتاتٌ متشابكة تلفت كاشفة عن لغز وسر لا يجروء أحد على نبش ما فيه، ولافتة باهتة الألوان تحمل الاسم بفرنسية بسيطة: "منشورات سان سيفيران" مثل لوحة تحذيرية تقول "ممنوع الاقتراب، عتاد حربي!!!".

دفعت الباب ودخلت متخذة موقعها لمنازلة إنسانية جديدة. غمرتها رائحة الورق العتيق والحبر المتخثر. أوجست خيفة فتلملت قلاذتها الحارسة بأصابع مرتعشة. تسلفت سلالم الدرج

مستحضرة صوت خديجة: «لا تخافي يا ابنتي، الكلمة سلاحنا الأقوى».

كان الناشر خمسينيًا بملامح حادة وقامة تقترب من الارض، رفع نظره ببطء مقصود. نظراته اخترقت حجابها الغربي الهش. قصة الشعر الباريسية، المعطف الأنيق، الحذاء الإيطالي. لتكشف الشرق المستوطن في تضاريس وجهها.

«وماذا يمكنك أن تكتبي؟» قال بابتسامة ملتوية. «خاصة وأنت أرخص من عقب سيجارة؟»

تقلصت الكلمات في حلقها، مروعة. تصاعد دخان الذكريات من سراديب روحها. بهيئة عقب سيجارة مشتعلة! تدفقت صورة جمال أمامها. طقوسه المقدسة مع تلك الأعقاب حاملة أسرار المقاومة. كل عقب يحوي قصصًا مشفرة، وأنفاسًا مستباحة، وأحلامًا خُنقت في مهدها.

سهمه الأول لم يكفه، فأطلق رصاصة إضافية: «ستكتبين عمّن ضاجعك، ها؟ أي تجربة جديدة تضيفينها إلى سجل النساء المُنتَهَكَات؟»

تقدم نحوها، بخطوات وحش جائع. همس بصوت يقطر سُمًا: «لا مساحة ساذجة لدى الدار تحتضن هذيانك. لدي فقط قضيب طويل مُعدّ للرضاعة، ما قولك؟»

للحظة، تحطم ما تبقى منها. ثم... انفجر بركان مكتوم. تلاشت المرأة المنكسرة الهاربة من تحت جسر الماجدية. تحركت بسرعة

البرق. طارت قدمها عاليًا وبقوة عاتية استقرت أخيرًا بين فخذي الناشر. صراخه اختلط بتحطم زجاج النافذة من ضغط الصوت. تكوّم على الأرض يرفس، حيوانًا مذبحًا ينفث زبدًا من شفثيه المرتجفتين.

منحنية فوقه، همست بصوت اكتشفته للتو في أعماقها: «عقب السيجارة الذي تشبهني به أحرق إمبراطوريات وأسقط طغاة. ولست أنت من يقيّم قيمة نسرين الوالي».

برأس مرفوع، غادرت المكان. لأول مرّة منذ وصولها إلى باريس، لم تعد شبّحًا بين الأحياء. لم تعد تجر خلفها ظل امرأة مهزومة. فقد ترسخت في قلبها شعلة مختلفة. شعلة امرأة اكتشفت أن قوتها أكبر من رغبة آنية في النشر. فغاية وجودها هي مواجهة العالم بحقيقتها: من هي؟ وأين كانت أولى خطواتها؟

وهي تضرب بأقدامها فوق الجسر المعلق على نهر السين، غارقة بين سكينّة الانتصار وحمّى الغضب، ظهر وحش في إطار ذكرياتها. طيف يتوعدها بقصاص قريب. أهتز رنين مُتخيّل في جيبيها. رقم غريب يومض على شاشة اعتلت وعيها الباطن. نبرة غاضبة تنادي اسمها من أقاصي الرعب.

«مرحبًا نسرين... أنا مزاحم. وجدتك أخيرًا!!» صراع البقاء فوق مركب يغرق في بحر لجي بين قطبين متنافرين واحد بوجه سمكة يريد التشبث بضفة نجاة والآخر ستّارة صياد يريد فرض

أبجديات افتراسه. راحت نسرين تتخط بين موجات الذعر والذكريات.

وفي ذروة انغماسها في عالمها الداخلي، اصطدمت بامرأة مسنة تسير في الاتجاه المعاكس. انفجرت المرأة بغضب:
«عاهرة! ساقطة!» «!déchue, putain!»

ظلت متسمة في مكانها، تابعت المرأة المسنة بنظرات ذاهلة وهي تتعد بمشيتها المترنحة. هذا الاصطدام أيقظها من غيوبة التخيل. كشف الحقيقة المرة: لا رنين حقيقي، لا هاتف، لا صوت مزاحم. قلبها وحده كان يرقص واهماً على إيقاع الخوف. جيبها المتهم صامت أخرس. سراب نسجته أعصابها المنهكة. وهَمَّ أنجبته الساعة ظلال الماضي المطاردة. تنفست بعمق، مستوعبة أن خوفها تجسّد في خيالها وحشاً يلتهم سكينتها من الداخل. على رصيف الجسر تقيأت. المارة يتجاوزونها بإشاحة متعمدة. نظراتهم تصنف نسرين امرأة ضائعة من بائعات الهوى الرخيص القادمات من قاع المغرب العربي، أثقلت روحها جرعات الويسكي حتى فاضت مباحة لكل ذكر لا يهमे أين يأتمن ذكره!

رغم شعورها بانتصار كاذب نالته جرأتها مع الناشر الفرنسي، إلا أنّها عادت إلى غرفتها في سان جيرمان تحمل جرّاً جديداً. أعمق من كل جروحها السابقة. إضافة إلى سجل جراحها الممتدة من العمارة إلى باريس.

في تلك الليلة، لم تبكِ. منبع دموعها جف منذ زمن بعيد. استوعبت فقط أن العالم، شرقه وغربه، لم يستعد بعد لسماع صرخات امرأة حاولت تحويل أَلَمها إلى أدب، جرحها إلى حكاية تستحق الرواية، وذاكرتها المثقلة إلى شهادة على زمن قاسٍ لم يرحم نساءه.

كالعادة، كانت هناك منغصات تبعث على القياء هنا وهناك وفي كل مكان. في مدينة مثل باريس تلتهم الأخبار والجرائد كوجبة إفطار يومية، جلست نسرين في مقهى فلور محاولة تشتيت انتباهها عن ألم ضرسها المزعج الذي رافقها طوال ليلة البارحة بعد حادثة الناشر الفرنسي. طلبت قهوة ساخنة، غير أن ضرسها المتمرد رفض أي هدنة.

وعلى طاولة مجاورة، كان يجلس مغربيان يتشاركان في تصفح صفحات "لو موند"، حيث انبرت صورة صدام وهو يلوح بيده في خطاب ناري. فجأة، اجتاحتها مشاعر القلق والرعب عندما رأت مانشيت الخبر الكبير: "صدام يغزو الكويت بالباصات" فاستعادت صورة الشیخة صالحة، وقد تساءلت في سرّها عن مصيرها في ظل هذه الظروف القاسية. كان المستقبل يبدو مظلمًا، والمخاوف تتصاعد مع كل كلمة تصدر عناوين الصحف.

«أخيرًا!!» هتف ذو النظارات السمیكة. «زعيم عربي يجرؤ على تصحيح خطأ تاريخي. نعم، الكويت جزء من العراق قبل خطوط الإنجليز المصطنعة». رشفت نسرين قهوتها ببطء. حاولت

التجاهل، مثّلت عدم الاهتمام، فيما الكلمات تخترق أذنيها رغم كل محاولاتھا في التمویه.

«نتحدث عن توحيد الأراضي العربية». أضاف صديقه بحماسة: «صدام فعل ما عجز عنه الآخرون. جميعنا يعرف بيقين مطلق أن الكويت المحافظة التاسعة عشرة للعراق». أشار صاحب النظارات إلى المقال: «انظر لتصريحاته. خطوة نحو الوحدة العربية. أليست هذه لغتنا الحقيقية؟ كفانا تجزئة!» عضت نسرین على أسنانها غضبًا. فانتفض الألم في ضرسها. التفتت نحوهما. وبفرنسية متقنة قالت: «هذا الرجل طاعون لا يترك لنا سوى القليل من الأوكسجين. يتحدث عن الوحدة العربية وقد احتل بلدًا عربيًا بالدبابات!»

«أنتِ فرنسية لا تفهمين السياسة العربية». رد المغربي بخبث. «الكويت كنز عربي واجب العودة للأمة. لماذا تستأثر أسرة واحدة بكل هذه الثروات؟»

بنبرة قاطعة أضاف صديقه: «صدام فعل الواجب. وعلى أيّ زعيم عربي شجاع اتخاذه. موقف سيوحد الأراضي ويحمي ثرواتها من النهب الغربي».

ضحكت نسرین ضحكة مريرة: «وماذا عن الكويتيين؟ عن العائلات المشردة؟ عن البيوت المدمرة؟ أنتم تتحدثون عن الوحدة وأنا أتحدث عن أرواح أزھقت!»

«تضحيات ضرورية، لا بد منها». ردّ أحدهما بنبرة فلسفية صبغها الجهل. «في سبيل المشروع القومي الكبير، ليذهب العالم بأسره، إلى قبر وبئس المصير».

«حقاً؟» قاطعته نسرين. «وكأنّ العراق أفضل حالاً مع صدام؟ هل تعرفان كيف يعيش العراقيون تحت حكمه؟ أنتما تتفلسفان من مقهى باريسي فاخر، بينما يموت الناس في الشوارع هناك!» تبادل المغربيان نظرات الارتباك. ثم لاذا بالضحك، عادة العرب أمام الحقيقة المزعجة.

«فرنسية حمقاء، بلدها يحتل نصف أفريقيا، وتحدث بصلافة عن السلام». همس أحدهما لرفيقه بعربية ركيكة كشفت زيف مرجعياته وهو يظن جهلها العربية تماماً.

«اصمت لئلا ترمينا حكومتها على الحدود نتسول رغيّف الخبز». حدّره صديقه. ثم توجه لنسرين مازحاً لمدارة حماقته بغباء كشف عن نفسه: «نحن العرب، سيدتي، لمّا ينفد مخزون أعدائنا، نكتشف عدوّنا في المرأة». بوجه ممتلئ بازدراء بارد سألت: «إذن أنتما عريان؟»

فجأة، لفّ أحدهما الجريدة ودسّها تحت إبطه وخرجا يتعثران. رأت في ظهريهما خريطة سياط لجلاد عربي آخر وبزّكة وهم قومي، وحلم وحدة عربية تبرر الجرائم. حلم يراه المثقفون من شرفات المقاهي الباريسية.

المثقفون لم يروا الدبابات في شوارع الكويت، لم يسمعوها
صرخات المدنيين، لم يشهدوا تحوّل المدن سجوناً. ولم يروا الدم
في شوارع بغداد، لم يدفنوا أحياءهم تحت جسر الماجديّة.

غاضبة خرجت نسرین من المقهى. ألم الضرس يطعنها بخنجر
مسموم. التوتر والانفعال من المناقشة جعل الألم لا يُحتمل.
ضغطت على وجنتها المتورمة. راحت تسير في الشارع بخطوات
متعثرة. حاولت تذكر عنوان أقرب عيادة أسنان.

إعلان في الجريدة العربية التي طالعتها أمس عن دكتور لبناني
في الحي اللاتيني يتحدث العربية، استرجعته فجأة. ربما يكون أكثر
تفهماً لحالتها من الأطباء الفرنسيين المتعاليين.

استعادت نسرین حوارها مع إيفيت صباح ذلك اليوم، في شقّتها
بحي سان جيرمان، حين قالت لها: «عندما يتكرر الألم في حياتك
بصوره المتعددة، فاعلمي أنك تخضعين لصناعة إلهية تعدّك لحدث
عظيم».

هكذا أقنعت إيفيت نسرین بتحمّل ما لا يُحتمل، محوّلَةً هشاشة
آمالها بحياة طيبة إلى فلسفة باهتة عن المعاناة.

لكن الألم لم يكن فلسفياً هذه المرة. استسلمت له من جديد -
وحش ضارٍ ينهش أعصاب سنّها، يمزقها بأنيابه المدبّبة، يجعلها
تتلوّى في فراشها طوال الليل عاجزة عن النوم.

كانت نسرين تكره فكرة زيارة الأطباء. تراهم غرباً تنقر في
جثث المرضى بمناقير بيضاء. لكن السنّ المتمرد لم يترك لها
خياراً.

أمام بناية العيادة الفخمة في الحي اللاتيني وقفت. تتأمل اللوحة
النحاسية التي تحمل اسم الدكتور جورج نجيب. تلمست وجنتها
المتورمة بأصابع مرتعشة. دفعت الباب الزجاجي ودخلت.
موظفة شقراء استقبلتها بابتسامة مصطنعة شبيهة بإعلانات
معجون الأسنان. «مدام، هل لديك موعد؟» ردّت نسرين بإيماءة
فقط. الألم جعل الكلام عذاباً.

بعد ساعة من الانتظار، نادى الممرضة اسمها بلكنة روسية
جعلت اسم "صوفي" يبدو غريباً على مسامعها. ثمّ قادتها الممرضة
عبر ممر ضيق تعبق فيه رائحة المطهرات والخوف المكتوم.
رجل في الخمسينيات استقبلها. شعر مصفف بعناية وربطة عنق
حريرية. «تفضلي، تفضلي». قال بلهجة لبنانية معطرة بنكهة
باريسية. «أنا الدكتور جورج، هاجرت من بيروت أيام الحرب
الأهلية».

لم تجد فيه ما يشجعها على التواصل معه باللغة العربية. زمت
شفتيها من الألم وقالت: «أنا فرنسية لا أفهم ما تقول». أجابته
برود. أصيب بالذهول من حديثها. أجلسها على كرسي الفحص.
بيدٍ باردةٍ، مرتعشة بدأ يتفحص فمها. ربما من إرهاق أصابه
لعمل يوم متواصل. وربما من أثر الويسكي المختلط برائحة

النعناع. راح يثرثر عن نجاحاته في باريس. عن شقّته في الدائرة السادسة عشرة وسيارته المرسيدس.

«آه، وجدتها!» صاح كمن اكتشف قارّة جديدة. «هذا الضرس يحتاج لحشوة عميقة، ربما جذرية». لاحظت نسرين أن يديه بدأتا تتحركان بنمط غريب، حتى حامتا قريباً جداً من وجهها أكثر من اللازم.

«لحظة من فضلك مدام، ابقِي ثابتة». تحرّك باحثاً حوله عن شيء تجهله، ثم عاد حاملاً حقنة التخدير. نظرات شبة تتجول في عينيه. «ستشعرين بوخزة بسيطة فقط». همس وهو ينحني فوقها. «يا لهذا الجمال المميز. كيف لعظم بسيط أن يجروء على إيذاء هذا الوجه الفاتن؟»

نسرين بدأت تشعر بالاختناق. رائحة عطره الثقيل. أنفاسه القريبة. رائحة الويسكي النفاذة. نظراته المتسللة إلى صدرها. وبحركة عفوية مدروسة، حاول تمرير ظاهر يده على ثديها. تلك اليد التي يزينها خاتم فيروزي براق.

بإبهامه ضغط على شفتها السفلى بحجّة تثبيت الفك قبل الحقن. «عيناك ساحرتان!» همس وهو يتهياً لحقن المخدر ببطء متعمد. «يمكنك العودة في موعد خاص بعد إغلاق العيادة».

في تلك اللحظة، انفجر بركان الغضب المكبوت في داخلها. كل الإهانات التي تعرضت لها كمهاجرة. كل التحرشات التي

صمتت عنها في العراق. تحول كل ذلك إلى صفعه قوية على وجهه المتعرق.

«وصخ!» صرخت بلهجة عراقية غاضبة. بصقت في وجهه بصقة حملت كل احتقارها لهذا النموذج المشوه من المغترب العربي. للحظة تحجّر الطيب. ارتد للخلف مذهولاً. أسقط صينية الأدوات التي تناثرت محدثة ضجيجاً هائلاً. «سأتصل بالشرطة!» صرخ وهو يمسح وجهه. وكردة فعل ذكية اختفت نسرین بعد دفعها الممرضة الشقراء جانباً. اقتحمت قاعة الانتظار، ومنها إلى الخارج. في شوارع باريس ركضت. كعادتها في الاختفاء في كل المواقف التي تهدد أمنها. توقفت لتلتقط أنفاسها. ألم الضرس كان قد تلاشى. كأنّ جسدها قد قرر مكافأتها على موقفها.

«يا أمي، يا خديجة». ناجت نفسها وهي تمشي. «كم كنت محقة حين أخبرتني عن بعض الرجال يلبسون ثياب الحضارة وقد أخفوا تحتها قلوباً متعفنة». وكالعادة، كان هروبها هذه المرة انتصاراً جديداً، فصفعتها كانت رسالة واضحة لكل من يرى في غربة المرأة فرصة لجعلها فريسة سهلة.

(١٨)

"باريس / كانون الأول / ١٩٩١"

انقضت سنتان من عمرها سجينة فضاء مفتوح، حر، ومتحرر -
سنتان ثقيلة مرّت تجرّها على صدرها بثقل صخرة سيزيف. وفي
ليلة باريسية عضّ الصقيع فيها أطراف المدينة، وتناثرت قطرات
الثلج على النوافذ، أزاح رنين الهاتف صمت الشقة المطبق.
تركت إيفيت كتابها جانباً، وهرولت نحو الرنين المُلح. أجابت
بلكنتها الفرنسية المطعّمة بالعربية، ثم عتمت ملامحها.

«مسيو سرور؟ أهلاً، كيف حالك؟ نعم... هي هنا». التفتت
نحو نسرين الجالسة قرب النافذة، ساكنة كلوحة زيتية، تتأمل
بلورات ثلجية تنقر على الزجاج. «نسرين... سرور من العراق يريد
التحدث إليك!»

خَطَّتْ نحو الهاتف بترددٍ، كمن تسير على حقل ألغام. عبر
آلاف الأميال، تدفق صوت سرور محملاً بهدير وجع يثير
التساؤلات، قادماً من الماجدية المشخنة بالجراح.

في ركن الصالة، تشابكت أصابع إيفيت وشارل بصمت. راقبا
وجه نسرين وهو يتحوّل أمامهما إلى لوحة بألوان عدة.

كان صوت سرور محملاً بأنباء الماضي الذي حاولت نسرين
نفية وطمره ولو مؤقتاً: «نسرين... هل أنت بخير؟» سألتها بصوت
متهدج فأجابته بشهيق كاد أن يبتلع اتصالات العالم بأجمعها.

«الحمد لله أن استطعنا الاتصال بك. منذ اجتياح صدام للكويت وطرده منها والعالم كله يُضيق علينا الخناق. صرنا محاصرين كالأيتام على موائد اللئام».

ومن سلسلة أخباره التي حولتها إلى كتلة من طين تصغر وتتلاشى: «عثرت الشرطة على جثمان جمال بعدما تمردت مياه دجلة، ونبشت أواجها الغادرة طين الضفاف الذي لفظ أسرارهِ - ذلك الطين الذي عانق جسده طويلاً. فتزحلق عائماً في دجلة بهدوء».

أضاف بذهول: «ومما أذهل القوم، أن جثمان جمال بدا كأنّما خرج للتو من غفوته - تعانق شفّتيه ابتسامة غامضة، وتكسو ملامحه سَكينة غريبة. لم تنل منه عوامل التحلل، كما لو أن الأرض حين احتضنته حرسَت جسده من الفناء».

تجمّدت أطرافها وهي تستعيد تلك الليلة المشؤومة، حين فارق جمال الحياة بين ذراعيها في ذلك المخبأ الكارتوني البائس الذي صنعه چوبلّه، وأطفال الحي. مات فيها شيء من الحياة وربما ماتت كلها رغم موتها للمرة الألف فيما مر من حياتها في الماجدية.

وبصوت ثكلى قالت متوسلة: «سرور... هل تستطيع وضع بعض الورد على موضع قبره تحت الجسر؟ كان يحب الجوري الأبيض، ضعها بأية طريقة شئت حتى لو تركتها طافية عند جرف النهر المحاذي لموضع قبره».

«هذا في حالة لو عثرنا على وردة واحدة في هذه المدينة المحاصرة يا نسرين. البيوت تحرق أبوابها للتدفئة، والبنزين صار نادرًا كالعافية. الرغبة حلم، والماء ينقطع أيامًا. إلا أنني سأبحث عن وردة بيضاء مهما كلفني الأمر».

صمت سرور للحظات ثم قال بصوت متهدج: «نسرين... الشيخة صالحة...».

خمدت نبضات قلبها. مرت أمام عينيها صورة المرأة الكويتية العراقية التي أنثشتها روحًا وجسدًا من الماجدية إلى فرنسا، تلك التي كانت لها أمًا ثالثة بعد جميلة وخديجة. «أعدموها؟» تساءلت والدمع يحرق عينيها.

«نعم. بعد دخول الجيش العراقي الكويت، قادت الشيخة مقاومة سرية، فوشى بها أحد "البدون" المتعاونين مع صدام، ليستدرجها هذا العميل بحيلة جريح يحتاج مساعدة. كانت تؤمن بأنه فخ، ورغم ذلك ذهبت كي لا تشعر بالندم لتقصير محتمل».

شهقت نسرين متخيلة الشيخة صالحة بقامتها المديدة وحجابها الكويتي الأنيق وهي تتلقى ضربات الجنود العراقيين.

في مبنى الإذاعة الكويتية، أقاموا محكمة صورية أمام كويتيين أجبروا على الحضور. سألها ضابط عراقي يتلمظ بلسانه مصوبًا نظراته لجسدها الممزق من التعذيب: أأست عراقية الأصل؟ كيف تخونين وطنك الأم؟

بدأت نسرين تلطم وجهها ببطء، ثم بحدة متزايدة، كعراقية ثكلى اعتادت العويل وخمش الخدود خلف كل محنة فقد تلح في استفزاز مآقي عينيها.

أجابته الشّيخة: «أنا عراقية نعم، والعراق ليس صدام. الكويت وطني مثلما العراق وطني». صفعها، فانتفضت امرأة من وسط الجمهور بالصراخ معترضة، فأطلقوا النار في الهواء لإرهاب الجميع. أجبروهم على الهتاف: الكويت المحافظة التاسعة عشرة... عاش صدام.

وقفت الشّيخة مرفوعة الرأس. قبل إعدامها، نظرت بشجاعة وتحدي إلى الكويتيين وقالت: «لا تخافوا... الحق سينتصر مهما طال زمن الظلم».

انزلت نسرين من الكرسي إلى الأرض، تنتحب بشدة. لا صورة شاخصة أمامها سوى وجه الشّيخة صالحة بابتسامتها الواقعة: «نسرين، أنتِ الأمانة التي حملتها من الماجدية إلى عالم الحرية». شاهدها الحاضرون وهي تحرك شفتيها بالشهادتين قبل أن يصدر الضابط أوامره بإعدامها «إرم» وبكلمة واحدة ودّعت الحياة لقد زُفت شهيدة لم تنحن. جميلة هي النهايات الشجاعة يا نسرين... هنا صارت الشّيخة رمزًا للمقاومة، وقصّتها تُروى سرًا وعلنًا في كل بيت كويتي.

«كانت أكثر من أمّ لي...». تمتعت نسرین بصوت مخنوق، فتنهّد سرور بعمق، وتدفقت من صدره حكاية المأساة الأخرى التي سكنت زوايا الماجدية.

وفي فجر خريفي، استيقظت فيه أمّ راضي قبل الديكة، كعادتها منذ ثلاثين عامًا. ملأت قدر الباجة برأس عجل ضخّم، غير أنها نسيت غسله بماء الليمون ثلاث مرات كما هي عاداتها. بدأت تُشعل النار تحت القدر النحاسي الكبير الذي يتذكر تاريخه "فسوة حسون!" كما كانت تردد دائمًا بمأثورها الشعبي. فتسربت رائحة الطبخ من شقوق الباب المتهالك والنوافذ الخشبية، تُوقظ زبائن البار بوعده وجبة تنسيهم سمّ الليل.

عمدت إلى زر الإضاءة متطلعة فيه مليًا دون سبب معقول يدفعها لذلك، ثم قامت بإطفائه قائلة: «اخرس يا عدو!»

كان المشهد معدًا للمأساة، والقدر وحده الذي خالف طبيعة الأشياء. فارت مياه الباجة بسرعة غريبة، فثمة أرواح عطشى كانت تُسعر النار. فاضت تلك المياه الساخنة الدسمة وأطفأت اللهب دون ملاحظة أمّ راضي المنشغلة بمحاولة نوم يعينها على خدمة الزبائن. تسرّب الغاز صامتًا، شبحًا لا تُبصره إلا عين المصائب. ومن جانبها واصلت أمّ راضي محاولاتها لغفوة متواضعة باسترسالها بلطمية «يا محلى الوداع بهالمسيه» من مأثور الرادود الحسيني "سعدون طابور" غافلة نامت عينها عن الشعور بالغاز الذي كان يلفها بغيمته القاتلة.

اقترب شارل من إيفيت، واضعاً يده على خصرها بتضامن صامت. كلاهما يراقب نسرين تتحول أمامهما إلى وجودين، جسد في باريس، وروح تطوف بين أزقة الماجدية البعيدة.

متخلصاً من عبء ثقیل، ألقى سرور ما تبقى في خرجه من أخبار موجهة: دخل أبو جوربة الغرفة يستعلم عن الباجة، تثقله الهموم، لم يعلم بأنّ الملائكة كانت تشاركه الدموع. أسرع نحو المطبخ، يستعلم عن جاهزية الباجة، وحين فتح الباب احتضنه الظلام فمدّ يده تلقائياً نحو زر الإضاءة.

حانت لحظة كُشف فيها عن حظّ الطيبين السيء، انفجر المكان شمساً صغيرة ولدت بين الجدران. فاستحال جسدهما ذرات نور في الهواء. رأى وليد ومضة النار وباب المطبخ يفتح جناحيه باتجاه الزبائن، فهرع نحو باب المطعم.

نادى بصوت متهدج: «أم راضي، أبا جوربة». وبين السنة اللهب الراقصة، توغل بحثاً عنهما. جسده رفض الانصياع لقوانين الاحتراق. بحث ملياً ومع ذلك لم يجد لهما أثراً، فقد تبخرا تماماً. عجبٌ ودهشةٌ خامرا وجود الناس بعد الانفجار. رائحة الباجة والهيل والقرفة انتشرت في أرجاء الحي كله، تسلّلت إلى بيوت الفقراء والموسرين، وظلّت عبقة أياماً. والأغرب، وردة حمراء نبتت من بين الأنقاض، لم تذبل رغم لهيب الشمس القاسي.

وفي أربعينية رحيلهما، اجتمع سكارى المدينة وعامتها عند الأنقاض التي لم يجرؤ مسؤول على إزالتها، فألفوا هناك عجوزاً

بعصابة، تجلس قرب الوردة تغني بصوت خافت مزيج من صوت حسين نعمة وحمزة الصغير. كلما اقتربوا منها، تلاشت هي والوردة في الهواء، تاركة وراءها عطر الياسمين الذي كان يحبه أبو جورية. أحلام متواترة بين الناس قطعت الشك باليقين أن البارات، مساحات البوح والتخلص من الإضافات الروحية المؤلمة، ليست إلا أماكن مقدسة تستحق الرعاية، لذلك خرج الكثير من أهالي المدينة بمظاهرات صاحبة بعد الحادثة بإعادة إعمار بار أبي جورية والتبرع بمردوداته إلى الدول الإسلامية الفقيرة.

سمعت نسرين تراويل الوجد من على لسان سرور فخدمت روحها، ثم انفجرت بنشيج حاد كان يتصاعد ملولاً من أعماق ماضيها. تدفقت كلماتها طلاس محفورة على جدران معابد بابلية: «سور سليمان... سور سليمان».

بكاؤها طقس غامض، رقصة عراقية تتلاشى فيها حدود الوجود والعدم. تعلمت معها كون الموت دائرة، لا خط! وأن تحولات الجسد لغة الكون الأولى في حديثه عن الخلود.

إيفيت ارتعدت، وجهها قمر فرعوني مبلل بمطر إسكندراني. تبادلت مع زوجها نظرات رعب قلقة. شيء يتسلل إلى الغرفة، أرواح الماجدية عبرت البحار تحوم حول نسرين في شقتهم المظلمة على ضباب السين قادمة من جولة في طوابق برج إيفل الأسطوري. كانت نسرين تستمع إلى صوت سرور المتقطع عبر الهاتف الدولي وهو يروي لها مصير آخر ما تبقى من معارفها في العمارة

المحاصرة، وعلى وجهها تتراقص ظلال من ألم وحنين لاحظها إيفيت وزوجها ميشيل، فتبادلا نظرات قلق صامته وهما يراقبان دموعها تنهمر بصمت على وجنتيها المصفرتين.

كان خالك كَرِيم شيشه آخرَ ما تبقى من عالم تناثرت أوراقه في مهبطِ الحصار - حصار الإخوة الأعداء.

بعدها فقد جميلة، وتلاشت ظلالُك بعيدًا عن ناظريه حيثُ استقرَّ بكِ المقام في باريس، وشوهد جمال طافيا على صفحة دجلة، وانتهت حكاية أم راضي وأبي جوربة بتحوُّلهما عطرًا ووردة... انكسر داخله شيء لا يُرْمَم.

وفي صباحِ شتائي قارس، خرج من بيته المتهالك ولم تره العيون بعدها. امتد غيابه شهرًا طويلة حتى همس الناس بمغادرته الحياة.

لكن ما حدث بعد ذلك فاق كل توقعاتهم. ففي إحدى الليالي، ظهر فجأة كطيِّف متحوِّل أمام أنقاض بار أبي جوربة، واتخذ من الركن المتبقي من الجدار الشرقي محرابًا يلوذ به.

في الأماكن ذاتها التي كان يترنح فيها سكرًا، صار يسجد باكيًا، يقبلُ التراب المختلط بزجاج الكؤوس المكسورة مُعَقَّرًا جيئنه، مُتَخَيِّمًا بيمينه، مُصَلِّيًا إحدى وخمسين ركعة، رافعًا يديه للسماء بضراعة رجل عرف الندم متأخرًا. «استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم»، كان يرددُها مع كل سجدة، بينما يطوف المارة حوله، يتبادلون النظرات الحائرة. بعضهم يضع النقود بجانبه ظنًا منهم أنه

متسول، فيردها إليهم بعينين دامعتين: «لا أريد شيئاً غير رضا الله
وسماح جميلة».

وفي رمضان، حين يتردد صدى الأذان، كان يفطر على ثمرة
واحدة وقليل من الماء. وفي المكان نفسه الذي كانت أم راضي
تقدم فيه صحون الباجة للسكاري، صار يوزع التمر والخبز على
الفقراء المعدمين، كأنه يغسل بالصدقات عتبات الماضي. وعند
الفجر، حين يصدح صوت المؤذن، كان يقف مستقبلاً دجلة، يبكي
بصمت، كأنما يعد الساعات لرحيل مرتقب. ثم ينقلب نحو
الماجدية مناجياً: «يا رب، خذني إليها. أخبر جميلة أنني تبت. قل
لنسرين أن خالها عاد للطريق المستقيم. اغفر لنيروز المخبل
هذيانه» ثم يضيف بصوت متهدج: «واغفر لـجوبله فشورته الشهيرة
"كَلَمَن مَيَطُش لبيت أمه - خنجر مكسور بكس أمه" ولأم راضي
إدمانها على تراثيل اللطم الموروث التي خلّفت كربلاء جديدة،
ولأبي جورية إثمه بقتل زوجته البريئة».

دهرٌ مرّ وهو يجتر هذه الطقوس بانغماس لا يهن، حتى وجدوه
في اليوم الأخير من رمضان ساجداً لا يتحرك. كانت جبهته ملتصقة
بالأرض، وذراعه باسطتان للأمام، كأنه يتوسّل العفو الأخير. وبين
أصابعه المتبيسة، كانت تستقر صورة باهتة لجميلة، وعلى وجهه
سكينة غريبة، كمن وجد أخيراً إجابة لسؤال طال انتظاره. وفي
حمى اختلاق القصص قالت العجائز: قد نزلت الملائكة بوفد كبير
لتأخذ روحه في ليلة القدر وقد سُمِعَت زغاريدهم وهي تبارك هذا

الرجل مشيعة جثمانه نحو السماء. وقال قدامى زبائن البار أن كريماً
سمع ضحكة أخته جميلة تناديه من العالم الآخر فلبى النداء. هكذا
رووا قصته، وهكذا أرادوا أن يفهموا رحيله. كُرِّمَ شيشه مات كما
عاش: وحيداً، معزلاً، في حضرة أطيافٍ أحبها فارقت كسرب حمام
وجد منفذاً في قفص الحياة فطار مبتعداً.

تساقطت دموع نسرین كحبات ندى على وجنتيها، وخالها كريم
يطفو في ذاكرتها - وحيداً في لحظاته الأخيرة، يحمل حسرة الفراق
كجرح لا يندمل.

نهضت إيفيت بصمت، خطواتها تهمس على البلاط البارد.
عادت تحمل منديلاً ورقياً، تضعه بين أصابع صديقتها المرتجفة.
عينها - مرأتان تعكسان ألم المصيبة التي سقطت على نسرین
كصخرة في حوض تيزاب هادئ فاحترق ما حوله.

«مزاحم يطاردك يا نسرین... شبح لا تردعه الحدود. يبحث
عنك بين الأحياء والأموات. قبل أيام شاهدت في عينيه وهج رجل
يتنفس ثأراً». خفض سرور صوته حتى كاد ينطفئ، ثم أضاف:
«الشرطة غارقة في حيرة عميقة. لا تفهم سر موجة الموت التي
اجتاحت الماجدية... جمال، خالك كُرِّم، أمك جميلة، أم راضي،
أبو جورية... موت أسود يحصد الأرواح في موسم دم، إلا أنت
غياب دون جثة».

بين نهديها، تلمست نسرین القلادة، تعويذة وضعتها أم راضي
على صدرها قبل الغياب. تمت بصوت ينبع من ركام أنقاض:

«الخوف يا سرور... يقتل الروح قبل أن يصل إليها القاتل. لن أموت خائفة».

مرّت لحظة صمت خالدة، ثم انطلقت صرخة نسرين سكيناً في خاصرة البوح: «زدني! أقول لك زدني!» قالتها درويشاً يتلذذ بآلم الوجد، يتمسح بجمرات الشوق.

«لم يبق ملعب في الماجدية». تهّدج صوته. «هدّموه بجرافاتهم، تركوه ساحة جرداء تذرّعها الكلاب والأفاعي. صار مقبرة لذكريات الصبا. الشارع يتحب، يطوف الشباب حوله مع كل أذان.

كدت أنسى، علاهن هي وابنها رهيف شوهدا مذبحين فوق "المسنايه" لأسباب مجهولة وغامضة، وقد طوّقت رقبتيهما بحيرة من دم متخثر، وألصقت بجبهتيهما ورقة مكتوب عليها: «لكلّ أجل كتاب!!»

صمت لحظة ثم تابع: «والسلطة، بعماها المتطرف، تخطط لصرف دجلة بعيداً عن الماجدية... يزعمون أن الماجدية صحراء في أصلها، يسعون لمحو ذاكرة المكان».

حين انقطعت المكالمات لسبب تجهله، غرقت الشقّة في صمت قادم من الجحيم. انسحب ميشيل نحو مقعده في أقصى الصالة بخطوات متعثرة. فقد شاهد بوابة مملكة مرعبة تفتح. أما إيفيت، فانسابت دمعة وحيدة على خدّها المصري. شاهدت نسرين بوجه آخر، كاهنة لعالم مطوي كطي السجل للكتب، حارسة أسرار

ملطخة بالدم. سادنة لهمساتِ تاريخِ شرقٍ يحترق، وغرب لا يفهم
لغة الوجع. بمشاعر صادقة، صارت نسرين في واقع إنسانيتهما
تمثالاً حيًّا للحزن، مما دفعهما بيقين مطلق للتعاطف معها، فأصرّا
على حمايتها، ولو ضمن سياقات المنظمة وتوجيهاتها.

(١٩)

انتقلت نسرین إلى شقّتها في "حي الماريّة"، حيث منحّتها المنظمة بإلحاح من إيفيت ما تحتاجه: مساحة للفن والنحت. الشقّة بسيطة، سقفها عالية، وأصوات الشارع تتسلل إليها همسات متقطعة. في الركن المواجه للنافذة، حولت المساحة إلى ورشة.

وضعت على أرضية الركن ومقابل جدرانها منحوتاتها الأولى على قواعد خشبية. كل تمثال حكاية صامتة عما تحمله من ذكريات. يد مطبقة على نفسها تحتضن السر. وجه بلا ملامح محددة يتراوح بين الحزن والتذكر. جسد في حركة داخلية، التفاف روح حول ذاتها.

الضوء يسقط على المنحوتات بزوايا مختلفة كل مساء. تارة تبدو قاسية، تارة حنونة. نسرین تفهم أن الحقيقة تتغير بتغير الضوء، وتبقى أصيلة رغم كل شيء. الظل أيضاً فن، وجود دون حضور كامل، حياة دون عيش كامل، لكنها موجودة.

إيفيت تزورها أحياناً، تقف أمام المنحوتات بصمت فاهم. مرة سألتها: «هل تعتقدين أنك ستنسيتها؟»

نسرین ابتسمت: «النسيان رفاهية. أسعى لتحويل الذاكرة إلى شيء آخر. شيء لا يؤلم بنفس الطريقة.»

في الليل، تستيقظ من كوابيس مرعبة، تنهض هاربة بروحها فتشكل الطين. أصابعها تتحرك بمعرفة عميقة. في الصباح، تنظر إلى ما فعلته—أحياناً تستكمل، وأحياناً تترك الناقص مفتوحاً.

الشقة أصبحت محراباً صغيراً لطقس التحويل: الألم يتحول إلى شكل، الذاكرة إلى لون، الصمت إلى وجود. هذا هو الفن، تحويل الحياة إلى شيء يمكن الحياة معه.

في المدينة تحركت بحذر الطريدة. تُغير مساراتها دوماً. تختار أوقاتاً مختلفة للخروج والعودة. تتجنب النظر في وجوه المارة. طقوس تعلمتها من جمال قبل اختفائه. أصبحت جزءاً من حياتها اليومية.

"نساء في المنفى"، هكذا أسمت سلسلة منحوتاتها الجديدة. كل تمثال يحكي "سالوفة" امرأة ضاعت بين وطنين دون إعلان صريح عمن تكون تلك المرأة. تحمل جسدها في باريس وروحها معلقة على سعف عمتها النخلة. أتقنت نسرين دور المرأة الفرنسية العائدة من غربتها. ذلك الدور الذي فرضته عليها الضرورة. حتى كادت أن تُصدّقه، بل هي قد صدقته وآمنت به ولو جزئياً.

مع أول معرض لها في صالة صغيرة، تجلّت منحوتتها الصغيرة التي أسمتها سرّاً بالماجدية - امرأة برونزية تقف على جسر، تحمل فوق رأسها سلّة معلقة في الفضاء بقماط رضيع. نصف وجهها في النور ونصفه الآخر في الظل. شاهدة على قبر نسرين الافتراضي.

رفضت بيعها رغم العروض السخية. مُعللة ذلك بقولها: «أبيع المرء قبره؟»

في ليلة الافتتاح، وهي تشرح لضيوف المعرض فلسفتها في النحت، ولكنها فرنسية متقنة. لمحت رجلاً يقف عند المدخل. يرتدي نظارات سوداء رغم العتمة الساحرة. للحظة، تصلب الدم في عروقها. اختفى الرجل بين الحضور. وحين انصرف آخر الضيوف، قدّم لها صاحب الصالة مطروفاً أنيقاً. أخبرها أن أحد الحضور قد تركه لها.

داخل شقّتها، فتحت المطروف بأصابع مرتعشة. بطاقة بيضاء تحمل كلمات بخط عربي أنيق: «صوفي، أو أيّاً كان اسمك... كم أنت جميلة».

سقطت البطاقة من يدها. وريقة زاوية يتقاذفها هواء المروحة ركلاً. محدثةً صوتاً اقشعر له جسدها.

«وجدني مزاحم أخيراً!!» اقتحم رأسها النافذة صارخة في المارّة. وبسرعة يائس يخاف زلزالاً جمعت بعض أغراضها. حزمت حقيبة صغيرة وأخذت منحوتة «الماجدية» معها. تميمة حامية. كتبت رسالة مقتضبة لصاحبة العقار. هبطت الدرج ظلّاً هارباً من نفسه.

في شوارع باريس، كان المطر الخفيف يغسل المدينة بنعومة. يمحو خطوات النمل البشري، ويخفي الدموع خلف ستار رقيق من

الماء. مشت نسرین دون وجهة محددة عبر أزقة الماریّة المتعرجة.
خطواتها بطیئة متردّدة، وقلبها یحمل ثقل قرارات مؤجّلة.
ومن غیر أن تعي اتّصلت بإیفیت لتخبرها بما حدث معها فی
الشارع. أجابتها إیفیت بنبرة هادئة تحمل أكثر ممّا تبوح: «أوهام
الماضي العنيدة تخترق دفاعاتك. لا تحزني واهدئي. المنظّمة
تراقب كل شيء».

التقت عینا إیفیت بعینی زوجها شارل الذی كان یجلس قریباً
منها. هزّ رأسه بأسف واضح لما یجری من خداع مع هذه الفنّانة
التي تحمل اسم نسرین.

وسط شرودها، انتبهت لحضور إحدى الجارات الأنیقات، التي
كانت تتبادل معها تحیات الصباح بمودة. ابتسمت المرأة وألقت
علیها سؤالاً بريئاً: «نتظر معرضك الثانی بشغف، متى ستشرف
بحضوره؟ أعجبتني أفكارك الجریئة».

كلمات المرأة جدّدت الأمل فی ذاتها فتسلّل إلیها شعور
بالذنب. لماذا هذا الخوف المستمر؟ لماذا التراجع والانهيار أمام
كل تحدٍّ؟ علیها أن تقتحم الحیاة وتختبر قدراتها على البقاء. علیها
مواصلة ترويض هذا الجحیم الداخلي. راحت توبّخ نفسها الخائفة
بقسوة وتکیل لها شتائم مخزية. استمرّت حتی هدأت وعاد إلیها
وعیها الصافي. ذلك الوعي الذی حملها من الكويت إلى باريس
بحثاً عن حیاة جدیدة.

بدأت تشعر أن باريس حقًا موطنها الآن. شقّة الماريّة سقف يحميها وجدران تحتضن أحلامها. هنا مكانها الذي يجب أن تحافظ عليه وتعلن فيه وجودها الحقيقي. ثم توقفت وسط ساحة صغيرة. قطرات الماء تداعب وجهها المتعب وتعمد روحها بطمأنينة مؤقّنة.

رفعت رأسها إلى السماء وقالت بصوت واضح: «لا، لن أهرب مرّة أخرى».

القرار يتشكّل في رأسها بوضوح تام. ينمو ببطء مثل تمثال يولد من كتلة طين خام. لقد آن الأوان لتواجه كل شيء. الماضي المتشكل بوجه مزاحم الذي يطاردها عبر المحيطات والقارّات، والحاضر بوجه ذلك الرجل الباريسي الغامض الذي يظهر ويختفي في حياتها دون تفسير، والمستقبل المجهول الذي ينتظرها مع طفلها الذي تجهل حتى جنسه: بنت، أم ولد.

استدارت وعادت أدراجها إلى الشقّة. وضعت الحقيبة الثقيلة جانبًا وتنفّست بعمق. اقتربت من منحوتتها الماجديّة وقبّلتها بحنان. عادت إلى طاولة النحت وجلست أمامها بعزيمة جديدة. وضعت كتلة كبيرة من الطين الأحمر أمامها وحدّقت فيها طويلًا. هذه المرّة ستصنع تمثالًا لامرأة مختلفة تمامًا. امرأة لا تهرب من مواجهة الصعاب. امرأة تجيد المقاومة والصمود. ليست نسرين الخائفة ولا صوفي المتردّدة. إنّما امرأة ثالثة جديدة تجمع بينهما

وتتجاوزهما. امرأة تحمل كل تناقضاتهما وتحولها إلى مصدر قوة حقيقية.

المواجهة قادمة. كانت تعلم. تحسّ. تشعر أن ظلًا يقترب. قادمًا من نهاية نفق طويل. ورغم ذاك فهذه المرة لم تعد وحيدة. معها إزميلها الذي يحفر في الطين. كما حفرت الحياة في روحها. معها ذكرى جمال. صوت أمّها جميلة. حكمة خالها كَرِيم. صداقة إيفيت الصامدة.

وفي يوم أنيق بمساء ناعم نبعت نسرين شاخصة داخل غاليري "بيرونتان". تأملها الحاضرون بإعجاب صامت، عيونهم تتسع وتلتهم المحيط حين كشفت النقاب عن تمثالها.

«يا لهذا السحر! أي أصابع نسجت هذا الجمال المٌوجع؟»
صوت قادم من عالم آخر انساب خلفها كخيوط حرير، يحمل معه عطرًا ثقیلاً خدش أنفها. التفتت ببطء لتجد رجلًا فارغ الطول، يرتدي بذلة رمادية أنيقة، وينظر بعينين تحملان بريقًا غريبًا، مزيجًا من الفضول والمعرفة المسبقة.

«أشكركَ على كلماتك الرقيقة. عفوّا، هل التقينا من قبل؟»
سألت وهي تتفحص ملامحه، تبحث في أرشيف ذاكرتها عن وجهه.

ابتسامة واثقة ارتسمت على شفثيه: «جان بيير. ربما لا تذكريني يا... صوفي دوبوا. كنا متجاورين في الطائرة القادمة من

الكويت، قبل عامين بالضبط. أذكرين الرجل الذي انهار قرب نقطة التفتيش؟»

البرق الخاطف للذاكرة أضاء تلك اللحظة البعيدة. نعم، كان هناك. ذلك الفرنسي الذي جلس بجوارها، تبادل أطراف الحديث عن الفن والسفر والمنافي الاختيارية. أسئلة تتزاحم في رأسها: كيف تذكر كل هذه التفاصيل؟ وكيف عرف مكانها الآن؟

«الصدف الجميلة»، تابع وهو يشير نحو المنحوتة، «قرأت عن المعرض في الصحف. رأيت اسمك وصورتك، وهذا الأسلوب أكد لي أنك أنت... هذه الروح المعذبة التي تسكن في الطين. ربما نسيت أنني نحات أيضاً، وعالم آثار». دققت النظر في وجهه. هالة من الغموض تحيط به كضباب الصباح الباريسي. إجاباته تبدو منطقية على السطح، رغم أنها تُخفي أعماقاً لا تستطيع سبرها. ما الذي يدفع رجلاً لتذكر محادثة عابرة على متن طائرة؟ وما الذي جعله يتتبع أخبارها في دوائر الفن الباريسية؟

في الأيام التي تلت، بدأ جان يظهر في حياتها كنغمة متكررة في سيمفونية. في المقهى الصغير قرب الغاليري حيث تحتسي قهوة الصباح، كان يجلس في الزاوية المقابلة، مُنهمكاً في قراءة "لوموند". وفي متحف اللوفر، بينما تتأمل "الموناليزا" للمرة الألف، ظهر فجأة بجوارها يتحدث عن تقنيات دافنشي في مزج الألوان. في افتتاح معرض صديقتها "أنيت مساجيه"، كان الضيف المجهول الذي يعرف الجميع دون أن يعرفه أحد.

كان اقترابه محسوبًا كرقصة باليه، خطوة للأمام، خطوتان للخلف، دوران حول المركز دون اقتحامه. يسأل عن فتّها بذكاء الخبير، يستمع لإجاباتها بتركيز الدارس، يقدم ملاحظات تكشف عن عين مدربة وذائقة رفيعة.

«في منحوتاتك صدى لحضارات قديمة»، قال لها ذات مساء وهما يتمشيان على ضفاف السين، «كأن أرواح بلاد ما بين النهرين تسكن في طينك الباريسي».

«خيالك يسبح بعيدًا»، ردّت بحزم مدروس، «جذوري تمتد في تربة فرنسية خالصة. طفولتي تشكلت على إيقاع أغاني "بياف"، وخيالي نما في ظلال قصائد "رينيه شار". حتى عطري الأول كان من صنع "ديور"، وحقيبتني الشخصية ماركة "هيرمس بيركن"». صدمها بابتسامته التي بدت ابتسامة من يعرف سرًّا لا تعرفه هي عن نفسها.

مع مرور الأسابيع، تحوّل جان من مجرد معجب متحمس إلى راع فني ماهر. بدأ يحرك خيوطًا خفيّة في عالم الفن الباريسي، مكالمة هنا، توصية هناك، دعوة لعشاء مع جامع تحف نافذ. فتح لها أبوابًا كانت عصية عنها، قدمها لدوائر كانت مغلقة بوجهها. كل ذلك حدث بنعومة الحرير، كل ذلك تمّ دون أن تشعر بثقل المنة أو ذلّ الحاجة.

كان يتحرك في عالم الفن كسمكة في الماء، يعرف التيارات الخفية، يقرأ الإشارات الصامتة، يفهم ألعاب القوة والنفوذ. وكأنه

يملك خريطة سرية لمتاهة العلاقات المعقدة بين الفنانين والنقاد وأصحاب الغاليريات.

«لماذا تبذل كل هذا الجهد من أجل امرأة لا تتميز كثيرًا عن بقية النساء؟» سأله أخيرًا ذات مساء جمعهما في مقهى "فلور" الأسطوري، هذا المقهى الذي كان يحتضن نقاشات سارتر وسيمون دو بوفوار عن الوجودية.

أطرق للحظات، وهو يحرك ملعقته في فنجان القهوة برتابة تأملية، ثم رفع عينيه إليها: «منذ تلك الرحلة، منذ حديثنا العابر عن الفن كوسيلة للخلاص، عن الهوية المزدوجة والانتماءات المتحولة، أدركت أنك لست مجرد فنانة عادية. فهناك شيء استثنائي فيك، قوة كامنة تحتاج فقط لمن يساعدها على الانطلاق». في تلك اللحظة، ومضت في ذهنها صورة جمال وهو يحذرهما من الغرباء الذين يحملون الهدايا. هزت رأسها وأبعدت الفكرة. جان مختلف. أليس كذلك؟

(٢٠)

كانت مُتابعة جان لمسيرة نسرین الفنية تحمل دقة عالم يرصد تجربة مخبرية. كل معرض، كل منحوتة جديدة، كل مقال نقدي، كان يحفظ كل ذلك في ذاكرة منظمة. أسئلته التي تبدو بريئة كانت تكشف عن معرفة عميقة بتاريخها، بماضيها الذي حاولت دفنه تحت طبقات من الطين الباريسي.

لم تكن نسرین غافلة. أدركت أن وراء اهتمامه الظاهر خيوطاً أعمق تعجز عن فك شيفرتها. كان حضوره في حياتها كالماء الذي يروي العطش ويمنح الحياة، فيما يحمل في أعماقه خطر الغرق لمن لا يحسن السباحة.

اختياره للناقد اليهودي "فيليب بابلو" جاء بعد دراسة متأنية. قرأ كل مقالاته، تتبع مساره النقدي، فهم ميوله الفكري وضعفه أمام الجمال الشرقي. عرف أن بابلو، بحساسيته المفرطة تجاه قضايا الاضطهاد والتهميش، سيرى في أعمال نسرین أكثر من مجرد منحوتات، سيرى فيها صرخة حرية، نداء عدالة، ربما ثورة فنية.

«فيليب بابلو يريد أن يكتب عنك دراسة نقدية شاملة»، أخبرها جان ذات صباح، «مقال طويل في مجلة "الفن المعاصر". هذا سيضعك على خريطة النقد الأوروبي». رتب اللقاء بعناية موسيقي يضبط آلاته قبل الحفل. كل تفصيلة محسوبة، المكان، التوقيت، الأجواء. ثم جاءت الدعوة لزيارة شقته، بذريعة مشاهدة مجموعته

الخاصة من المنحوتات الجديدة. دعوة تبدو عفوية، وهي في الواقع جزء من نسيج محكم كان يحكيه بصبر.

وصلت نسرين في المساء المحدد، لتجد بابلو قد سبقها إلى الموعد. كان الناقد الفني يشع حماسًا، وعيناه تلمعان ببريق المستكشف الشغوف.

دخلت الشقة بحذر. وبعد تبادل التحايا، توقفت تتأمل المكان. استغرقت في استكشاف هذا الجمال المعماري الأنيق الذي أحاط بها من كل جانب. كانت شقة جان الواقعة في "مونمارتر" تحفة فنية متكاملة. جدران شاهقة تحتضن لوحات أصلية نادرة، ومنحوتات موزعة بذائقة عالية، وإضاءة مدروسة تسلط الضوء على جماليات كل قطعة فنية في المكان.

بصحبة فيليب، انطلقت في جولة بقيادة جان بين المعروضات الفنية. كان جان يشرح بشغف الفنان المتيقن بإبداعاته، مما شجع فيليب على طرح أسئلة تنم عن فهم عميق. أضافت نسرين ملاحظاتها الخبيرة، مثرية النقاش بتفاصيل دقيقة.

انساب الحديث بينهم بسلاسة، متنقلًا من الفن إلى الفلسفة، ومن تقنيات النحت المختلفة إلى جدلية الشرق والغرب في الإبداع المعاصر.

«الفن الحقيقي»، قالت نسرين وهي تتأمل منحوتة لامرأة تحمل العالم على كتفها، «هو القدرة على تحويل الجرح إلى جمال، الألم إلى أمل».

«المرأة النبيلة»، علّق فيليب وهو يحتسي نبيذه مع ضحكة تفتح المغلق بينهما، «عفوًا، ألا ترين أن هذا النمط من الفن يحصره في دائرة المعاناة؟»

النقاش احتدم، الأفكار تطايرت كالشرر، والنيذ الأحمر انساب في الكؤوس. ثم، فجأة، اجتاح جان برد عنيف. ارتجف جسده، شحب وجهه، واندفع نحو الحمام وهو يتقيأ بعنف.

في غيابه، تبدّل الجو كأن قناعًا سقط عن وجه الليل. فيليب الناقد المثقف، المتحدث البليغ، تحوّل إلى وحش آخر. عيناه اللتان كانتا تتأملان الفن بتقدير، صارتا تلتهمان جسد نسرين بشراهة. اقترب منها بخطوات محسوبة، الكحول أطلق فيه غريزة دفيئة.

«أتعرفين؟» همس بصوت أجش، «منذ أن رأيتك أول مرّة وأنا أفكر... امرأة بهذا الجمال، بهذه الروح المتمردة... تحتاج لمن يفهمها حقًا».

يده امتدت نحوها، أصابعه تشبّث بخصرها، وقرب شفّتيه من ثديها قائلاً: «أعشق الثدي الناعم المتدلي seins tombants».

رائحة النيذ الحامضة تفوح من أنفاسه. حاولت الابتعاد، فأمسك بها بقوة. تملّكها رعب عميق من تكرار كابوس قديم - من فكرة أن كل رجل مبتسم هو في أصله يخفي وحشًا خلف ابتسامته، ينتظر اللحظة المناسبة.

«ابتعد عني!» صرخت، فيما يده الأخرى تُمسك بقماش فستانها. صوت التمزق اختلط بصرختها فبان جزء من ثديها

فصدقت توقعاته لشكل جسدها. من الحمام انطلق جان كصاعقة. وجهه الشاحب من المرض احمرّ غضبًا. لم يتردد لحظة، انقض على فيليب بوحشية لم تتوقعها نسرین من نحات رقيق. الكلمات تتابعت، كل واحدة تحمل غضبًا أعمق من سابقتها.

«اخرج! اخرج من بيتي أيها النذل!»

فيليب لم يقاوم. تحوّل من مهاجم إلى جبان، انسحب متعثراً، يمسح الدم من أنفه، تاركاً وراءه امرأة محطمة ورجلاً يلهث غضبًا. على الأريكة، جلست نسرین ترتجف من عاصفة داخلية تمزق أوصالها وهي تلملم ثوبها سترًا لثديها. الدموع تأبى المجيء، تعلمت منذ زمن أن البكاء ترف لا تملكه، فصار الارتجاف لغة جسدها الوحيدة للتعبير عن الخراب الداخلي.

جان اقترب بحذر، كمن يقترب من طائر جريح يخشى أن يطير. في يده كوب ماء، يرتجف هو الآخر. جلس على مسافة آمنة، عيناه تحملان ألمًا حقيقيًا.

«سامحيني... لم أكن أعرف... لم أتوقع أبدًا...»

رغم اعتذاره بدأت الأسئلة تتشكل في وعيها حشودًا من ذباب تستفز تأويلاتها. كيف لم يعرف؟ رجل بذكائه، بمعرفته الدقيقة بالناس، كيف لم يقرأ طبيعة فيليب الحقيقية؟ ولماذا ترك الموقف يتطور لهذا الحد؟ وهل كان مرضه المفاجئ مجرد صدفة؟

الأجوبة كانت مدفونة في صدر جان، مع سر آخر أعمق. سرّ بدأ في تلك الرحلة من الكويت، حين لم يكن لقاؤهما عابراً كما كانت تظن - سرّ سيغير كل شيء حين تكتشفه.

بعد هذا النجاح الفني المتصاعد شعرت بسعادة غامرة أعادت لها كل صور أحبتها دفعة واحدة وهي تتخيل تصفيقهم بفرح غامر، انطلقت أناملها تنحت بخشوع تمثالاً أسمته «أطياف امرأة». امرأة تنسلخ من جلدها. أفعى تبحث عن نفسها في متاهة الزمن. تحت كل طبقة من الطين، كانت تظهر امرأة أخرى. طبقات روحها المتراكمة عبر السنين.

النقاد في أروقة معرضها الجديد تهامسوا: «عمل عبقرى عن انشطار الذات المعاصرة!» لم يدركوا أنهم يقرؤون سيرتها الذاتية المنحوتة في الطين. كل شرخ في التمثال كان جرحاً في ذاكرتها. في الافتتاح الثاني لمعرضها، رآته. فيليب بابلو يقف قرب المدخل، وجهه شاحب كورقة خريف ذابلة. عيناه التقتا بعينيها عبر الحشد للحظة واحدة، لحظة كافية لتعيد إليها كل تفاصيل تلك الليلة المشؤومة. رائحة النبيذ، رائحة العطر الثقيل، صوت تمزق القماش، ووصفه الماجن لاستقراء كمن في ذاته الملوثة عن نهديها.

أسرع فيليب خطاه نحو الباب، كأن شبحًا يطارده. انسحب بصمت مريب، تاركًا وراءه همسات مندهشة من الحضور. «ألم يكن هو فيليب بابلو؟ الناقد المشهور؟ لماذا رحل بهذه السرعة؟» منذ ذلك اليوم، اختفى من دوائر الفن التي تتحرك فيها نسرين. لم تعد تراه في افتتاحات المعارض، لم يعد اسمه يتردد في المقاهي الفنية التي كان يرتادها. كأنه قرر محو نفسه من خريطة المدينة الثقافية، هربًا من عيني امرأة رفضت أن تصمت على جرحها.

في معرضها الثالث، سألتها أحد الصحفيين عن غياب النقاد المعروفين عن افتتاحاتها. ابتسمت ابتسامة حزينة: «بعض الناس يفضلون الظلال على النور. والفن الحقيقي لا يحتاج لمن يخاف من مواجهة الحقيقة».

حبات مسبحة متوالية. هكذا تتابعت المعارض. بدأت نسرين تسكب روحها في منحوتاتها بجرأة متزايدة. كل قطعة كانت صرخة صامتة. تحكي قصة امرأة مزقتها الحروب والمنافي. جميع تلك المنحوتات بيعت بأثمان محترمة. وما زالت محتفظة بشغف الفنان بمنحوتتها البرونزية الخالدة التي أسمتها سرًا "الماجديّة" الحاملة لبطاقة مكتوب عليها: «هي أنا، وأنا لستُ للبيع!»

وفي مقهى «ليه دو ماجو» ذلك المعبد الباريسي التاريخي الذي تحولت فيه القهوة طقسًا والحوار مراسم دينية. جلست نسرين بمواجهة الصحفية سيلفي روشفور. المقهى يعج بالظلال

والأرواح. أشباح الكتّاب والفلاسفة الذين سكنوا هذا المكان قبلهما. يراقبون هذا اللقاء العجيب بين امرأتين: إحداهما تبحث عن قصة. والأخرى تهرب من قصتها.

لأسابيع طاردت سيلفي هذه المرأة الغامضة، التي اسمها النخّاة صوفي. متعلقة بدور محقق افتراضي يلاحق جريمة لم يعترف منفذها حتى الساعة. كل ذلك من أجل لقاء صحفي ترى فيه خطوة لها للأمام في عالم الصحافة الكبير. وها هي صوفي/ نسرين الآن، ترتشف قهوتها ببطء متعمد أمامها وهي تتأمل المساء الباريسي وهو ينسدل ستارة سوداء، وبرج إيفل يلوح من بعيد كشعلة عملاقة تضيء سماء المدينة. تتراقص أضواؤه المتقطعة رمزاً لذاكرة راقصة. لهوية ملغمة. لوجود هش.

«أنت لغز جميل يا صوفي». قالت سيلفي، وعيناها تغوصان في أعماق محدثتها. باحثة عن قاع بحرٍ مظلم. «كل ما أعرفه عنك يبدو وهمًا. سرابًا يتلألأ في صحراء الحقيقة».

ابتسمت نسرين ابتسامة غامضة. تُذكر بالعذاب المشوب بالسخرية الذي يميز الشخصيات المعتلة نفسيًا. رفعت فنجان قهوتها ببطء، وتأملت انعكاس وجهها المضطرب في عيني سيلفي الصافيتين. قبضت على نفسها للمرة الأولى عبر مرآة الآخر: «نحن جميعًا أوهام يا سيلفي. أوهام متجسدة تمشي على قدمين. تدّعي الحقيقة. بعضنا فقط أكثر براعة في تصديق أكاذيبه... وأنا؟ لقد صدّقت أكاذيبي حتى لم أعد أتذكر أيّتها كانت حقيقة».

بينهما خيم صمت ثقيل. اعتراف صامت بحقيقة عميقة. حقيقة أن الإنسان قد يكون غريباً عن نفسه. أكثر مما هو غريب عن الآخرين.

على ضفاف نهر السين انتقلتا، تحت سماء فضية مرصعة بنجوم باهتة ليست كباقي الأيام. كان جسر الفنون يرزح تحت ثقل آلاف الأفعال. تلك الرموز الساذجة لوعود الحب الأبدي. مثقلاً بالكاذيب الجميلة التي يتبادلها العشاق. النهر يجري تحتها صامتاً، سراً دفيناً يحمل في أعماقه آلاف المفاتيح المرمية. مفاتيح أقفال كتبَ القدر عليها كلمته: «ليست للفتح».

«أريد أن أكتب عن جنونك، عن أناملك». أفصحت سيلفي بصوت يختلج بالشغف المكتوم. «عن المرأة التي تخلق حياة تلو حياة. تنفخ في رماد ذاكرتها من روحها المتعبة... أريد أن أكتب عن المرأة التي تهرب من نفسها لتصنع ذاتها من جديد».

ضحكت نسرین ضحكة قصيرة. مريرة كالعلقم. ثم قالت بصوت منخفض، بشجن معترف في كنيسة مهجورة: «قصتي ليست للنشر يا سيلفي... قصتي للانتقام فقط!»

«انتقام؟ ممن تنتقمين يا صوفي؟» سألت سيلفي وقد انكمشت عيناها في توجس بانث تقاسيمه على وجهها.

توقفت نسرین. رفعت رأسها إلى السماء المظلمة. باحثة عن جواب في النجوم المتناثرة. همست: «أنتقم من نفسي... من كل النسخ السابقة لي... من الضحية التي كتتها، من الطفلة التي ماتت

في داخلي، من الحب الذي لم أعرفه، من الأمومة التي خُنقت في مهدها».

ارتجفت سيلفي بوحى كهربائي مفاجئ: «المنحوتات التي طوعتها أناملك... هل هي نسخ منك؟ نسخ مستقلة عن صوفي؟»
في عيني نسرين لمعت نظرة غريبة. مزيج من الجنون والحكمة العميقة. ذلك المزيج الذي يميز الأبطال المعذبين: «لست أنا من ينحت. فالملائكة نحّاتون بالفطرة. أما نسخي فهي بعدد ضحاياي... لكل ضحية نسخة أخلقها ولا أقول اصنعها ففرق كبير بين الخالق من العدم والصانع من شيء محسوس».

فجأة، قرض جانب إصبعها شيئاً مبهمًا. شعرت بوخزة من عالم آخر. وخزة تذكرها بأن الألم هو الطريق الوحيد للتأكد من حقيقة وجودها.

تأملتها سيلفي بعمق. وقد فهمت للمرة الأولى عمق المأساة التي تواجهها. «كل منفيّ يحمل وطنه في حقيقته، ما مدى حقيقة هذا القول؟» سألت سيلفي وهي تضغط بقوة على قلمها.

«وماذا لو كان الوطن نفسه منفيًا في حقائبنا؟» ردّت نسرين وعيناها تتابعان قاربًا وحيدًا يشق مياه السين السوداء. «وماذا لو كانت الحقيقة فارغة إلا من الظلال؟ وماذا لو كانت ذكرياتنا سيف جلابد يتصيد رقابنا؟»

كلماتها سقطت في بركة روح سيلفي أحجارًا ثقيلة صداها يتردد بلا نهاية.

«هل الهوية سجن إذًا؟» سألت. قد بدأت تشعر بدوار غريب. على حافة هاوية فلسفية وهي تتابع هذا اللغز الأثوي المائل أمامها. «لا، الهوية جريمة». قالت نسرین بحسم مخيف. أضافت بصوت تخالطه نبرة اعتراف محموم: «وأنا الضحية والقاتل معًا. في كل صباح أقتل نسخة مني. أخنقها بوسادة الذكريات المزيفة. في كل مساء أولد من جديد... ألا ترين أنها دورة مرعبة من الموت والولادة؟ ألسنا جميعًا قتلة ذواتنا السابقة؟»

للحظات سكنت سيلفي. مذهولة من عمق هذه الكلمات. استجمعت شجاعتها: «المخرج السينمائي "غودار" يرغب في صنع فيلم عن حياة صوفي دوبوا... عن حياتك».

في ضحكة هستيرية انفجرت نسرین. ضحكة كئيبة بنحيب مكتوم: «حياتي فيلم رعب يا سيلفي... نصيحتي لغودار ألا يهدر أمواله. لن يجد ممثلة واحدة في هذا العالم المتناقض تقبل بتقمص دوري. تخيلي! حتى أنا... أخاف من نفسي أحيانًا».

في تلك اللحظة، وتحت ضوء القمر الشاحب، بدت نسرین مخلوقًا هاربًا من قبره. امرأة ممزقة بين عوالم متعددة. تحمل في داخلها صراعًا أبديًا بين نور وظلام. بين حقيقة وكذبة. بين إيمان وإلحاد.

كانت قد لمحت سيلفي في ملامح نسرین ظلالًا من كارمن الأسطورية. تلك الروح المتمردة، الشفافة. ما لم تكن مستعدة له

هو ذلك البحر الهائج من التناقضات. التي لاحت لها في مخبوء حديث صوفي/نسرين.

«لستُ كارمن». تمتت نسرين بصوت ينضح بسخرية مرّة. على شفيتها ابتسامة لا تصل إلى عينيها العميقتين. «كارمن ماتت تحت سكين حبّيتها... ماتت لأجل الحب. أنا أقتلُ من أجل أن أجدّ وسادة سلام تغفو عليها روعي». على دفتري ارتعشت أصابع سيلفي. «ممن تنتقمين إذًا؟» سألت بصوت متردّد.

«من الضجر!» أجابت نسرين ببساطة مخيفة.

انفجرت ضحكاتها. ضحكة عميقة مدوية قادمة من أعماق كهف مظلم. تصطدم بجدران روحها المتصدعة. عيناها ظلّتا غارقتين في حزن تاريخي. حزن يشبه تلك الأحزان التي تحكي عن عذابات متوارثة.

بعدما غادرت سيلفي، وقفت نسرين وحيدة على جسر الفنون. محاطة بآلاف الأقفال التي تتدلى ثمارًا معدنية من شجرة الوعود الكاذبة. السماء فوقها سوداء بقلب مجرم. النجوم تلمع عيونًا متلصصة تراقب عذابها الصامت. شعرت بأن كل قفل معلق يمثل كذبة جميلة. وعدًا لم يتحقق. حلمًا مات في مهده.

يدها المرتجفة مدتها، مريضًا يسعى نحو علاجه المستحيل. لمست أحد الأقفال. صعقة كهربائية خفيفة سرت في أوصالها. غير أنها لم تتراجع. كان الألم، كما تعلمت، هو الدليل الوحيد على أنها

ما زالت حية تستنشق الهواء. ضمت القفل البارد في راحة يدها.
شاعرة بثقله الرمزي.

«يا إلهي». خاطبت نفسها بحروف متكسرة. «كم من القلوب
مُقيدة هنا؟ كم من الأحلام محبوسة خلف هذه الأقفال المعدنية
الصغيرة... لكلِّ منا قفل يبحث عن مفتاحه الضائع».

بشقاوة طفلة تؤمن بالحكايات، أو عبث مجنونة هاربة من مصح
عقلي، أو ربما بعمق فيلسوفة أدركت الوجود أخيرًا، همست
بصوت تختلط فيه السخرية بالأمل: «افتح يا سمسم».

لم تتحرك الأقفال. لم تفتح أبواب السماء. لم ينشق نهر السين
ليكشف عن كنوزه من المفاتيح المرمية. ومع ذلك، ضحكت
ضحكة مريرة. ضحكة من اكتشف حقيقة كون الحياة لعبة قاسية -
حقيقة أننا جميعًا نخوض وسطها أشباه دمي، نتحرك بخيوط غير
مرئية.

في دموعها المكبوتة انعكست أضواء المدينة. مشكلة أطيافاً
متعددة. ربما هي انعكاس لأرواحها المتعددة. لنسخها المتناثرة في
مدن العالم.

«الجميع يبحث عن الحب». تمتت. «يلقون أقفالهم
ويرمون المفاتيح. وكأن الحب يمكن حبسه في قطعة معدنية. أنا
اختلف! فأنا أبحث عن شيء آخر... أبحث عن نفسي التي ضاعت
في متاهات الأسماء المستعارة والهويات المختلفة».

وهي تتكئ على حافة الجسر، تحديق في العدم، مر من تحتها قارب يتهادى في النهر شرقاً باتجاه جزيرة إيل دو لا سيتي. انتبهت له فشاهدته يبتعد مثل حلم يتبخر، حاملاً معه أضواء المدينة التي انعكست في سواد الماء. كان على متنه عاشقان متعانقان، غارقان في نظرة حب تبادلاها، غافلان عن المرأة الوحيدة التي تراقبهما من فوق الجسر. المرأة التي تحمل في روحها ألف امرأة. وبحماقة من فقد صوابه، راحت تتمتم وهي تتأرجح على حافة الجسر، ثم صرخت بصوت يخترق صمت الليل: «سوف نعود جميعاً، قطعاً سنعود».

نائمة كانت نسرین على سريرها أثناء الساعة الرمادية بين الليل والفجر عندما رنّ جرس الهاتف الأرضي بنغمة غريبة لا تشبه سابقتها - نغمة موحشة هكذا تخيلتها، رغم أنها نفس النغمة التي لم تفارق ذلك الهاتف منذ أن سكنت شقة الماريّة. وبحركة آلية مدّت نسرین يدها المضطربة نحو هاتفها، كما لو كانت تعلم مسبقاً بنوايا القدر الذي نسج خيوطه القاتمة حولها.

لم تكن تتوقع صوت وليد، فذاك الرسول المعتاد كان سرور. هذا الانقلاب في النظام كان نذيراً بكارثة وشيكة وهي سيدة الكوارث. صمت مشوب بالحذر تواجد على الخط. ثم انفجرت الكلمات كقنبلة موقوتة: «غدرًا... سرور... قد قُتل! يا نسرین». سقطت الكلمات كمطارق حديدية على رأسها.

«لقد، اكتشف المسكين شيئاً...» صوت وليد يرتجف. «شيئاً مرعباً. والمشكلة أنني غير متيقن تمامًا من حقيقته».

توقف وليد، وكأنه يتصارع مع الكلمات: «حاولت... توصلت إليه أن يروح بما اكتشف. المسكين، كان يؤجل، يؤجل دائماً... يقول: ليس الوقت مناسباً بعد... يجب أن أتأكد». نبرة اليأس تسلت إلى صوته: «ثم... سمعت بمقتله. وبقي اكتشافه لغزاً يحيرني حتى الآن. ماذا عرف سرور؟ ولماذا قُتل؟» صمت قاتل.

الموت، ذلك الصياد الماكر، انتزع روحاً أخرى من محيطها. نسرين، لم تصرخ. لم تبك. بينما تسلت كلمات وليد المتقطعة إلى أعماقها سموماً زرقاء تسري في العروق. استقر في أعماقها، سؤال مخيف ينمو كورم خبيث: «هل كان موت سرور مرتبطاً بها؟ هل اكتشافه المخيف يتعلق بحياتها في باريس؟»

لم تكن نسرين تدرك حتى هذه اللحظة عمق ارتباطها بسرور. ذلك المناضل الشريف الذي رأى فيها بطلة تتحدى زيف النظام. كان جسراً بين حيواتها المتعددة، بين نسرين المقاومة وصوفي المنفية. الآن قد انهار هذا الجسر، تاركاً وراءه لغزاً مرعباً.

مصرعه الوحشي لم يكن مصادفة. كان رسالة موجهة إليها: نحن نعرفك، نحن نقرب. وعديد الأسئلة التي لا تملك لها إجابات تشفي الغليل راحت تتفاقم في رأسها: موت سرور لم يكن صدفة. كان صمته الأبدي مطلوباً من أحد ما. والسؤال... من هو؟

بعد تلك المكالمة المصيرية أحسّت بأن العالم بدأ ينهار حولها.
ببطء رهيب هبطت روحها إلى أعماق سحيقة من الظلام. انقطع
خيوط وعيها فسقط الهاتف من يدها.

مرارًا عاود ولید الاتصال. ولما استعادت وعيها تدريجيًا أجابت
وهي تتحب: «لماذا أنا؟ لماذا نحن؟ أي إله هذا الذي يسخر منا
بهذه الطريقة البشعة؟»

نحيبها تفاقم. متحولًا من سؤال إلى احتجاج صارخ على قسوة
العالم. عبثية المصير. ظلت تصرخ في الهاتف وتبكي. تلعن الأقدار
والظروف التي ساقنهم جميعًا إلى هذا المصير المأساوي.

وعندما لاحظ ولید بعض الهدوء على نسرين، ازدادت مخاوفه،
مما دفعه إلى التحذير بصوت جاد وقلق. «خففي الوطء يا نسرين.
أصداء منحوتاتك تصل إلى آذانٍ لا يجب أن تسمع. عيون
مخابرات صدام تمتد كأذرع أخطبوط. وهناك عيون أخرى
تراقب!» في صوته كان خليط غريب من الحزن والرعب والحكمة
العملية. أخبرها أن ظهورها المتكرر في الصحف الفرنسية باسم
صوفي النخّاة. قد يلفت انتباه الجهات الأمنية العراقية. قد تكتشف
الجهات الفرنسية تزويرها أوراق امرأة فرنسية متوفية.

«ماذا أفعل يا ولید؟» تساءلت بصوت مرتجف.

«سنرتب لك ملاذًا آخر، بعيدًا عن الأضواء. شهرتك كنخّاة
أصبحت سيفًا ذا حدين». جاء صوته حُكمًا قاسيًا من محكمة
المنفى.

باكية انفجرت نسرين. وهي تبعد خصلة شعر نزلت على وجنتيها: «يجب أن يعرف الجميع! أنني أعشق النحت! أحجته مثلما تحتاج الأشجار جذورها! بالطين أخلق عوالمى. أستعيد ما سرقه الزمن منى».

«كيف وقد كُشف ظهرى للجميع». جاء صوت وليد حازماً. اتقدت عيناها بإصرار وعناد وكأن صوتها يتسرب سهاماً منهما وليس من بين شفتيها: «لا يا وليد، لن أترك فرنسا. هنا، وجدت نفسي من جديد. فى كل زاوية من شوارعها أرى جزءاً من روى يتشكل. حتى الهواء هنا يحمل رائحة الحرية التى افتقدتها طويلاً، هنا أجد جنينى الذى خطف متعلقاً برقبة جمال يمشيان بفرح عند كل شجرة، عند كل ساعة مطر، عند كل ضحكة عفوية لرضيع». للحظات صمت وليد. ثم تنهد بعمق: «أفهم كل هذا يا نسرين. حياتك أؤمن من أى منحوتة، وعيونهم فى كل مكان، ذاكرتهم لا تنسى. ما رأيك بأريزونا فى أمريكا؟ طقس لاهب، وكأنك فى العراق».

(١٣)

بِنَفْسٍ سباحَ عَبْرَ دجلة مرارًا، واصلت نسرين تحديها الغربية
وتفاصيلها، فانسابت خطواتها في صباح اليوم التالي نحو مقهى
فلور، حيثُ تتراقص حكايات زبائنه على جدران تاريخه المعتق.
بدا غياب مارسيلو مُلفتًا لنظرها. اختفى هاربًا بابتسامته المصطنعة
التي كان يحملها قناعًا مسرحيًا رخيصًا، وكأن المقهى تخلص أخيرًا
من شائبة أفسدت نقاء أجوائه.

على طاولتها المعتادة جلست. تلك الطاولة التي حفظتُ
تأملاتها في تفاصيل زيف الحياة الباريسية عبر زجاج واجهة
المقهى. تحولت عيناها مرآة عاكسة للمأساة.

ودون مقدمات تُذكر، هوى فنجان سيدة عجوز قبل أن يسقط
جسدها المتهالك على الأرض الباردة جثة هامدة. حولها تجمع
ثلاثة أشباح بشرية. نظروا إليها بعيون زجاجية فارغة. ثم انسحبوا
ظلالًا باهتة. لم تصدر من الحاضرين أي بادرة إنسانية. سوى
صوت شرقي دافئ أذان صمتهم المعتاد:

«أنا طبيب عراقي. الدكتور "عدنان عنوز"». فحص نبضها. رفع
رأسه معلنًا رحيلها عن عالم لم يعد أحد فيه يتابع رفيف قلبها.

متظاهرة بالهدوء. بطريقة فرنسية مصطنعة. ارتشفت نسرين
قهوتها برشقات متأنية. مصوبةً عينيها على المازة في الشارع. أفكار
سوداء بهيئة غيوم اجتاحت وعيها: «كم من الرجال قتلت أيتها

السيدة، حتى تموتي بالسكته القلبية هكذا؟ أرى فيك مصيري القادم».

في الفرق بين الموت الفرنسي والموت العراقي تأملت. هنا حيث يموت الإنسان حين يتوقف قلبه. وهناك حيث يموت الإنسان قبل توقف قلبه بسنوات. تموت أحلامه وتُدفن رغباته في مقابر النسيان.

«يا ترى ما الذي ينتظرنا بعد أن نموت؟» خاطبت نفسها بإلحاح.

«لا شيء!» أجابها صدى داخلي.

«لقد عشتُ حياتي أرى العالم من ثقب بندقية قنّاص. اليوم أراه شاسعًا كالبحر، كل شيء واضح لا غموض يقف حائلًا بيننا وبين الحقيقة».

لطلب قهوة أخرى استدارت فوق نَظَرها على فتاة بعينين زرقاوين، بسمرة الهند تشكّلت ملامحها، يتوسط وجهها فم قرمزي مثل ثمرة رمان. كانت ترتدي ساريًا هنديًا يتموج بموجة حزن. ضفيريّتها السوداء تنسدل على ظهرها. جدول حبر سال من قصّة حب قلقلة المسارات. دموعها تنهمر على منديل لم يعد يستوعب بحر حزنها. لا أحد هنا يحتوي بركانها الكل منشغل بنفسه. فرّت من المكان متعثرة كطائر جريح.

«أين مارسيّلُو؟ هل توقف عن النفاق فتوقف قلبه هو الآخر؟» سألت النادل البديل.

«لا... قولي أَمَات قلب غيره». أجاب بنبرة مريرة.
شعرت أن النهار ملبد بالمفاجآت التي لا تروق لها. التفتت
حيثُ مكان الفتاة الهندية وسألت النادل بفضول شرقي «ما الذي
يجري هنا؟ ما حكاية العجوز، والفتاة التي خرجت باكية قبل
قليل؟»

«العجوز، لأول مرّة أراها هنا. أمّا الفتاة الهندية فهي شاندرّا،
حبّية مارسيلو. فتاة هندية مهاجرة. وعدها بالزواج. غدر بها وتزوج
من امرأة فرنسية ثرية تكبره بعشرين عامًا. ترك المقهى دون أن يترك
عنوانًا. متعمدًا ذلك ليمحو فصلًا من مغامراته».

«أنا متأكد». أضاف بحزن. «عاجلاً أم آجلاً سنقرأ خبر نعي
تلك الفتاة منتحرة في السين. ليست أول ضحية لأحلام باريسية
مزيفة، ولن تكون الأخيرة».

بألم يعتصر قلبها شعرت نسرّين. كانت قد رأت منذ البداية زيف
ابتسامة مارسيلو المصطنعة. كان نموذجًا مصغّرًا لباريس نفسها.
مدينة تباع الحب وتقتله في آن واحد. تغري الحالمين بوعود براقّة،
فتتركهم يغرقون في نهر خيبتهم.

خرجت من المقهى حانقة على مارسيلو واستهانته بِقَلْبِي صبية
وعجوز. توجهت إلى السين مباشرة لتستفرغ معدتها. وفي طريقها
رأت شاندرّا تقف على الجسر. تحديق في المياه الداكنة. أرادت أن
تركض إليها. أن تخبرها أن الحياة لا تستحق رجلًا باع قلبه مقابل
رصيد مصرفي.

في مكانها التزمت وأخرست كلماتها. تعرف أن بعض الجروح لا تُشفى بالكلمات. بعض الخييات لا بد أن تتجرعها وحدنا. لتتعلم حماية قلوبنا من باعة الأوهام في مدينة الأنوار. أخذتها حركة الناس الممتلئة بالنشاط حيثُ الشانزليزيه، فاستفاقت أمامها على واجهاته اللامعة صور ضبابية. سبع وعشرون صورة متكررة تتشكل وتختفي حتى انتهت بابتسامة الموناليزا، فاكشفت فيها روحا متعبة تسير بأقدام هشة. كل انعكاس يروي "سالوفة" امرأة تحررت من شرقتها وما زالت تعاني.

دفعتها المصادفة نحو شارع "رابليه". وفجأة، عيناها رصدت جان بيير بحقيبته الجلدية من بعيد. وخلف نظاراتها السوداء وهوية "صوفي" المستعارة، تبعته بإصرار لتكتشف دخوله السفارة الإسرائيلية بخطوات واثقة معتادة وابتسامة مشرقة، وكأنه منزله الخاص.

في اليوم التالي، وبمغامرة محفوفة بالمفاجآت انساقت نسرين عبر شرايين باريس المتشابكة نحو شقة جان في مونمارتر، مدفوعة برغبة جارفة لاختبار ردود أفعاله. توقفت أمام المبنى الأبيض - كنيسة "القلب المقدس" البيضاء وراحت تراقبها بصمت حجري مستعيدة دراما اليوم الماضي.

فتح جان الباب بابتسامة غامضة. تجولت عيناه في وجه نسرين يتفحصانها بحذر. دلفت إلى شقته التي بدت اليوم كمسرح فارغ،

أدركت للمرة الأولى أنها ليست ضيفة عليه هذه المرّة، بل فريسة في قفص مخملي.

حين قدّم لها شراب "شارتروز أخضر"، فاجأته بطلب الشاي. تجمّدت ملامحه قبل أن يعود بإبريق صينيّ مبتسمًا. ومع غياب الفنجان الدافئ بين يديها، باغته: «تصوّر يا جان! كنت أتجول في الدائرة الثامنة... شارع رابليه... ولمحتُ حركة أمنية غير عادية». راقبت بدقة كيف تغير لون عينيه، فتوقفت كأسه في الهواء.

«شارع رابليه؟ وما الذي كنت تفعلينه هناك؟»

«أبحث عن تفاصيل معمارية لمشروعي الجديد. المنطقة قرب الشانزيليزيه... مليئة بالتفاصيل التي تلهمني». لاحظتُ توترًا خفيفًا في عضلات فكّه، وظلالًا داكنة في نظراته.

«منطقة دبلوماسيّة راقية» قال بحذر. «كيف لا تعرفين بهذه التفاصيل وأنت فرنسية أصيلة؟ فالسفارة الإسرائيلية وغيرها من سفارات دولية موقعها هناك منذ عقود».

أخذت رشفة أخيرة، مختبئة خلف فنجانها: «لم أكن مركزة سابقًا... لا شيء يستحق اهتمامي غير النحت». «وهذه المرّة ركزت؟».

«ربما لأنها جميلة من بعيد».

حين نهضت مغادرةً، أمسك يدها: «ما رأيك بقهوة في مقهى فلور؟ اشتقت لحركات مارسيّلو البهلوانية». اعتذرت كما توقع، ثم

فاجأته: «مارسيلو ترك العمل في المقهى واختفى مع عجوز ثرية، كاسراً قلب فتاة أحبته».

بعد مغادرتها، فتح دُرَج مكتبه وأخرج ملفاً سرّياً يحوي صورة فوتوغرافية لامرأةٍ تحتضن رضيعاً بين ذراعيها مُدرعاً بقمّاطه، ويقف خلفها رجلٌ أنيق الهندام بوجهٍ مألوف. رنَّ هاتفُ جان فجأةً: «حان وقت كشف الهوية».

ذكى سيجارة، تأمل الصورة، وابتسم ساخراً: «كم هو مثير للسخرية محاولة ساره اكتشاف تفاصيل ما أعرفه عنها».

مساءً، في شقتها، تلقت نسرين اتصالاً من وليد. رنين الهاتف قطع تأملاتها، وما أن فتحت الخط سمعت صوته حتى تيقنت فوراً أنه يخشى التنصت.

«مرحباً صوفي، كيف حال باريس معك؟»

جارته باللُّعبة، مدركة قواعدها: «الحمد لله، أخبرني عن عُمرَة المدينة المنورة وأخبار عائلتك. أنا سعيدة هنا بفضل إيفيت وزوجها، وكذلك صديقي جان. آه نسيت إخبارك شيئاً عنه. هو يدعمني كثيراً في معارضي وانتشار أعمالي».

«حسناً، إذا احتجت شيئاً اتصلي بي».

فهمت رسالته على الفور: اتصلي من مكان آمن. وبعد زيارة قصيرة لإيفيت كستار للتغطية، اتجهت نحو هاتف عمومي في شارع جانبي بعيد عن شقتها.

«اسمعي». جاء صوت وليد جادًا، حاسمًا. «لقد تم تضليلنا جميعًا. "تيكون عولام" - مفهوم فلسفي وأخلاقي في التقليد اليهودي، تحول إلى منظمة يهودية سرية تؤمن بإصلاح العالم المكسور عبر استعادة الشرارات اليهودية المقدسة المتناثرة في العالم. هدفهم تجميع اليهود المتخفين في بلدان الشرق الأوسط ونقلهم إلى إسرائيل. أنت المرشحة القوية لعملية التجميع هذه وذلك بعد شهرتك في الأوساط الأوربية. يرون فيك شرارة يهودية قوية، قادرة على استعادة أرواح أخرى. كل يهودي تستردينه يُصلح جزءًا من هذا العالم المكسور حسب عقيدتهم. وجان هذا مبعوث من "تيكون عولام"، جاء لإعادتك إلى ما يعتبرونه مكانك في المخطط الإلهي».

ردت باكية، صوتها يرتجف: «يا إلهي! معنى هذا أنني بت مكشوفة للجميع؟» صرخ بلهجة مصرية حازمة: «لن نفرط بك، ولو فني العالم المكسور».

فجأة، اختفى صوت وليد وحلّ محله صفيّر حاد، ثم صمت تام. حاولت نسرين الاتصال مرة أخرى دون جدوى. فقد انقطع خط الهاتف العمومي دون سابق إنذار، كما لو أن هناك من تدخل عمدًا لإنهاء المكالمة.

بقلب يخفق من الخوف والقلق، غادرت كشك الهاتف وعادت مسرعة إلى شقتها في حي الماريّة. الشوارع التي كانت تبدو آمنة قبل ساعات أصبحت الآن مليئة بالظلال والشكوك. كل عابر سبيل

بات في نظرها مراقبًا محتملاً، وكل سيارة تبطئ قربها تظنّها مصدر تهديد.

ما إن وضعت المفتاح في باب شقّتها حتى شعرت بنبضات قلبها تتسارع. دفعت الباب بحذر ودخلت، مسحت المكان بنظرها بسرعة للتأكد من أن كل شيء على حاله. أغلقت الباب خلفها وأسندت ظهرها إليه، مغمضة عينيها للحظات تحاول فيها استجماع شتات أفكارها.

وفي تلك اللحظة بالذات، قطع سكينة الشقة رنين هاتفها المنزلي. توقعت محاولة لوليد للاتصال بها مجدداً، والمفاجأة كانت حين التقطت السماعة، ليخترق سمعها صوت جان المُلح: «صوفي، يجب أن تأتي الآن. الأمر ضروري».

تسلقت درجات سلالم بناية مونمارتر متجاهلةً المصعد كعادتها في زياراتها السابقة، متجهة إلى الطابق الخامس حيثُ الشقة التي يدّعي جان أنها مشغله النحتي وسكنه معاً. كلمات وليد التي كشفت جانباً من الحقيقة غدّت شكوكها بأن هذا المكان ربما يكون مركزاً سرياً لتخطيط عمليات "تيكون عولام"، لا مجرد ورشة فنان كما يزعم.

قلبها يخفق بإيقاع غريب، كنذير للحظة فاصلة توشك أن تقتحم حياتها. دفعت الباب بحزم وحدقت في عينيهِ مباشرة، سائلة إياه عن سبب استدعائها المفاجئ، بينما كانت نظراته تنوء بثقل أسرار دفينه. تحركاته المحسوبة أمامها أوحّت بمشهد مُعد سلفاً، كمن يؤجل

لحظة حاسمة لإسقاط القناع. سألتها بتردد: «هل زرتِ تل أبيب من قبل؟»

انفجرت بحدة نافية ذلك: «وما الذي يربطني بتل أبيب حتى أزورها؟»

«أسمع أن شوارعها تتألق بضوء البحر المتوسط، وكأنها...». قاطعته بنفاد صبر، صوتها يتردد في الفضاء كشفرة حادة: «كفى مراوغة! ما الذي تُخفيه في أدراج دهائك يا جان؟»

ابتسم ابتسامة غامضة، كمخرج مسرحي يستعد لذروة العرض. بحركة مدروسة، انسحب نحو مكتبه الخشبي، ساحبًا دُرَجًا خفيًا لم تلاحظه من قبل. سكون الغرفة يقطعه صوت احتكاك الخشب بالمعدن. أخرج قلمًا بعدة ألوان ذا طرف فضي يلمع تحت الضوء المتسلل من ثرية سَقْفِيَّة، ثُمَّ استل ورقة بيضاء بحجم بطاقة هوية. عيناها تتبعان أصابعه وهو يكتب بخط جليّ ومتقن بلغة فرنسية: "Sophie"

الاسم يتراقص أمام عينيها كشبح من ماضٍ حاولت أن تعيش تفاصيله كاملة بأمان. ثُمَّ، بحركة مسرحية بطيئة، رسم علامة كروس فوق الاسم، ثُمَّ أغرقها في بحر من الحبر الأحمر القاني. ارتفعت أنفاسها وتسارعت دقات قلبها. تجمد الزمن للحظة قبل أن يسحب ورقة ثانية. القلم يرقص على سطحها البكر برشاقة قاتل محترف.

"Sarah" كتب الاسم بخط أكبر، وأكثر ثباتًا، ثم رسم بجانبه علامة صواب خضراء بحركة حادة وحاسمة، كَمَنْ يطلق رصاصته الأخيرة. ثُمَّ رفع الورقة ببطء نحوها، يحملها بين إصبعيه كدليل إدانة، عيناه تثقبان روحها، وابتسامة نصر تتسلل إلى زوايا فمه.

«Sarah، أليس هذا هو اسمك الحقيقي؟»

السؤال يهبط عليها كصفعة مفاجئة، يُخمد ثورتها ويطفئ نيران غضبها. شعرت بالأرض تميد تحت قدميها، كذاك الذي اكتشف متأخرًا أن الأرض التي كان يقف عليها طوال حياته لم تكن إلا وهماً مطلقاً.

وهو يختتم عملية صعقها بنزيف معلوماته أخبرها بنبرة رسمية بعيدة عن اللياقة. أن والدها موشيه داوود أرسل للحكومة الإسرائيلية استغاثة كهلٍ مقدسٍ، يقول فيها: «ابنتي ساره في العراق، احموها».

تمالكت نفسها مستعيدة بعض شجاعته وقد تفجرت من بين شفتيها ضحكة مريرة، بعد يقينها بافتضاح هويتها، لترد عليه متسائلة عن أي والد يتحدث بالضبط.

عدّد أسماءها كمن يفك شيفرة هويات متعددة «أيّ أسماء أخرى تتذكرين؟» أضاف بصوت منخفض: «ليس مهمًا لنا من أنت فيهن. الأهم أنك حفيدة موسى وهارون وإسحاق ويعقوب ويهوذا وإبراهيم! إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات تنتظر ابنتها الضالة».

استشعرت نسرين وزن هذه الكلمات. ارتجف قلبها. أكمل جان: «لا بد أن تعرفي أمرًا مهمًا. لقد رافقتك في الطائرة من الكويت إلى باريس. من أجل تسهيل عودتك للوطن، وما سرور، والذين تعرفينهم، وحتى مريض القلب في المطار إلا أسماء مُظِلَّة، نحن من يراقب ونحن من يقرر».

«هكذا إذن. أنتم من قتل سرور؟ أليس كذلك؟»
الكلمات تطايرت من شفتيها مخترقة الجو المتحجر بينهما. جان يميل إلى الوراء، يتأمل وجهها الشاحب كقاتل يتفحص ضحيته. ابتسامة بطيئة، شيطانية، ترحف عبر شفتيه: «آه... سرور... اممم».

يتذوق الاسم على لسانه كخمرة معتقة. «المسكين اكتشف اللعبة متأخرًا. فهم أننا لسنا مجرد وسطاء... بل العقول المدبرة. عرف أننا غررنا به، وبوليد الساذج، وبالشبيخة صالحة تلك المرأة المؤمنة، هه العرب سُذج كعادتهم». يتوقف. عيناه تتألقان بلذة السادي.

«كان سيفضحننا، سيجري إليك وإلى وليد كطفل يحمل حقيقة مدمرة». نسرين تحبس أنفاسها. قلبها يدق كطبول الحرب انفجرت الكلمات من شفتيها بحدة تخترق الهواء المتوتر: «وها أنا قد عرفت!» كان صوتها يحمل مرارة الصدمة وحرارة الغضب المكبوت. «وماذا بعد؟» لفظتها بنبرة متماسكة رغم الكارثة التي عصفت بداخلها.

«فأرسلنا له... هدية». جان ينهض، يمشي حول الكرسي كضبع يحوم حول فريسته: «الطعنة الأولى... صرخ متألمًا. الثانية... سقط مضرجًا بدمه. الثالثة...» يتسم: «مات وهو يصرخ باسمك المزيف... ن... سرين» استدرك وكأنه تذكر شيئًا: «للأمانة، لقد تمّ قتل سرور بطعنات عراقية خالصة».

طيف سرور تمثّل أمامها داعمًا يوصيها: ألا تستسلم. الآن، وبعد أن رُفعت كل الأقنعة أمامها، لن تمنح جان لذة رؤيتها منهارة. أخرجت من حقيقتها سيجارة. ألقيتها فمها بخفة البهلوانات المحترفين، وكأن الحديث عن جريمة قتل مجرد نقاش عادي. دخان السيجارة تصاعد ببطء، مُشكّلًا حاجزًا رماديًا بينهما.

ردّت بثقة مدروسة، صوتها بارد أشد برودة من صوت دمية: «لم تأت بجديد. فقد كنتُ موقنة من كل هذا». مارت في داخلها عاصفة من المشاعر: الغضب على قتل سرور، الألم لسداجة من وثقت بهم، والعزم على المقاومة.

«لقد شاهدتك تدخل سفارة إسرائيل!» قالت وهي تطلق الدخان مباشرة في وجهه. «أنت ضابط في الموساد. هذا ما لا يقبل الشك!»

جان يميل إلى الوراء، ابتسامته تتسع أكثر، لا يبدو منزعجًا. هذا يعني شيئًا واحدًا فقط: أن اللعبة وصلت لنهايتها. اعترف بهدوء قاتل، صوته رتيب كمن يقرأ نشرة الأخبار: «أجل، وملفك بين

يدي منذ سنوات. لإعادتك طوعاً أو كرهاً إلى تل أبيب، أنت والكثير من أبناء الوطن الضالين عن هويتهم الحقيقية».

توقف، وفي عينيه بريق حاد: «ساره... أمك راحيل قد توفيت، وموشيه داوود يحتضر الآن... والجميع ينتظر عودة الابنة الضالة». بعدها أخرج صورة قديمة من جيبه، وضعها أمامها بهدوء. امرأة بملامح فاتنة تحمل طفلة باللفة، ذات عينين واسعتين. ورجل أنيق ببذلة غربية يقف خلفهما ويضع يده على كتف المرأة بمحبة.

«راحيل، وموشيه، وصغيرتهما ساره في سوق العمارة الكبير»، قال بصوت يحمل نبرة حنان مصطنعة. «موشيه يتوسل رؤيتك قبل أن يرحل. الرجل العجوز يحتضر ويريد تصحيح أخطاء الماضي». وبصوت الحريص عليها، المقهور لأجلها، أضاف مكرراً طلب موشيه.

انتفضت واقفة كقطعة جريحة، صوتها يرتعش من الغضب: «لا أعرف شيئاً عن هذه الصورة، ولست ابنة أحد! أنا ابنة جميلة الكحاح والمأجدة. عائلتي الحقيقية هي خديجة وميثم الوالي». بنظرة متحدية، مزقت الصورة ورمتها في وجهه.

«الحقيقة هي ما نعيشه، لا ما تخترعونه في مختبراتكم».

الضربة تهوي على خدها بقسوة مفاجئة - النار تشتعل تحت جلدها والألم يخترق حواسها. للحظة واحدة يتوقف الزمن، عقلها يرفض تصديق الإهانة.

«أنت لا تفهمين»، قال بصوت أكثر خفوتًا. «الأمر أكبر منك ومني. هناك قضايا سياسية وأمنية لا يمكنك تخيلها».

صوته الخافت يذيب آخر خيوط تماسكها الظاهري. شيء ما ينكسر بداخلها - ليس روحها، بل الوهم الأخير حول إنسانية هذا الوحش. «بل أفهم تمامًا»، ارتعشت أطراف أصابعها المتشبثة بذراعي الكرسي، وكأن صوت جان أذاب كل ذاك التماسك الذي مثله. ببطء محسوس تسلل إلى حركاتها، تناهت خلاله كل الذكريات كأشباح متناثرة.

ببطء محسوب تنهض، تتحول من ضحية منكسرة إلى امرأة تعيد اكتشاف قوتها. ببطء مريّر، بدأت بالانتقال من وضعية الجلوس، حيث كانت راكدة كتمثال من هدوء، إلى الوقوف المتثاقل متجهة نحو الباب. كل خطوة نحو الباب رسالة واضحة: انتهى عهد التلاعب بي.

«أفهم أن كل منحوتة صنعتها، كل معرض أقمته، كل لحظة إبداع عشتها... كانت تحت مراقبتكم. اللعبة انتهت فعلاً يا جان، انتهت على غير ما خططتم».

توقفت عند العتبة، واستدارت ناحية الباب وهو يجمع قطع الصورة المتناثرة بأصابع مرتجفة. نظرت إليه نظرة باردة كشتاء باريس قاسٍ.

«أخبر موشيه داوود أن ابنته ماتت منذ أن فرط بها في الماجديّة. وأنّ نسرين فنانة لا تزور القتلة، حتى لو كانوا

يحتضرون». انتفض باتجاهها محاولاً الإمساك بها، قاومت، فسحبها بعنف المُختطفين، فارتطم رأسها بالحافة الحادة لمنحوتة الماجدية التي أصرّ في مناسبة سابقة على أخذها منها بعنوان "هدية"، رغم شغفها الكبير بها ورفض بيعها بأثمان باهظة. وفي تلك اللحظة بالذات، أصبح الزمن سائلاً كالدم، والدم مداداً يكتب تاريخ امرأة تعلمت المقاومة قبل أن تتعلم المشي. انبثق الدم غزيراً من رأسها فغابت عن الوعي.

بعد ساعات من الصمت القاتل، استعادت وعيها ببطء. الدم المتخثر في شعرها الداكن ما زال رطباً، وجرح رأسها ينبض بألم خافت. فتحت عينيها لتجد جان جالساً قبالتها، يتلاعب بكأس الشارتروز الأخضر تحت ضوء الثرية الخافت. كان هناك شيء مختلف في ملامحه الآن، شيء لم تره من قبل. هشاشة خفيفة، كأنما رقاقة زجاجية رفيعة تصدعت في ثقته المعتادة بنفسه.

«تصرين على تصديق رواية المجنونة جميلة؟» كسر جان الصمت أخيراً، صوته متأرجح بين الاستنكار والشفقة. «امرأة منبوذة من أهالي الماجدية، تدّعي أن رجلاً مقدساً محترماً مثل موشيه داوود قد تزوجها سرّاً؟ أي تخريف هذا!»

تلاقت نظراتهما عبر الظلال المتراقصة. نظرة جان المترنحة من تأثير الكحول، ونظرة نسرین المشتعلة بنار البحث عن الحقيقة.

«وما المُستغرب في ذلك؟» رفعت حاجبها بتحدٍ، متجاهلة الألم الذي يضرب في رأسها مثل ناقوس دير مهجور.

ضحك جان ضحكة خافتة، تناول نفسًا عميقًا من سيجارته:
«أتعرفين معنى أن يكون المرء من سلالة هارون، أخي موسى،
الكاهن الأعظم؟ هؤلاء هم حراس المعبد، حملة الشريعة، صفوة
بني إسرائيل!»

نهضت نسرين متجاهلة دوار الألم، واتجهت نحو النافذة
الطويلة. خلفها، تلالأت أضواء باريس كملايين النجوم المتناثرة
على بساط أسود. برج إيفل يلمع في المسافة مثل حارس ليلي
صامت على أسرار المدينة.

«وهذا يمنع من الزواج من امرأة مسلمة؟» سألت دون أن
تلتفت إليه، صوتها يحمل ذرات من سخرية مريرة. بتمثيلية متقنة
ضرب متعصبًا كأس الشارتروز بالبلاط، فكان صوت ارتطامه حادًا
وهو يشطر سَكينة الشقة وصمتها الجنائزي.

«بالأكيد!» ارتفع صوت جان، متخليًا عن هدوئه المصطنع.
«نتاج التقاء خطي الكهنوت ليس شخصًا عاديًا. إنه وريث تقليد
مقدس يمتد لأكثر من خمسة آلاف عام، يحمل في دمه أصداء
الزمن القديم، أصداء البخور المقدس ونغمات صلوات الهيكل.

وفقًا للهالاخا - الشريعة اليهودية - الكوهين لا يتزوج إلا من
يهودية طاهرة، عذراء. الهالاخا أكبر من كونها تقليدًا يمكن تجاوزه،
الهالاخا قانون إلهي مُلزم الإيمان والتطبيق».

تأملت نسرين انعكاس وجهها في عيني جان، فوجدت امرأة
غريبة - امرأة أخرى تنظر إليها من العالم الآخر.

«لو كان موشيه تزوج حقًا من امرأة مسلمة لفقد مكانته المقدسة إلى الأبد. واختفى النور الذي بين عينيه، وكان منبوذًا من مجتمعه».

«والآن، كيف ترى هذا النور؟ هل ما زال ثابتًا فيه؟»
أخذ جان نفسًا عميقًا محاولًا استعادة رباطة جأشه، والارتباك ظل مرسومًا على ملامحه التي تصارعت فيها مشاعر الصدمة والإنكار والفضول والخوف من اكتشاف حقيقة قد تقلب كل ما كان يخطط به.

استدارت نسرين ببطء ناحية شظايا كأس الشارتروز المبعثرة على الأرض، الضوء ينكسر عبر الزجاج المحطم فيرسم ملامح غريبة مألوفة. في تلك الشظايا المتناثرة - وجه امرأة يحمل أنفها وعينها، ابتسامة تعرفها دون أن تتذكرها.

عينها تلمعان بدموع محبوسة تأبى السقوط، صوتها يرتجف بين الغضب والانكسار: «إذن، هو محترم لأنه تخلي عن زوجته التي أحبته وابنته الرضيعة؟ محترم لأنه ادعى أن أمي خادمة؟ محترم لأنه كذب وقال إنني ابنة راحيل؟»

الشظايا تحت قدميها تحكي حكايات لم تسمعها من قبل. كل قطعة زجاج تعكس جزءًا من حقيقة مدفونة - ملامح والدها في وجهها، ملامح امرأة أخرى في روحها المجروحة.

دموعها المكبوتة تتحول إلى نيران تحرق آخر خيوط الوهم. في تلك اللحظة، تيقنت من أن كل شيء في حياتها كان مجرد انعكاس مشوه في مرآة مكسورة.

من خلل النافذة، مرت سيارة شرطة بصفارتها المدوية، ألفت أضواءها الزرقاء والحمراء على جدران البناية، كأنها ومضة من عالم آخر يذكر بأن الحياة مستمرة خارج هذه الشقة المشحونة بالأسرار.

تنهد جان بصوت مسموع، وأشعل سيجارة جديدة: «الأمر أعقد مما تتخيلين يا سارة. أنت تنظرين للأمر من زاوية عاطفية بحتة. العراق، في الخمسينيات، لحظة تاريخية مضطربة. عملية "عزرا ونحميا" في ذروتها، مئة وعشرون ألف يهودي عراقي يُهجّرون إلى إسرائيل. في تلك الفوضى تأخر موشيه كثيرًا، فقد كان يواجه خيارات صعبة. البقاء يعني الموت، والهروب يعني ترك من يحب». «

سكت لحظة، ثم أضاف بصوت أكثر خفوتًا: «اختار البقاء حيًا ليعود إليك لاحقًا».

«كذب!» انفجرت نسرین وضربت بيدها على الطاولة الزجاجية. «لو كان هذا صحيحًا، لما ادّعى أنني ابنة راحيل... ولما أنكر وجود أمي!»

أشاح جان بوجهه، أطفأ سيجارته في المنفضة المصممة على شكل شجرة زيتون: «الحقيقة الواحدة التي لا غبارَ عليها هي أن

جميلةً وكريمًا كانا مجنونَينِ باعتراف جميع أهل العمارة. وكل ما أخبراك به محض تخريف. أمُّك الحقيقية هي راحيل، وأبوك موشيه. ولا بدَّ من عودتك، نقطة ومن أول السطرِ».

سألت نسرين السؤال الذي دار في رأسها منذ بداية هذه المطاردة الغريبة، السؤال الذي لاحقها من بغداد إلى باريس: «لماذا أنا...؟» همست بصوت مخنوق، «من بين مئات آلاف اليهود العراقيين وأبنائهم... لماذا أنا بالذات؟»

صمتَ جان طويلاً، كأنه يزن كل كلمة بميزان الذهب. ثم نظر إلى نسرين نظرة اخترقت روحها: «ما سأخبرك به الآن خارج عن صلاحياتي، وسأعاقب عليه بالتأكيد!». صمت دهرًا حتى خالته فقد نطقه، ولما فتح نوافذ فمه راح يهمس بصوت أقرب للأنين. «لست مجرد ابنة زوجين كهينوت - موشيه وراحيل. أنتِ آخر وريثة لسلسلة فريدة تعود مباشرة إلى هارون نفسه».

تلعثت كلمات جان الأخيرة وهو يحدق في نسرين بعينين زائغتين. تأثير الكحول بادٍ عليه، ثم تجمدت نظرتَه فجأة على شيء لمحه فوق جبينها.

«دم!». قال مشيرًا بإصبع مرتعشة نحو رأسها.

لمست نسرين جبينها، فوجدت خيطاً رفيعاً من الدم ينساب منه. كانت تعلم أن الجرح الذي أصابها حين ارتطم رأسها بمنحوتتها الماجدية قد انفتح مجدداً، ليس بفعل الارتطام وحده، إنما بفعل كلماته التي طعنت ذكرياتها وهويتها.

«سأحضر... شيئاً» تمتم وهو ينهض متوجّهاً إلى المطبخ بخطوات متعرجة.

راقبته وهو يترنح مبتعداً، وقد ترددت كلماته في أذنيها: «يهود العراق حافظوا على أنقى سلالات الكهنة في العالم. فترة مريرة من السبي البابلي، تلتها حقبة طويلة الأمد من الاستيطان المتواصل في بلاد الرافدين».

اصطدم كتفه بإطار باب المطبخ قبل أن يختمي داخله. سمعت صوت أدراج تُفتح وأغراض تسقط.

«عندما يلتقي دم إلغازار، الابن الثالث لأهارون، بدم إيثامار، الابن الرابع له، في جنين واحد، حينها يتشكل جنين مغاير لا يشبه أحداً. يُعتبر هذا الالتقاء حدثاً مقدساً نادر الحدوث. وهذا بالتحديد ما حدث عندما حملت بكِ راحيل». كلماته هذه هي من استفز الجرح في رأسها والألم في روحها معاً ليزداد تدفق الدم بغزارة. ظهر جان بعد دقائق، يحمل قطعاً منقوعاً بالديتول، تتقاطر منه قطرات وردية على الأرض وهو يتقدم نحوها بخطى غير متزنة. اقترب منها لمداداة جرح رأسها، رائحة الكحول تفوح منه، فأوقفته بحركة حادة من يدها.

«دعك مني، لقد توقف النزف». قالت بصوت قاطع. تجاهل ما قالت وواصل الاقتراب، عيناه الزائغتان تحملان مزيجاً غريباً من الشفقة والافتتان.

وهو يضمّد رأسها «في الكتب المخفية!». قال بصوت خافت وهو يحاول تثبيت نفسه، «في أسفار الزوهار السرية، هناك نبوءة عن "هاكوهنت هاشلماه" - الكاهنة الكاملة - التي ستأتي بعد شتات طويل من مدينة عراقية اسمها الماجدية - تلك المدينة التي تغفو وسط دولة ميشان الكبرى. وهذا ما أنتِ عليه. فتاة تجمع في دمها خطي الكهانة المقدسين، وتحمل في روحها أصدقاء الهيكل القديم وعلوم تابوت الشهادة».

أبعدت يده عن رأسها بعنف محاولة الوقوف، تاركة قطرة من دمها تسقط على الأرض فهوت روحها فوق الأريكية مستلقية دون حراك ورأسها يدور ليس فقط من الجرح، بل من وطأة الكلمات التي تدفقت عليها:

«لو كنت مجرد ابنة لامرأة مسلمة متزوجة من يهودي مقدس، لما اهتم بك أحد. Sarah، أرجوك، يجب أن تفهمي أنت حلقة نادرة في سلسلة مقدسة تماهت مع الملائكة الكروبيين. منظمة تكون عوالم، التي أعمل لصالحها، تبحث عنك منذ سنوات. يعتقدون أن وجودك في إسرائيل سيكون علامة على بدء عصر الخلاص العالمي».

«هذا جنون... أنا نسرين، ابنة جميلة. نشأت في الماجدية، عشتُ عراقية طوال حياتي!»

ابتسم جان ابتسامة باهتة: «الدم لا يكذب، يا سارة. يمكنك إنكار كل شيء، والتحليل الجيني لا يخطئ. الشيفرة الوراثية

للكوهانيم لا تُمحي، حتى بعد آلاف السنين. وأنت تحملين أنقى نسخة من هذه الشيفرة، ففي بيت الشيفرة صالحة تم اخذ عينة من دمك وتحليلها فظهرت مطابقة تمامًا للشيفرة المقدسة النادرة الوحيدة التي انت سيدتها وهذا ما حفز جهودنا لليقين بما اعتقدناه عنك».

وَجَدْتُ أن إصرار جان يبدو حقيقياً رغم شكوكها «وإن رفضت العودة؟» سألت نسرين بصوت أقوى، صوت امرأة تحاول استعادة السيطرة على مصيرها.

نظر إليها نظرة طويلة، ثم قال بهدوء مخيف: «هل تعتقدين أن الأمر متروك لك؟ سيكون عولام، الموساد، مجلس الحاخامات الأعلى، إسحق رابين، جميعهم يتابعون هذه القضية عن كثب. الدم المقدس لا يُترك ليضيع في متهات العالم، سارة، ستعودين، طوعاً أو كرهاً. النبوءات لا تنتظر، والتاريخ لا يتوقف».

في تلك اللحظة، لمعت أضواء برج إيفل البعيد في دورتها المعتادة، رسالة وميضاً خاطفاً عبر النافذة، أُلقت ظلالاً غريبة على وجهي المتحاورين.

نسرين وقفت صامته، وبدا وكأن وجهين مختلفين ينظران إليها من الزجاج - وجه نسرين التي عرفت طوال حياتها، ووجه سارة التي لم يلتق وغيها بها أبداً.

مدَّ إليها جان يده بالجواز الإسرائيلي مرة أخرى. «طائرة الصباح إلى تل أبيب. موشيه... قد لا تجدينه على قيد الحياة إذا تأخرت أكثر».

نظرت نسرين إلى الجواز، ثم إلى قطع الصورة الممزقة، ثم إلى يد جان الممدودة بالجواز، وتذكرة الطائرة، وأخيرًا إلى منحوتة الماجدية البرونزية المتوهجة بدمها. في عقلها تتصارع الحقائق المتناقضة كأموح هائجة. كلمات أمها جميلة، ذكريات طفولتها المريرة، ادعاءات جان، وتلك الصورة الباهتة التي لا تعرف حقيقة من فيها.

«حتى لو كان ما قتلته صحيحًا جزئيًا». قالت أخيرًا، وصوتها يتحشرج. «هذا لا يغير شيئًا. أنا ما اخترت أن أكون ابنتكم المقدسة. أنا نسرين ابنة العراق، حفيدة الماجدية، فنانة تشكل الطين بإرادتها الحرة».

«من أنتَ حقًا، يا جان؟» سألت فجأة. «لماذا تهتم بكل هذا؟» ابتسم جان ابتسامة غامضة: «أنا مجرد رسول. حامل للحقيقة. والحقيقة تُحررُ الإنسان، كما يقولون».

«أي حقيقة؟ حقيقتك أنتَ، أم حقيقة موشيه؟»

ضحك جان ضحكة جافة. جاء صوته كنصل بارد يقطع الهواء «نحن من أحضرناك إلى هنا، أيتها الساذجة! لولانا لَكُنْتَ الآن لقمة سائغة في فم مزاحم. تعقلي! حان وقت عودتكِ إلى أرض الميعاد».

أرض الميعاد؟ الكلمات تتصادم في رأسها كأموح هائجة.
«مستحيل!» صرخت ثم تحركت نحو النافذة الكبيرة المطلة على
باريس. أضواء المدينة تتلألأ تحتها كنجوم ساقطة.

فجأة، رأت شيئاً غريباً في زجاج النافذة. أعظم من انعكاس
وجهها المعتاد الذي طالما تأملته بحثاً عن إجابات، كان انعكاساً
مزدوجاً، كأنما وجهان يتداخلان: وجه نسرين الذي تعرفه، ووجه
امرأة أخرى، امرأة لم تقابلها من قبل، تشبهها بشكل مخيف - بشعر
أكثر تموجاً، وعينين أكثر اتساعاً، وملامح تحمل شيئاً من العالي
والقسوة التي لم تعرفها في نفسها يوماً. سارة. الوجه الآخر لنفسها.
الإمكانية المرفوضة التي تطاردها.

للمضة، بدت الانعكاسات كأنها تتحدث إلى بعضها، تتصارع
على مساحة الزجاج المحدودة. ثم لاحظت نسرين شيئاً آخر في
الانعكاس - جان يقترب من خلفها، عيناه تلمعان بقسوة لم تَرها
من قبل.

بشجاعة العمائيرجية - بنت الهور الأصيلة، التقطت قطعة طين
جافة من أدوات النحت الخاصة بجان وسحققتها بين أصابعها
المرتجفة. الطين يتفتت، روحها تزداد صلابة، وصوتها يأتي كقسم
مقدس: «قل لموشيه داوود: الموت لا يمحو خيانة الأب لأبنائه.
أخبر أسيادك في تل أبيب كيف علمني النحت شيئاً مقدساً عن
الهوية».

توقفت، وفي عينيها نار لا تنطفئ: «الهوية ليست دماء وجينات
فحسب. هي أكبر من ذلك بكثير. هي روح تتنفس، وذكريات
تنبض، وألم يصقل، وحب يُنير، واختيار يُحدد، وإرادة تقاوم».
شعر بالعجز لاستمالتها، هنا، تحولت ملامحه من الإغراء إلى
التهديد الصريح. انقضت يداه نحو عنقها الرفيع. غاصت قلادة أمّ
راضي الفضية في لحم رقبتها الطري.
«سنأخذك إلى تل أبيب شتّ أم أبيت. ستكونين نصرًا إعلاميًا
آخر للموساد».

انهمرت في شرايينها أصداء وصايا ميثم الوالي: «القوة الحقيقية
تكن في كشف خرائط نقاط ضعف الآخرين». لمست قلادتها
فانبعثت همسات أمّ راضي من أعماق الزمن: «سور سليمان، سور
سليمان... درعك المخفي».

سقط بصرها على خاتم زواجها فانفجرت منه صورة جمال،
وجه من ضوء وحنين: «اصمدي». أدركت أن هذه التعويذات،
أبوية وأمومية وعاطفية، تنصهر داخلها لتشكل درعًا منيعًا من القوة.
تحررت من يديه بسرعة البرق. فانقض عليها من جديد، حاول
عض رقبتها بعنف متوحش متقمصًا دور "دراكولا". لمحت
منحوتتها الصغيرة "الماجدية" مرمية على الأرض، ملطخة بدمها،
التقطتها بيدها المضطربة من الغضب والألم، فاستجابت قافزة في
قبضتها. صراعهما يشتد حتى وصلا إلى الشرفة الواسعة والهواء
معلق بين السماء والأرض في لحظة مصيرية.

استحضرت كلمات الملاية سعدية الحكيمة في سرداب طقوسها: "الرأس مسكن الروح!" وجَّهت ضربة قوية ومدروسة لرأسه بالمنحوتة، فاختل توازنه واهتزت قامته المتغطرة. «هذه لأمي جميلة الطاهرة! وهذه للماجدية الأبية!» صرخت وهي تدفعه بقوة خارج الشرفة، ترنح للحظة على حافتها الرخامية، عيناه تتسعان بالذعر. مد يده محاولاً التثبيت بذراعها، فخبت ظنه وتراجعت خطوة للوراء.

في تلك اللحظة حدث شيء غريب. الضوء المتسرب من شقة مجاورة انعكس على زجاج النافذة الكبيرة للصالة، فرأت نسرين مشهداً مزدوجاً: جان المترنح على حافة الشرفة، وخلفه انعكاس امرأتين - نسرين التي تعرفها، وسارة التي لم تختار أن تكونها. وفي لحظة فارقة، رأت سارة في الانعكاس تمد يدها لإنقاذ جان، بينما وقفت نسرين متجمدة. إرادتان في جسد واحد تتصارعان على قرار الحياة والموت.

سقط جان في الفراغ المظلم. ترددت صرخته المرعبة طالباً النجدة من أسلافه، فاختلطت ضائعة بأصوات المدينة الصاخبة وزمامير السيارات. ثم خيم صمت الموت الأبدي. لاحظت نسرين أن انعكاسها على زجاج النافذة قد عاد واحداً مجدداً. اختفت سارة، ربما إلى الأبد. ما تبقى ساعتها فقط وجهها هي - نسرين ابنة جميلة، مع دمعة تنزلق على خدها، ليست حزناً على جان، بل على الحقيقة المعقدة التي اختارتها.

قبل أن تهرب من مسرح الجريمة، استخرجت من حقيبتها
الهيرمس منديل جمال المندى بدمعته الأخيرة. أغمضت عينيها
واستنشقت عبيره الدافئ، كمن تودع وطنًا محفورًا في القلب.

فتحت الجواز الإسرائيلي وخطت عليه بحروف واضحة
متحديةً، وكل حرف تكتبه كان يقطر كبرياء: «أنا نسرين، ابنة جميلة
الگحاحه، حفيدة الماجدية الشامخة. لن تجدوني أبدًا في شوارع تل
أبيب. أوفر عليكم الجهد والوقت والمتابعة، ستعثرون عليّ في كل
قطعة طين تحكي عن امرأة عراقية رفضت أن تكون إلا نفسها».

ثمّ عمدت إلى منحوتة الماجدية، رفعها من جديد أمام عينيها
فتطلعت بلونها الذي استحال الى اللون الأحمر بدماء كانت مزيجًا
من دمها ودم الشيطان، لم تبال بمناقشة الفكرة فوضعتها على جدار
الشرفة المنخفض وهي تتطلع بشجاعة بعينين من طين إلى أضواء
باريس المتوهجة. ثم أرقدت قربها الجواز وما نقشت فيه من
كلمات التحدي.

قبل أن تغادر الشرفة، نظرت مرة أخيرة إلى زجاج النافذة. لم
يكن هناك انعكاس هذه المرة - فقط شفافية تامة تكشف أضواء
المدينة المتلألئة، كأن الحاجز بين عالمين قد زال، وكأن حدود
هويتها قد تحررت أخيرًا من سجن الانعكاسات. وفي مكان ما بين
هاتين الميبتين، ولدت نسرين من جديد.

الفصل السادس

”إذا كنت تريد الهروب من الأشياء التي تضايقك حقًا، كل ما تحتاج إليه ليس أن تكون في مكان مختلف؛ بل تكون شخصًا مختلفًا”

”سينيكا”

(٢١)

الوقت كان يضيق. هكذا فكرت سريعًا: درجات السلم ليست خيارًا آمنًا لها - قد يثير ارتباكها الواضح انتباه أحدهم، لذلك اتخذت قرارها بسرعة. عبرت الشقّة بخطوات حذرة، متجنبّة النظر إلى بقايا الصور الممزقة على الأرض وكأس الشارتروز المحطم. خرجت إلى الردهة المضاءة بضوء خافت وتوجّهت نحو المصعد. ضغطت على زر الاستدعاء بإصبع مرتجف، فارتفع صوت رنين خافت أعقبه صوت الكابل المعدني وهو يتحرك.

انتظرت، قلبها يخفق بعنف. ثواني الانتظار امتدت دهرًا طويلًا. فكرت فيما فعلته للتو - دفعت جان من الشرفة، أنهت حياته، وربما أنهت معه تلك المطاردة الغريبة. سؤال واحد ظل يلح عليها: هل ستنتهي حقًا؟

حطّت غرفة المصعد التي استدعتها أمامها وانفتح بابها ببطء مصدرًا صريرًا خافتًا. كان فارغًا، لحسن حظها. دخلت بسرعة وضغطت على زر الطابق الأرضي. حين أغلق الباب، رأت انعكاس وجهها للمرة الأخيرة في المرآة المثبتة على جدار المصعد - وجه امرأة مختلفة عن تلك التي دخلت هذه البناية قبل ساعات. ملامح أكثر صلابة، عيناں أكثر يقظة، وشعر ملطخ بالدم.

انزلق المصعد للأسفل بهدوء. تنفست بعمق، محاولة تهدئة أعصابها. طرقت على جدار المصعد بأصابعها بتوتر. كان هبوطه

بطيئاً بشكل مستفز. في الطابق الثالث، توقف المصعد فجأة. انحبس نفسها. ماذا لو كان أحد شركاء جان؟ تراجعت للزاوية الخلفية، يدها تبحث في حقيبتها عن أي شيء يمكن استخدامه كسلاح.

انفتح الباب ليكشف عن زوجين مسنين فرنسيين يتحدثان بصوت منخفض. توقفوا عن الكلام حين رأيا المرأة ذات الشعر الملطخ بالدم في الزاوية. تبادلا نظرات قلقة ثم دخلا بتردد. واصل المصعد هبوطه، والصمت يخيم على الركاب الثلاثة. المرأة المسنة كانت تلقي نظرات متسائلة على نسرين، عكس زوجها الذي تجنب النظر إليها تمامًا.

وصل المصعد أخيرًا إلى الطابق الأرضي، فانفتح بابه ببطء على ردهة مضاءة بشكل باهر. اندفعت نسرين للخارج، متحاشية النظر إلى عيون سكان البناية الذين تجمهروا في الخارج. انسلت من بينهم كظل هارب، فكانوا - دون أن يدروا - جسراً خلاصها الوحيد.

من بعيد، رآته. جان، الذي كان قبل لحظات رجلاً يمتلك سلطةً وأسرارًا، صار الآن جسدًا هامدًا يحتضن الأرض وسط بحيرة قرمزية تتمدد تحته كهالة من جحيم.

لفح الهواء البارد وجهها كصفعة منعشة، شاركتها أضواء باريس الليلية الانعكاس على وجنتيها في لامبالاة صارخة لما جرى ويجري في هذه المدينة - المدينة التي لم تكثرث هي الأخرى

لمقتل عضو مهم في تيكون عولام، فحركة المرور البعيدة استمرت في إرسال أصواتها، كأنها تهمس لنسرين: "اهربي... اهربي الآن". ركضت بجنون عبر شوارع مونمارتر المتعرجة. عاد المطر يغسل باريس، يكتب بقطراته تفاصيل وجود امرأة نحتت هويتها بيدين طاهرتين. لاح لها هاتف عمومي في زاوية شارع مظلم، فاندفعت نحوه كغريق يتشبث بقشة نجاة. رفعت السماعة بأصابع مرتعشة، وطلبت رقم وليد.

اخترق صوته الحازم أعماق روحها: «اسمعيني جيدًا...» فاستقرت كلماته في فضاء الكابينة الصامت كأحكام نهائية لا استئناف فيها «لكل مسار نقتحمه بغير إرادتنا، ثمة ظلال موازية تُنسج في الخفاء. مسارات بديلة متوازية مع خطواتنا». انفجرت نسرين بصوت محشرج من فرط التوتر: «كفى الغازًا! لقد أُلقيتُ بجان من شرفة شقته في الطابق الخامس. وليد؟ مالك تتحدث إليّ بكلام المجانين!»

عينها لم تخفِ الرعب المتسلل إلى كيانها. جريمة ارتكبتها للتو، ودماء زينت يديها، وفرنسي يهودي هوى أرضًا مخلفًا بحيرة من الدم.

«سرور اكتشف مخططهم معي... فقتلوه!» صرخت فتناثر صوتها داخل الكابينة كطنين نحل على وشك الهجوم. انهيار كامل على الطرف الآخر. تحول صوت وليد إلى نحيب مكتوم:

«يا إلهي... يا إلهي... كنت أشك... وها هم يؤكدون شكّي».

«نعم!» أتى صوتها كسيف قاطع. «المنظمة التي وثقتم بها... الموساد... جان نفسه! كلهم شياطين جحيم واحد!»

وليد ينهار بالكامل: «نسرين... سامحيني... سامحينا جميعاً... قتلنا سرور بأيدينا حين وثقنا بهم... دمه في رقبتنا!»

«لا!» صرخت بصوت يخترق ظلام الليل. «دمه في رقبتى أنا! مات لأنه أراد حمايتي من هؤلاء الوحوش!»

حلّ صمت خطير بينهما للحظات، كسرت بصوت خافت، مرتجف: «بتُ أخاف عليك، كنت تحذرنى يا وليد... والآن، أنا من تحذرك منهم».

لم تشعر بخوف في إجابة وليد، فالثقة بنفسه كانت كبيرة جداً، كشفت بتجارب سابقة عن قدرة الغوص في وحل خيوط متشابكة وإعادة خيطاً واحداً متسلسلاً: «لي مساراتي الخاصة عند هكذا امتحان. إن كان البحر مسبح لهوهم، فالمحيط ملعب صباي».

«أين أنت الآن؟» سأل بقلق يقطر من كلماته المتكسرة.

«في قعر الجحيم!» قالت ودموعها شلال متدفق في ليل باريس البارد.

«اهدئي... سأتولى الأمر بنفسى» حمل صوته غضباً مقدساً.

هدر صوته مقابل ارتباكها: «اهدئي! ما لا تدركينه، أن من أمروا بوجوب إرسالك إلى تل أبيب كانت لديهم غاية محددة. هي تحقيق

نصر إعلامي على العرب واستعادة تعاطف العالم معهم. مقامك في عقيدتهم يوازي ما يراه الشيعة في ذرية النبي محمد». ضحكت ضحكة هستيرية نابغة من آبار خوفها: «إذن، أنا في اليهودية مقدسة كقدسية سيد مديح في العراق... موسوية في الديانتين! لماذا أنا؟ لم اختارني الله لأعذب هكذا من دون العالمين؟»

لئن نبرته إلى حنان الأب: «انصتي جيداً... توجهي الآن إلى محطة قطار الشرق. في الخزانة رقم "٢٣" ستجدين حقيبة سوداء فيها أدوات تنكر، ملف أحمر وجواز باسم ماري كونتاري، ومعها تذكرة قطار إلى ليون، ومفتاح شقة وعنوانها بالضبط». تنفس بعمق: «من اليوم، أنت ماري كونتاري. أما نسرين وصوفي، فقد رحلتا مع جان. وقد ألقى القدر بالثلاثة من الشرفة». في محطة قطار الشرق، مدّت نسرين أصابعها المرتعشة نحو الخزانة رقم "٢٣". فتحتها لتجد حقيبة سوداء أنيقة. داخلها، الملف الأحمر ينتظرها: «ماري كونتاري، مُدرّسة في ثانوية للبنين وكاتبة من أصول تركية. خريجة جامعة ليون الثانية». مع كل سطر، كانت صوفي تضمحل. تولد ماري من رحم الكلمات. أخرجت شعراً مستعاراً بنياً ينحدر على صدرها. عدسات خضراء. نظارات بإطار ذهبي. في المرأة، رأت وجهاً غريباً يتشكل. رافق الملف ملاحظة من وليد بحبر أزرق: «لم نختر كل ذلك اعتباطاً. جميع ملامح

ماري كونتاري تناسبك. اهتمي بمظهرك كما في الصور المرفقة». همست لنفسها: «وداعاً نسرين، وداعاً للطين الذي شكّل أحلامي. وداعاً للمنحوتات التي حملت روحي».

وفي قطار متجه إلى ليون، جلست وحيدة. تخيلت نفسها امرأة مزقت كل صورها القديمة. كل رسم. كل خربشة لمنحوتات تحفظها ذاكرتها. ألقت في سلة المهملات آخر قطعة طين كانت تحتفظ بها في جيبيها. القطار يشق الليل. النافذة المظلمة تعكس وجهاً لا تعرفه إلا قبل لحظات. وجه امرأة تدعى ماري.

في ليون، استقرت ماري كونتاري في شقة صغيرة بحي هادئ. علّقت شهادتها المزورة. اشترت ملابس بسيطة أنيقة. تعلمت المشي بطريقة مختلفة. التحدث بلهجة فرنسية خفيفة. الابتسام بهدوء. عرفنها زميلاتهما في المدرسة الثانوية كامرأة هادئة. تحب الأدب وتكره الفن المعاصر. «لا أفهم هذه المنحوتات الغريبة». كانت تقول. «في أفضل الكتب، نجد أنفسنا دون ضجيج».

صمّمت شقتها لتكون نقيض ماضيها. لا أثر للفن على الجدران. لا تماثيل، لا طين. فقط رفوف كتب. نباتات خضراء. ستائر بيضاء تتمايل مع النسيم. في المساء، تجلس بشرفتها. تصحح دفاتر طلابها وتشرب الشاي. أحياناً، تحن أصابعها للطين. تتحرك في الهواء تحت شكلاً غير مرئي. تقمع هذا الحنين. تفتح رواية. تغرق في عوالمها.

مرت السنوات. أصبحت ماري حقيقة لا يشك فيها أحد. نسيت تقريباً شعور الطين بين أصابعها، كل ذلك تقيّة. صارت امرأة أخرى. تؤمن أن أجمل الفنون هو فن الاختفاء.

وفي دُرج مقفل، احتفظت بمنديل جمال الخالد، وكلمته: تذكرني، أحياناً نحتاج أن نموت لنعيش. احرقني الجسور. ابني حياتك من جديد.

وعند عتبات ليون، حيثُ تلتقي أقدار البشر كالتقاء نهري الرون والسون، كان هناك مقهى صغير صامد: "لا سوا". مقهى يختار زبائنه بعناية. كما اختار أن يكون ملاذاً للمرأة الغريبة التي حملت شتات الأوطان في روحها.

في حي "لا غيوتير" العمّالي الواقع على الضفة اليسرى لنهر "الرون" في مدينة ليون، حيثُ تنام أحلام الكادحين على وسائد التعب، يقف المقهى شاهداً صامداً في زاوية منسية من الزمن. إنها بناية عتيقة من ثلاثينيات القرن الماضي، ظلّت شاهدة على تاريخ طويل من الأحزان والأفراح. وبدخلها، تنتشر طاولات خشبية قد حفر الزمن عليها خرائط الذكريات، بينما تصطف كراسي معدنية تنن تحت ثقل الأجساد المتعبة. أما النوافذ المغبرة، فتتوارى خلف ستائر قطنية باهتة تحجب عنها ضوء النهار، وكأنها تحافظ على أسرار المكان التي تراكمت عبر عقود من الحكايات والتحويلات. و"مسيو برنار"، حارس هذا المعبد منذ عشرين عاماً، يفتح أبوابه في الخامسة صباحاً، لاستقبال أول المصلين في محرابه الوديع.

في هذا المكان، وجدت نسرين ملاذها. كانت تردد اسم المقهى كتعويذة: "لا سوا". حين تدفع الباب الخشبي، يستقبلها صريه المؤلف: «هنا، في هذه الزاوية المنسية من العالم، يمكنك أن تكوني من تشائين، أو لا أحد على الإطلاق». في ذلك المقهى البسيط، حيث الراديو القديم الذي كان يث أغنيات فرنسية وأخبارًا محلية، وجدت مكانًا يشبه روحها: بسيطًا، دافئًا، صادقًا، وحزينًا.

«مساء الخير يا ماري الأنيقة!» يحييها برنار بابتسامته. شيء في عينيه الزرقاوين يذكرها بأبيها ميثم. «هل تريدين قهوتك المعتادة؟» يسألها دومًا، رغم معرفته الإجابة. قهوة غامقة بسكر زائد. حلوة كأحلام طفولتها. بعدما اعتادت قهوة باريس المرأة.

تجلس دائمًا على الطاولة نفسها قرب النافذة، تراقب عمال المصانع وهم يتدفقون من أبواب المعامل المتعبة. تسمع أحاديثهم البسيطة عن مباراة ليون الأخيرة وارتفاع أسعار الطماطم في السوق. تغبطهم على بساطة وجودهم، لا أحد منهم يحمل سبع هويات مزيفة، لا أحد يخشى أن يستيقظ صباحًا باسم آخر محفور على جواز سفر كاذب.

وعند المساء، تختم يومها في المقهى بصوت إديث بياف ينبعث من المذياع القديم، تغني - "La Vie en Rose" "الحياة الوردية" بصوت جريح يراقص أركان المقهى، وكأنها تهمس لجمال، أو جمال هو من يهمس إليها "الحياة، رغم كل شيء، فهي تستحق أن تُعاش".

ضمّني إليك بقوة
هذا السحر الذي ألقته
هو الحياة الوردية
عندما تُقبلني تتهد السّماء
ولأنني مغمضة العينين أداعب خدك
أرى الحياة وردية
وردية جدًّا.

(٢٢)

"ليون / نيسان / ٢٠٠٣"

داهمتها الإنفلونزا ذات شتاء. حمى شديدة وصداع وسعال جاف. سقطت أسيرة فراشها لأسبوع. معزولة في شقتها عن كل شيء. بعيدة عن المقهى. مرّت الأيام ثقيلة. قهوة الصباح على طاولتها المطلة على الشارع، روتينها المقدس صار حلمًا بعيدًا. كَسَرَ برنار شموخ عزلتها بزياراته، يحمل دواءً مرّة، حساءً ساخنًا أخرى، وكلمات تبعث الدفء في روحها. وفي صباح مختلف، شعرت أخيرًا بعافيتها. بدت أضواء المقهى أكثر دفئًا حين دفعت بابه. استقبلها هواء مُحمل برائحة البُنّ، ورنين الفناجين وهمهمات الزبائن.

«ماري!» هتف برنار فرحًا. «أخيرًا تعافيتِ يا ابنتي؟» ابتسمت بخجل وهي تتذكر لفتاته اللطيفة خلال مرضها. "Dieu merci" «شكرًا لله». ردّت بصوت احتفظ ببحّة المرض. «هذه الإنفلونزا كانت أقسى مما توقعت».

بعد أن استقرت على طاولتها الأثيرة المطلة على الشارع - عرشها الصغير أمام نوافذ المقهى - تسللت إلى مسامعها همهمات خافتة قادمة من التلفاز، كأنفاس شبح يهمس بكوايس الليل اختلطت مع حوارات الزبائن فيما بينهم.

على الشاشة العريضة، انبسطت مشاهد تقطر دمًا: صفوف من الجنود الأمريكيين ممتدة كسور حديدي لا يُخترق، وأسلحتهم الثقيلة تحرق كعيون وحش جائع نحو حشود من البشر المنكسرين. عراقيون يقفون في طوابير الهوان كخراف تساق إلى المجهول، أجسادهم ترتعش والخوف يرقص في عيونهم، يمدون أوراقهم الشخصية بأصابع تهتز كأوراق الخريف أمام وجوه غريبة لا تفهم نبضة قلب أو لغة أرض. في المشهد الخلفي، تمايل لافتة ساخرة بأحرف إنجليزية جليدية: "نحو الديمقراطية الجديدة"، بينما الوجوه السمرء تنتظر صدقة الإذن للمرور في شوارع مدينتهم التي تحولت إلى قفص أحمر مفتوح.

«ما الذي يجري في العراق؟» تساءل برنار وصوته يحمل دهشة من يراقب عالمًا يحتضر من بعيد.

تجمدت نسرين في مكانها كتمثال من رخام محطم، عيناها تتسعان في رعب صامت وهي تحرق في الشاشة التي تعرض تشريح وطنها الحي. لمحت دهشة برنار تجاه ما اعتراها من اضطراب، فحاولت كبج العاصفة في صدرها وأجبرت نفسها على الجلوس بهدوء مصطنع.

ثم انتقلت الكاميرا لتُظهر لقطات من دمار متحف العراق الوطني - ذلك المكان المقدس حيث كان جمال يأخذها في رحلات عبر التاريخ. الآن بدت أبوابه المحطمة كقم عجوز فقد أسنانه، والقطع الأثرية مبعثرة كأحلام ميتة على أرضية باردة. أما

البنك المركزي في شارع الرشيد - قلب المدينة النابض - فقد تحول إلى هيكل أجوف بلا نوافذ، خزاناته مشرعة كجروح نازفة تحت سماء لا مبالية.

شعرت بخنجر يطعن قلبها ويلتوي في أحشائها. كل ما عاشته من ألم هو مجرد خدوش سطحية أمام هذا الطعن النافذ في الروح. «كيف هي الماجدية الآن؟» همست لنفسها دون وعي، عيناها مثبتتان على الشاشة تبحث عن لمحة من حيّها ومرتع ذكرياتها. «ماذا قلت؟» التفت إليها برنار. «لا شيء... مجرد...» اضطربت، مدركة خطأها. «أقول إن ما يجري هناك، مأساوي».

قبضت على فنجان القهوة بكلتا يديها لتوقف ارتعاشهما بينما السائل الحار انسكب قطرات على الطاولة. كانت تحاول أن تحبس صرخة تتصاعد من أعماقها - صرخة امرأة ترى وطنها يُغتصب أمام عينيها وهي عاجزة حتى عن البكاء.

في قلبها، انهارت كل الأقنعة. كل المعاناة السابقة - التي ظنتها جحيماً - صارت مجرد نسمة علية أمام هذا الإعصار الذي يمزق روحها. فقدان الأحبة مؤلم، أما فقدان الوطن... فهذا موت بلا دفن.

«شعب مسكين» قالت بصوت مختنق، وكأنها تتحدث عن الغرباء وليس عن نفسها وأهلها وجيرانها وذكرياتها، تحاول أن تبدو كفرنسية تتعاطف من بعيد.

«نعم، حضارة عريقة تُدمر أمام العالم» أجاب برنار وهو يهز رأسه بأسف، غافلاً عن أن المرأة التي أمامه لا تراقب تدمير حضارة فقط، ففي حقيقة الأمر هي تراقب تفاصيل تدمير ذكرياتها. رشفت قليلاً من قهوتها لتخفي الدموع التي كانت على وشك الانهمار، فكاد الفنجان أن يسقط من يديها المرتجفتين.

«ماري، هل أنت بخير؟» سأل برنار بقلق.

«نعم... فقط... التعافي من المرض». أجابت بصوت خافت، وكأن كل كلمة تكلفها مجهوداً خارقاً.

كانت تنهار من الداخل، روحها تتصدع في صمت، فيما حافظت واجهتها على رتابة فرنسية باردة تتابع مأساة بلد بعيد... بعيد جداً. في محاولة يائسة لتذوب وسط هذا المشهد المؤلم، رفعت إصبعها نحو النادل طالبة قهوة أخرى - حركة دفاعية لإبعاد نظرات الزبائن وبرنار التي شعرت بلسعاتها تخترق جلدها. الجميع منشغلون بغير العراق، المأساة تتراءى لهم إعلاناً تجارياً تافهاً. القدر، ذلك الكاتب القاسي، يواصل كتابة فصول جديدة من العذاب.

بعد هدوء نسبي شعرت به في انتظار طلبها، اخترقت عيناها المشهد المألوف للمقهى، فتجمّدت. هناك، بين الطاولات المبعثرة، كان يتحرك طيف لم تحسب له حساباً. "مارسيلو" بمئزره الأبيض الذي كان يوماً ما يلفه حول خصره في مطبخ آخر، في زمن آخر، في حياة أخرى، في جريمة أخرى.

توقّف الدم في شرايينها. كيف تجرأ أن يغزو ملاذها الأخير؟
كيف اخترق الزمن والمسافات ليقف هنا، في هذه البقعة التي ظنّتها
محصّنة ضد أشباح الماضي؟ بعد كل هذه السنوات من النسيان
المدرّوس، عاد ليذكّرها أن بعض الجراح لا تندمل... تتقشّر فقط.

«مدام صوفي!» التقطتها عيناه فوراً. «ألم تكوني تفضّلين
قهوتك مرّة في مقهى فلور؟» تشبّثت أصابعها بحافة الفنجان.
الأسماء التي تقمصتها تتراقص أمامها. أسبوع واحد من الغياب كان
كافياً لتنهّار جدران الأمان. «أنا لا أعرفك. عفواً، اسمي ماري
كونتاري». حاولت الدفاع عن قناعها الأخير.

«حقاً؟ وجان بيير، ألم تسمعي عن انتحاره؟» طعنها بين عيونها
وهو يشّت دخان سيجارة زبون قريب منها.

انسحبت سريعاً من المقهى دون وداع، تجرّ خلفها ثقل
مشاهدتها لضياح وطنها من على شاشة التلفزيون، ومرارة سؤال
مارسيلو الذي شلّ وعيها.

مرت ليلة طويلة قبل أن تقرر العودة. في اليوم التالي، دفعها
للقدوم إلى المقهى مجدداً حضور جديد لا خوف معه - كما لو أن
خبر موت جان بيير المتجدد كل حين قد حرّرها من شيء لم تعد
تذكر ماهيته. وقف مارسيلو عند طاولتها: «مستحيل أن تكوني غير
صوفي».

انكسر الجدار أخيراً: «اكنم السراً! نعم أنا صوفي. تجربة حب
عنيفة أجبرتني كي أكون هنا». وأخيراً دعتّه للقاء عند ملتقى السون

والرون، متذكراً شيئاً خطيراً، فكان سؤالها الأخير مغموساً في السم، مُحلّى بالعسل: «هل ما زلت لا تجيد السباحة؟» ابتسم وهو يخفض صوت التلفاز. غير مدرك أن الإنفلونزا التي أبعدها أسبوعاً عن المقهى. كانت أرحم بكثير مما ينتظره عند ملتقى النهرين.

ظَلَّ مارسيلو فوق الجسر العتيق. حيثُ تتعاقب مياه السون والرون. ينتظر غاضباً وسط ستين دقيقة ثقيلة. تحت قدميه، أحجار شهدت قبلات ودماء عبر قرون. البرد يتسلل من النهر. يخترق العظام بصمت. الظلام يبتلع المدينة. المصابيح تتواطأ مع العتمة. كأن ليون قد قررت محوه من وجودها.

حين همّ بالانسحاب، انبثقت من الضباب. نسرين بشالها الملتف حول وجهها. معطفها الأسود يرقص مع هوى النهر. خطواتها فوق الجسر متأنية وحاسمة. ارتسمت على شفثيه ابتسامة ثعبانية. وحين تكلم، كانت كلماته حادة: «لماذا تأخرت؟ يبدو أنك لا تجيدين المواعدة».

فوق الجسر، كانت المياه تجري سوداء تحت ضوء القمر، تأملت سطحها المتلألئ. تذكرت نهراً آخر، بعيداً في العراق، حيثُ دفنت حباً وهوية. «هناك تركتُ شيئاً من روحي». تمتمت في داخلها.

منذ أن لمحتُ مارسيلو في المقهى، استيقظ فيها الخوف القديم. صورها المتعددة يجب أن تموت هنا وللأبد. المقهى

الدافئ سيصبح ذكرى. حنان برنار سيغدو ندبة أخرى على روحها. ثم، في لحظة واحدة حاسمة، قررت للمرة الأولى: لن تهرب. ستبقى على قيد الانتقام، وستتظر خلاصها عند النهر حيث تلتقي المياه كالأقدار. هناك، ستخلع أقنعتها أمام مارسيلو، وتواجه أطياف هوياتها التي استوطنت كوابيسها. ستروي "سالفو" امرأة داخلها - سلالة كاملة من المقاومات - نساء رفضن الانحناء.

«لنجلس على هذه المصطبة». قالت بهدوء مصطنع. «دعنا نتحدث عنك أولاً. رأيت حبيبك شاندرال الهندية بعد زواجك من الثرية العجوز إيلين. كانت محطمة. تقف على حافة جسر كهذا. لا أعرف هل انتحرت، أم لا».

«اطمئني». قاطعها بسخرية. «النساء مثلها يحزن قليلاً ثم يجدن شاباً آخر. الحياة تستمر».

«وأنت سعيد بذلك؟ كل يوم مع امرأة جديدة؟»

«وما الضير؟ ها أنا اليوم معك».

«أنا لست عشيقتك!» قالت بحدة. ثم سأله بنبرة عميقة: «أفي

وسعك العيش من غير أن تخون؟»

تحول صوت مارسيلو إلى سكين باردة: «ما الذي تخفيه يا

صوفي؟ من أنت حقاً؟»

أضاف بنبرة مسمومة: «هل لانتحار جان علاقة بانتحالك

شخصية ماري كونتاري؟» سقطت كلماته ثقيلة في بركة ذاكرتها.

أسماء عديدة مدفونة في مقبرة نسيانها. تنبش الآن من قبورها.
تجمد الهواء في رثتها. توقف الزمن.

بدا النهر تحت الجسر متوقفاً عن الجريان. مياهه السوداء تعكس
وجوهاً كثيرة لامرأة واحدة، وجهها الذي تراكمت عليه آثار
الماضي. الكون علّق أنفاسه، والنجوم أغمضت عيونها كأنها تستمع
لتفاصيل رواية أليمة.

كل الأقنعة التي ارتدتها، كل الأسماء التي تقمصتها، كل
الحيوات التي عاشتها، تجمعت الآن في لحظة واحدة على هذا
الجسر الذي شهد يوماً مرور نابليون منتصراً.

أطياف من الماضي تتراقص أمامها: جناء ومنافقون وقتلة
أرواح، جميعهم سقطوا تحت ضرباتها عبر السنين. بينما تقف
نسرين الآن وسطهم على الجسر، تراهم جميعاً ينحنون أمامها
كجيش مهزوم. تمشي بينهم بخطوات الإمبراطور نفسه، لا تغزو
بلدناً، إنما تسترد روحها من سنوات الاختباء والتخفي. «أنا
نسرين»، تردد كما كان نابليون يعلن انتصاراته «أنا نابليون».

الصمت يثقل الهواء. الظلال تتراقص على وجه مارسيلو. وقفت
الحقيقة عارية أمامها. تنتظر انطلاقها. الليل يحبس أنفاسه منتظراً
إجابة السؤال: من هي حقاً؟

قادته إلى منتصف الجسر بحركات ناعمة. تظاهرت برغبتها في
مشاهدة القمر منعكساً على سطح النهر. عيناها معلقتان بالنهر
الممتد أمامهما. فاعراً فمه، مستعداً لابتلاع كل ما يسقط في أعماقه.

همست لنفسها: «بات الحيوان خاضعًا لشروط تكيفه. لا يهم إن كان يتألم. أو كان دمه يسيل بحرًا». كلماتها تحمل صدى تجارب مريرة. ذكريات مدفونة في أعماقها. «أتعلم يا مارسيلو؟» سأله. متألمة ملامحه الجذابة التي لم تعد تخذعها. «أعلم ماذا؟» رد بغرور رجل اصطاد قلوبًا كثيرة.

«كيف يمكننا التخلص من الظلام الساكن داخلنا؟» ضحك بارتباك. كأن سؤالها لمس وترًا حساسًا «أي ظلام؟ أنت لست مظلمة. أنت كتاب مفتوح بالنسبة لي». غرقت في صمت مرهق ثقيل. لم يدرك مارسيلو أن صمتها يخفي غضبًا بدائيًا. غضبًا يتجاوز حدود العقل. غضبًا نهايته قتل. صمتها يتحول ببطء إلى سكينٍ بنصلٍ حاد. «تكلمي! صمتك يقتلني!» صرخ. كأنه أحس بالخطر يزحف نحوه عندما كشف القمر انعكاس ظلال المدينة في عينيها. «أنا من المنفردين الذين يصابون بالغثيان من وجود الآخر. وأنت منهم». ردت بهدوء مخيف. أضافت وهي تنظر إلى النهر: «هل تعلم أن للأنهار ثرثرة؟ إنها ثرثرة الأجساد». كلماتها الأخيرة كانت تطفو كنبوءة مظلمة فوق النهر الذي يواصل همسه، فهو يستعد لاستقبال سر جديد، صيد جديد، غريق جديد.

شدّها مارسيلو إلى صدره بقوة امتزج فيها العنف والغريزة. منتزعًا قبله ظنّها بداية عصر جديد لحب لن تخدم آثاره. دفعته برفق. رسمت ابتسامة غامضة، وفي صدرها يغلي بركان الانتقام.

تذكرت حوارًا مفضلًا لها من فيلم "أبصق على قبرك": «حان وقت الاسترخاء. الألم ليس أعظم من كلمة؟ دعني أعلمك معناها الحقيقي».

«هل أعجبتك قبلي؟» سألتها بغرور رجل اعتاد الانتصار على سداجة النساء. لم تجبه. بدلًا من ذلك، رفعت يداً اعتادت زف الرجال إلى الجحيم، وسددت طعنة إلى جانبه بحركة مباغته: «هل تحتاج إلى مزيد من الإلهام؟ مزيد من كلماتي؟»

اتسعت عيناه بدهشة طفل اكتشف متأخرًا أن حلوى الغرباء مسمومة. حاول الوقوف. توازنه خانه مثلما خان قلوب النساء. «أنا من رميتُ بجان من شرفة شقته. وسيلحقه مارسيلو حيثُ الجحيم».

دفعته بكلتا يديها في النهر: «هذه لساندرا، وإيلين». واصلت صراخها خلف نذاته المنحدرة. كانت تعلم أنه لا يجيد السباحة. كأن القدر نفسه رتب لنهايته.

صرخت بالجسر وهي تتمسك بسياحه. بينما كان النهر يتنفس بهدوء قاتل: «إسقاط الإضافات من الكمال... ومارسيلو إضافة مشوهة تم اجتثاثها».

شعور غريب تسلل إلى روحها. مزيج من الخدر والراحة. كأنها أنهت فصلًا مظلمًا من كتاب حياتها. هداً كل شيء. صمت النهر. راضيًا عن حصته من العدالة لهذه الليلة.

بصقت في النهر، وقالت بسخرية: «أبصق على قبرك عزيزي مارسيلو. من سيشك أنك رميت نفسك بحثًا عن السمك؟»
رسمت الفقاعات على سطح الماء خريطة جريمة رحيمة،
فأجبرت طيور السنونو على العودة لتحوم في السماء، وقد علا
ضحجها، لتفضح سرًا دفينًا، وهي تهمس للعالم نكاية بنسرين
العراقية - قاتلة الإيطالي مارسيلو: «ثمة قاتل طليق يتجول هنا عند
ملتقى الرون والسون».

ردّت نسرين على ضحج الطيور الغير منصف لها بنظرات
باردة، محدقة في موضع السقوط. ومن خلال ملتقى النهرين، وهما
يبتعدان بجثة مارسيلو، استعادت ذكرى نهري وطنها الأم: دجلة
والفرات. فانطلقت من وسط صدرها صرخة أذلت ذاك العالم الذي
طالما سخر من بيئتها. «تنحني الأنهار جميعها أمام الجنوب».
وفي الصباح، ستعود ماري كونتاري إلى مقهى لا سوا، ستطلب
قهوتها المعتادة من برنار، ستجلس على طاولتها قرب النافذة. لن
يسأل أحد عن مارسيلو الذي اختفى ليلاً. في مدن ليون، يختفي
الناس، فتبلعهم الأنهار أو الذاكرة.

عادت منهكة بعد طَيِّ صفحة مارسيلو، رمت بنفسها فوق
السرير، واستسلمت لرغبة عارمة اجتاحت عينيها - توق خاص
لنوم العميق تعويضًا عما خسرت من براءة. بعد ساعات باغتها

طنين أصواتٍ غوغائية قطع عليها هذه اللحظة وأيقظها فزعة،
فتساءلت: «ما الذي فعلته؟»

تحولت عمليات القتل لديها إلى طقوس تمارسها بمتعة غريبة،
تعويضاً عن سنوات الهروب المتواصل. بعد كل جريمة، تقف أمام
المرأة، تحديق في نفسها، تبحث عن أثر لإنسانيتها المفقودة في
عيون امرأة لم تعد تعرفها.

تقرض كلماتها بأسنان يائسة: «كنت أظن أنني أنتقم من مزاحم،
غير أنني كنت أنتقم من نفسي، من براءتي. كنت أقتل نسرين التي
أحببتها، قطعة قطعة».

شعرت بالفراغ يلتهم روحها، الانتقام الذي ظنته شفاءً صار
وهماً. لم تستطع التوقف، لذلك قررت أن تقلب طاس ميزان
العدالة على وجهه فتقتلهم جميعاً بنفسها.

تحولت إلى كائن ليلي يعيش في الظل، ينتقل بين الأزقة
المظلمة، يبحث عن فريسته التالية. البرد في ليون يعضّ روحها،
وهي عاجزة عن إطفاء نار الانتقام المشتعلة في صدرها.

جميع الشخصيات الفرنسية التي مرت في حياتها شكلت جزءاً
من رحلتها، أسهمت في تحولها من امرأة هاربة إلى شبح انتقامي،
قارب عدد ضحاياه عشرة رجال. كل ضحية كشفت وجهاً قبيحاً من
المجتمع الفرنسي: النفاق، الاستغلال، العنصرية المتخفية تحت
قناع الحضارة.

في صفحات مذكراتها السريّة، خطّت بيد ثابتة: «أصبح القتل
رعشة دائمة في يدي، أكبر من فعل انتقامي. إنه محاولة يائسة
لإعادة ترتيب الكون الفوضوي العبي. في كل مرّة أقتل شخصًا،
أحاول إعادة كتابة التاريخ، تغيير مسار القدر، حتى اكتشفت أخيرًا
أن كل عملية قتل أقتربها هي محاولة انتحار مؤجلة». وفي
لحظة ضعف مرعبة، أحسّت بأنشودة الجلاّد تلتف حول
عنقها، تخنقها بصمت مُرّ، تصادر أنفاسها. حاولت التملص بيدين
مبتورتتي الإرادة، انفجر صراخها المثلث بالبكاء: «نحن لا نقتل
الآخرين، بل نقتل الفراغ الذي يسكننا، نقتل صمت الله في لحظات
ظلمنا، نقتل عجزنا عن فهم هذا العالم العبي».

(٢٣)

"نوي / ٢٠١٩"

بردت قهوة نسرين في مقهى "لا سوا" كما تبرد الذكريات في
زوايا الروح المظلمة، ظلت تحرق في الفئجان الأبيض الذي صار
مرآة صغيرة تعكس ثلاثين عامًا من الهروب، فيما عينًا برنار
الرماديتان تراقبانها من بعيد بحنان أب لم تعرفه منذ أن ابتلعت
الماجدية طفولتها.

مرت ساعة كاملة والقهوة لم تلمس شفيتها، فاقترب برنار منها
بقلق واضح: «ماري، دعيني أحضر لك فئجانًا ساخنًا»، إلا أن
رنيًا حادًا مفاجئًا صدر من هاتف نسرين الخلوي قطع كلماته.
تجمدت أصابعها حول الهاتف، الرقم غريب لكن الصوت العراقي
المألوف انفجر في رأسها كقنبلة صوتية: «مزاحم في باريس!»
سقط الهاتف من يديها ورقص على الطاولة قبل أن تمسكه
بحركة يائسة، فيما الصوت يتابع كصدى في كهف: «نوي، حي
نوي». أغلقت عينيها وانهارت دفاعاتها الداخلية في لحظة واحدة،
فعادت بها الذاكرة إلى تلك الليلة الملعونة بصرخات والدها تحت
التعذيب ودموع أمها تحفر أخاديد الحزن ورائحة الموت التي
كانت تملأ المكان بوجود مزاحم وعلوي.

«ماري؟» سأل برنار وقلقه يتسرب عبر نبرته الفرنسية الناعمة،
فابتسمت ابتسامة باردة كجليد الشتاء: «بعض الديون تبحث عن

يسددها». في داخلها، استيقظت الوحوش الثلاثة: نسرين التي تحمل ذاكرة الدم، وصوفي المدفونة مع جان في مقابر باريس، وماري القاتلة التي تجيد الصيد، ثلاث نساء في جسد واحد تنصهر في بوتقة الانتقام.

قامت من مقعدها بحركة سائلة كسيف يُستل من غمده، تحمل في عينيها حلم العثور على مزاحم وتصفية حساباتها معه أخيرًا. باريس تنتظر في الخارج، مدينة الأضواء والظلال حيث يختبئ عدوها تحت قناع من أقنعة الخوف، وهي التي اعتادت التجول فيها كسائحة مع زميلاتها وصديقاتها رغم الخطر المحدق بكشف هويتها، قررت مواجهة أشباحها جميعًا والانطلاق في شوارعها مثل ظل متمرد يحمل ذاكرة نساء عدة في رحلة الانتقام الأخيرة.

وفي أحد المساءات الماطرة في شوارع نوي الراقية عام ٢٠١٩. دارت نسرين في جولة تبدو سياحية لرفيقتها بوليتا، بينما باطنها استخباري محض. وفجأة، أمام مقهى «لو سانكتوير»، رآته. رأت مزاحم برأسه المستدير ونظراته الماكرة وهو يجلس وحيدًا.

«هو، هو بالتأكيد هو!»

تذكرت مقولة "إيلي فيزل" عن الضحية التي تحمل وجه جلّادها محفورًا في ذاكرتها، في حين لا يرى الجلاد في ضحاياه سوى ظلال عابرة. لم يعد ذلك الجلاد المهيب الذي عرفته! بل ظهر شاحبًا، منكشًا، يراقب المارّة بعيون خائفة.

أعلنت صديقتها بوليتا ضرورة اللحاق بقطار ليون، إذ كانت غافلة عن نوايا نسرین. هذا ما دفع نسرین لاختلاق موعد مع قريب بلجيكي قادم لرؤيتها، ولا بد من انتظاره. كذبة ضرورية أجبرتها على دفن وخز ضميرها أو تأجيل الشعور به.

ودّعت بوليتا بابتسامة مصطنعة تخفي بركاناً من النوايا. أصبح الكذب جسراً معلقاً فوق هاوية، ولا بد من عبوره للوصول إلى مزاحم. تذكرت كون الشياطين لا تُطارَد بالصلوات وحدها، كما اكتشفت أن العدالة لا تسير دائماً في خطّ مستقيم.

استأجرت غرفة قريبة من المقهى، ثم بدأت تراقب روتينه بدقة قنّاص. علمت أنه يسكن في عمارة هوسمانية بواجهة كريمية - حيث كانت شقته في الطابق الثالث تطلّ على الشارع بنوافذ طويلة، فيما تحيطها شرفة حديدية مزخرفة.

أما المبنى فمجهز بمصعد محدث، إذ يحرس مدخله بواب مسن يقيم في الطابق الأرضي. لا يعلم حجم المأساة المختبئة خلف باب الشقة رقم "٣٠٣".

تحرك مزاحم خائفاً، متجنباً التجمعات العراقية، فقد كان يمشي محيياً بوجه شاحب. اكتشفت نسرین أن القدر منحها فرصة أخيرة لإغلاق دائرة ظلّت مفتوحة عمراً كاملاً.

في شقتها، وقبل أن تغادرها إلى غير رجعة، وقفت أمام المكتبة الخشبية العتيقة. أصابعها تحسست الحافة السفلية للرف الثالث،

ضغطت بخفة، فانزاحت لوحة خشبية صغيرة بصوت نقرة خافتة. المخبأ السري كان فارغاً تقريباً. سوى شيء واحد. مدت يدها ببطء، وأخرجت قطعة معدنية سوداء، باردة، ثقيلة بما يكفي لتذكّرها بكل شيء - مسدساً من نوع "Manurhin PPK". رفعته نحو ضوء المصباح. السطح المعدني الأسود اللامع عكس وجهها المشوّه، وللحظة، رأت وجهاً آخر... وجه رجل أفريقي ضخم، عيناه مفتوحتان في دهشة أبدية، وثلاثة ثقوب في صدره - ضحيتها العاشرة.

قبل ثلاث سنوات وفي ليون تحديداً شكّل غياب الطالب لوكاس عن المدرسة قلقاً مرعباً قضّ مضج راحة نسرين. أسبوعان مرّاً دون أثر للشاب الذي كان يقتبس وينهل من كامو في كل حصة، يناقش العبث الوجودي بشغف طالب يبحث عن معنى. اختفى فجأة. رقم الهاتف المسجل في الإدارة ظل صامتاً، ميتاً، زائفاً. دفعها قلقها الأمومي - أو فضولها القاتل - لتفحص دفاتر العناوين سرّاً، واستخراج عنوانه.

الحي المهمّش في أطراف ليون كان يغرق في الظلام حين وصلت. البناية المتهالكة بدت وحشاً خرسانياً يلفظ أنفاسه الأخيرة. توقفت عند المدخل، التقطت أنفاسها المتسارعة، ثم بدأت الصعود.

السلم المتآكل يئنّ تحت خطواتها. الطابق الأول... الثاني...
الثالث... روائح العفن والبول والحياة المنهارة تخنقها. الرابع...
الخامس...

الخامس... توقفت لثانية. ذاكرتها خانتها فسرحت: شرفة في
مونمارتر، رجل مهم، يسقط في صمت، صوت ارتطام بعيد،
وتجمهر بارد لمجموعة من الفضوليين.
جان. هزّت رأسها، طردت الذكرى، واصلت الصعود. الطابق
السادس...

الباب المتصدّع أمامها. أصابعها ارتعشت حين لمست الخشب
البارد. طرقت مرتين. خطوات ثقيلة من الداخل. الباب انفتح. رجل
أفريقي ضخم طلّ بنظرة متوحشة. تسود تفاصيله رائحة كحول
عفنة، عرق قديم، وشيء آخر... خطر.
«Bonsoir مساء الخير. أنا السيدة كونتاري، مدرّسة لوكاس.
هل هو هنا؟»

حدّق فيها طويلاً. عيناه الحمراوان تفحصتاها بجوع بدائي.
تمتم بلغة أجنبية، كلمات خشنة، تهديدية. عرفت فوراً أن العنوان
مزيف.

«آسفة للإزعاج». استدارت لتغادر.
بيد ضخمة انقضّ على ذراعها، جذبها للداخل بقوة وحشية.
جسدها ارتطم بالجدار، رثاها أفرغتا الهواء دفعة واحدة. الباب
أُغلق خلفها. صوت قفل يدور. مصيدة من صنع قط بلا مشاعر

لاحت أمام عينيها. زمجر القط بغضب ممزوج بشهوة. عيناه تتفحصان جسد فأرة بطريقة جعلتها تشعر بالعري رغم ملابسها الكاملة.

الشقة خائقة، فوضى مقرزة، قذارة متراكمة، إضاءة ضعيفة من مصباح وحيد يتدلى من السقف. دفعها نحو غرفة النوم. وفي يده... مسدس - قطعة سوداء، نحيفة، أنيقة بطريقة قاتلة. وجه الفوهة نحو صدرها.

«Avance تقدّمي». دخلت الغرفة. فراش رثّ، جدران متشققة، رائحة نفاذة. شيء واحد لفت انتباهها: وسادة مخملية زرقاء فاخرة على الفراش الرثّ. تناقض صارخ. قطعة من عالم آخر في هذا الجحيم.

«اخلعي ملابسك!» الفرنسية متكسرة، الأمر واضح. تظاهرت بالاستسلام. يداها ارتفعتا نحو أزرار قميصها، رأسها انحنى بخضوع مصطنع، عيناها تراقبان المسافة بينها وبينه، تحسبان الثواني. ثم... انقضت بحركة واحدة، سريعة، يائسة. يدها اليسرى انطلقت نحو معصمه الذي يحمل المسدس، اليمنى دفعت كوعه للأعلى.

تفاجأ. المسدس انحرف. تصارعا. جسدهما سقطا على الفراش. الوسادة المخملية تطايرت. أصابعها التفت حول معصمه بقوة امرأة تقاتل من أجل حياتها، تاريخها، هويتها. لوت المعصم بعنف، سمعت صوت طقطقة، صرخة ألم. المسدس سقط. يدها

انطلقت، التقطته. "انقلب الطابغ طبغ... " هي من أصبحت الرب الغاضب وهو يمسك بسلاح قاتل. وجّهت الفوهة نحوه. فيما بقي جالسًا على الفراش، يحدّق فيها بذهول وغضب.

تفكيرها كان أسرع من انفعالها: إطلاقاً واحدة ستجلب الجيران. الشرطة. أسئلة. اتهامات. عيناها سقطتا على الوسادة المخملية الزرقاء. التقطتها. ضغطت الوسادة على صدره بيدها اليسرى، وجّهت الفوهة عبر القماش المخملي.

« Non! Non! لا! لا! » صرخ، يداها حاولتا إزاحة الوسادة. ضغطت على الزناد. صوت مكتوم. ارتجاف. حرارة. جسده تشنّج، قاوم. ضغطت مرّتين، وثالثة. الوسادة امتصّت الصوت والدماء معًا. القماش المخملي الأزرق تحوّل إلى أسود رطب.

سكن جسده. توقّفت حركته. صمت. رفعت الوسادة. عيناها مفتوحتان في دهشة أبدية. فمه مفتوح في صرخة لم تخرج. وفي صدره... ثلاثة ثقب سوداء محاطة بهالات حمراء. تأملت الجثة. الصدمة تصارع الارتياح في داخلها. قلبها يدقّ بجنون، يداها ترتعشان، وشيء ما في عمقها... شيء بارد، هادئ، راضٍ.

انحنت. بصقت على وجهه «Je crache sur ta tombe» أبصق على قبرك».

الكلمات خرجت بصوت غريب عنها. صوت امرأة أخرى. امرأة أقوى. أقسى. فتشت الشقّة بحذر. غرفة تلو الأخرى. خزانات، أدراج، تحت الفراش، خلف الأثاث. لا أثر للوكاس. لا

صور. لا كتب. كان الشاب يكذب من البداية. مسحت بصماتها من كل سطح لمستته. مقبض الباب، حافة الطاولة، إطار السرير. ثم نظرت إلى المسدس قرأت الحروف المنقوشة على الماسورة PPK. صناعة فرنسية. خفيف، نحيف، قاتل. غريزة ما أخبرتها : ستحتاجينه مستقبلاً. أخفته في حقيبتها، وغادرت الشقة دون أن تلتفت.

والآن... وقفت أمام المرأة في شقتها، المانورين في يدها. الضحية العاشرة أعطتها سلاحًا. هدية من ميت. لقت المسدس بقطعة قماش حريرية سوداء، ووضعته في قاع حقيبة هيرمس. بين أحمر الشفاه والعطور الفرنسية داخل الهيرمس يرقد معدن بارد ينتظر إشارة بالوثوب.

بدد رنين هاتفها تلك الذكرى المقرفة، تطلعت في شاشته الرصاصية: المتصل المجهول مرة أخرى! وجدت نفسها مستعدة للخطوة الأخيرة نحو مزاحم. الشبح الذي لا يمكن أن تنتهي مطاردته إلا بموت أحدهما. لم تعد تخشى الموت. كيف تخشاه وهي التي تغزلت بالكروسي الكهربائي في وحدتها؟ متخيلة إياه يصعق ذكرياتها المؤلمة دفعة واحدة.

خبأت المسدس في حقيبتها الهيرمس الفاخرة. دسّت فيها علبة أحمر شفاه ومرآة صغيرة تعكس وجهًا متغيرًا. المرأة شاهدة على

تحولاتها. تراقب عينيها وهما تتحولان من نظرة الضحية إلى نظرة الصياد.

في كل ليلة، حين يلف السكون شوارع "نوي"، تخرج المسدس ppk من مخبئه. تتأمله. تداعب معدنه البارد. متسائلة: هل ستمحو رصاصة واحدة عقوداً من الألم؟ سأحاول! هكذا تجيب متحدية. اتصلت ببرنار، مُخْتَضِن غريبتها. كان أكثر من صاحب مقهى. أباً منحتها الحياة فرصة ثانية للقائه. همست معلنة: اليوم هو معركتها الأخيرة. سمعت تنهيدته الثقيلة. تلك التي طالما صدرت عنه حين يراقب حزنها الصامت.

طمأنته بعدم القلق إن لم تعد. عطر الهيل من فنجانه سيبقى في ذاكرتها أثراً أخيراً للحياة. ابتلعت دموعها متذكرة وجهه الطيب، تجاعيد عينيه حين يضحك، شاكرة إياه لأنه كان الأب الذي حرّمها منه القدر. أنهت المكالمات بكلمات محبة، مودعة إياه ومعتذرة لعجزها عن كونها الابنة التي تستحق قلبه. أغلقت الهاتف وفي صدرها عقدة الوداع، حسرة المحارب المتجه لمعركته الأخيرة. برنار، بحنانه وابتسامته، كان يمكن أن يشكل البديل الوحيد عن طريق الانتقام، غير أن عطشها للثأر من أعدائها وعجزها عن النسيان يمنعانها من أن تغدو امرأة وديعة بلا تاريخ دموي.

مرت أيام متواصلة من المراقبة حفظت خلالها روتين مزاحم كما تحفظ الأم أنفاس رضيعها. أخيراً، لاحت الفرصة المنتظرة

عقودًا. تسللت خلفه حتى وصل إلى الحديقة المُطلّة على نهر السين.

حمل المشهد سخرية القدر. أغصان الأشجار تتمايل فوق المياه المتلألئة لنهر السين. في حين كان يجلس القاتل على مصطبة خشبية متأكلة. متظاهرًا بقراءة صحيفة.

راقبته وهو يقلب الصفحات بأصابع مرتجفة، يعيش خوفًا وهلعًا مستدامًا، كان يبحث بين سطورها عن خلاص من متاهة أشباح عام ٢٠٠٣، يوم أن رأى جسد حارسه الشخصي نعيم قامة يسبح في بحيرة دم، تحت سقف بيت منعزل في مزرعة على حدود بغداد اعتقده ملاذًا آمنًا.

لم يجد حينها سوى الهرب إلى باريس عاصمًا نفسه من انتقام ضحاياه. لذلك ظلّ أسيرًا لخوفه طيلة عقدين. كان فريسة لهاجس يرى فيه ملائكة الانتقام تطارده. عيناه تتنقلان بين العناوين. ذاكرته تغرق في مستنقع ماضٍ لا يتبخر.

نهر السين كان يجري بهدوء مثير يفتح بابًا لتدفق مفاجئ لنهر من دم. ستكون الحديقة مسرحًا للفصل الأخير من مسرحية بدأت منذ زمن بعيد. يوم أن غرق العراق في دماء أبنائه.

راقبته نسرين من خلف شجرة ضخمة. تحسست مسدسها البارد فراح قلبها يدق بعنف. فجأة تغير المشهد. وبرمشة عين، لجمع شتات شجاعته، تبخر مزاحم من أمامها سراعًا. وبتزامن مع دوي رصاصة مسدس، تحول المشهد إلى طيف عابر.

تلاشى دوي الرصاصة في الهواء الباريسي. وحين اقتربت
نسرين من المصطبة، لمعت في عينيها بقع حمراء داكنة على
الخشب. لمست بيدها المرتجفة البقع الدافئة. كانت دماء مزاحم
الطازجة.

لاحظت تناثر صفحات اللوموند حول المصطبة، ملوثة ببصمات
دموية كشفت مسار الهروب. تتبعت خيط قطرات الدم بعينين
حادتين، حتى انطفأت عند مدخل الحديقة. فابتلعها اليأس مع آخر
خيوط أملها.

رأت رجلًا طاعنًا في السن واضح المعالم محدودب الظهر
يعتمر قبعة مكسيكية، وهو يدس مسدسه في جيبه ويمشي ببطء.
حاولت اللحاق به فاخفى كأنَّ يدًا تحررت من باطن الأرض
فجذبتة إليها. وهنا منعها رنين هاتفها المفاجئ عن المتابعة.

على الجانب الآخر كان وليد يخبرها متلهفًا أنه عرف مسكن
مزاحم بالضبط. قالت له ضاحكة: أن مزاحمًا هرب للتو بعدما
أصابه رجل غامض... أول مرة تكون أخبارك غير طازجة يا وليد.

قاطعها وليد بحزم، متسائلًا عن هوية هذا الرجل الغامض،
مقترحًا أنه قد يكون عراقياً متنكرًا. أخبرها أنه سيأتي لمساعدتها مع
أول طائرة تصل باريس. لن يتركها تواجه هذا وحدها؛ كفاها
سنوات من الوحدة.

تأملت بقع الدم مرّة أخيرة. خاطبت نفسها بأن مزاحماً لن يهرب هذه المرة. سيجيب عن كل الأسئلة التي أحرقت غابات عمرها، هذا إذا لم يسبقها المكسيكي مرّة أخرى للإطاحة به.

في غرفتها بالفندق المطلّ على مقهى "لو سانكتوير"، احتبست نسرين خلف زجاج النافذة كمحارب ينتظر إشارة المعركة الأخيرة، تقضم أظافرها بتوتر عاصف في حين اخترقت عيناها الزجاج البارد تتلصص على كل وجه عابر تبحث في تفاصيل سحنته عن ملامح وليد المألوفة. الساعات ثقيلة كأحجار ترسبت في قاع روحها كانت تنقر على قلبها نقراً رتيباً، في الوقت الذي تترقب فيه شريكها في المهمة الأخطر في حياتها - تلك المهمة التي ستحدد مصيرها ومصير كل من أحبت، والانتظار وحش أليف يجثم على صدرها يهمس لها: هل سيأتي؟ هل سيقف إلى جانبها في اللحظة الحاسمة؟ هل سيكون شجاعاً بما فيه الكفاية لمواجهة الخطر معها؟

قلقها يخبرها بأن كل دقيقة تأخير تعني احتمالية ضياع الفرصة الذهبية للانتقام، لذلك تحوّل هاتفها إلى صندوق للآمال المعلقة، وبين الثانية وأختها كانت تحقق في شاشته الصامتة منتظرة رنين المكالمات التي ستحمل صوت وليد يبشرها بقدومه، فيما طبل قلبها يقرع بإيقاع المهمة المصيرية التي تنتظرها.

فجأة، دفعتها قوة خفية من أعماق ذاكرتها. قررت أن تقوم وحدها بتصفية مزاحم دون انتظار وليد. هنا تذكرت كاميرات

المراقبة المجهزة في البناية الهوسمانية - تلك العيون الإلكترونية الساهرة التي تسجل كل تفصيل، كل وجه، كل حركة. لذلك عمدت إلى التكرار.

نهضت بحركة آلية، وانتقلت إلى مرآة الحمام بخطوات محسوبة. فبدأت طقوس التحول: ربطت شعرها البني بإحكام، ثم وضعت باروكة شقراء قصيرة تغطي حاجبيها الكثيفين. أخفت ملامحها الحادة بـ "كونسيلر" سميك وضعته تحت عينيها، ثم أضافت مكياجاً أحمر صارخاً على شفتيها وخدودها ليغير من بنية وجهها تماماً. وضعت نظارات طبية بإطار عريض، ولصقت شامة صغيرة على ذقنها.

ارتدت فستاناً فضفاضاً بألوان زاهية، عكس أناقتها المعتادة، وتصنعت عرجة طبيعية، مارست المشية بها أمام المرآة عدة مرات حتى أتقنتها. غيرت حتى من نبرة صوتها، جاعلة إياه أكثر خشونة وبطئاً.

علقت حقيبة الهيرميس على كتفها - تلك الحقيبة التي تحمل أداة العدالة في داخلها. نظرت إلى انعكاسها: امرأة مختلفة تماماً تحديق بها من المرآة.

ليس من الوفاء لجمال وعديد أحببتها أن تُفَرِّط بفرصتها السانحة لاقتناصه والانتقام منه، فانتظار وليد قد يمتد ويطول. لذلك تسارعت خطواتها نحو سكن ضحيتها مزاحم.

أمام البناية الهوسمانية، بشرفاتها المزخرفة وأعمدتها الشامخة، توقفت فتوقف قلبا للحظة. سيارة الشرطة الرابضة أمام المدخل أثارَت هاجسها. انسحبت بخفة. تدور حول البناية. تنتظر لحظة الغفلة.

في ردهة المدخل، واجهت عيني البواب العجوز. حارس بوابة الزمن. خمسون عامًا من مراقبة الوجوه، نحتت في عينيه المتعبتين، حكمة لا تخطئها عين. كان يجلس خلف مكتبه الخشبي المعمر، منهمكًا بلعبة المربعات على هاتفه، يرفع عينيه بين الحين والآخر ليتأمل القادمين والراجلين بنظرة فاحصة.

اقتحمت ردهة البناية بخطوات متثاقلة، تسحب قدمها اليسرى بعرجة مصطنعة متقنة. كل خطوة محسوبة بدقة. تجعل من عايتها المؤقتة حليفًا يثير الشفقة أكثر من الشبهة.

S'il vous plaît «من فضلك، مدموازيل كليز؟ الشقة ٤٠٨؟»

بلكنة فرنسية متقنة تمتمت نسرین للبواب، في حين كوعها كان يستند على طرف مكتبه وكأن العرجة تُعبها. مستحضرة اسمًا حقيقياً عرفته من بحثها السابق. البواب رفع حاجبيه الكثيفين. خيوط الشك تتراقص في عينيه.

«صديقة قديمة. لم أخبرها بقדومي. أردتُ أن تكون زيارتي مفاجأة لها».

ابتسمت ابتسامة مدروسة. تحمل من البراءة ما يكفي لتذويب شكوكه. عينا البواب تنزلقان نحو قدمها المتألّمة بوضوح، فيخفف

من حدة نظره الفاحصة. بعد تردد، أوماً برأسه موافقاً. أردف: «كان عليك اصطحاب دلو من الماء البارد لإيقاظها. فقد عادت قبل قليل وهي مخمورة» تحركت من أمامه بعرجها المتقن فأوقفها من جديد «لا تتأخري يا ابنتي فالشرطة هنا!»

«لن أتأخر بالتأكيد». ردّت باقتضاب واتجهت للمصعد بخطوات عاجزة مدروسة، قلبها يرقص من التوتر - ليس خوفاً من الشرطة فحسب، بل خوفاً من فضح تمثيلها المحكم. فوجدت قيئاً ملتصقاً بأرضية المصعد يعود بالتأكيد لكثير. تيقنت من صحة كلام البواب. الذي نجحت في عبور حاجزه. فيما قلبها ما زال يخفق بعنف تحت معطفها.

صرير عجلات المصعد يحرضها أكثر وهو يرتقي بها نحو هدفها، ورائحة قيء كليز صديقتها المختلقة تملأ غرفة المصعد وتخدش انفها. الأرقام النحاسية تومض في الضوء الخافت: ٣،٢،١ الشقة المستهدفة تنتظر خلف باب خشبي يحمل في تشققاته أعواماً من الأسرار. توقف المصعد. فتوقف معه الزمن للحظة. خرجت نسرين. تاركة وراءها صرير المصعد يختلط مع ذكرياتها.

كان الطابق الثالث غارقاً في صمت ثقیل. وخلف باب الشقة "٣٠٣"، كان يرقد مزاحم جريحاً من رصاصة المكسيكي. المنتقم المجهول الذي سبقها إلى فريستها.

وقفت أمام الباب. أصابعها ترتعش على المقبض البرونزي البارد. فهمت أن للانتقام توقيته الخاص. توقيت لا يخضع لرغبات البشر.

فجأة، انفتح باب الشقة "٣٠٥" بصريير خافت. تسلفت أصوات رجال الشرطة عبر الممر. يتبادلون الحديث مع صاحب الشقة. انزوت نسرین خلف عمود رخامي. تنصت. «رصاصه دقيقة في الكتف، منعها القدر من أن تكون مميتة». قال الشرطي الأول بلهجة رسمية باردة.

«هذا الرجل يسكن هنا منذ ست عشرة سنة. لم نلحظ عليه أي شائبة». تدخل صاحب الشقة. «ولا مرة واحدة سمعنا عنه شيئاً مريباً».

«كان المجرم الذي أصابه هاوياً على أي حال». علق الشرطي الثاني بضحكة ساخرة. «لو كان محترفاً لما أخطأ الهدف». «شيء مؤسف! هذا الحي لم يعد آمناً كما كان». تنهد صاحب الشقة.

في ظل العمود الرخامي، ابتسمت نسرین ابتسامة مريرة وهي تفكر بسنوات طوال مرّت من حياة مزاحم الهادئة في باريس، وهو يبدو فيها كحملٍ وديع، وكأنه لم يكن يوماً ذلك الذئب المفترس في شوارع بغداد والعمارة، الذئب الذي كان يتبخر متفاخرًا في أزقة العراق بانتمائه البعثي، يقتنص الأبرياء كما يقتنص الصياد طرائده.

الآن، تقف عاجزة. تستمع إلى تفاصيل انتقام سرقة منها قاتل مكسيكي هاو. لا يعرف شيئاً عن أنين العراق. لا عن جثث الفنانين التي دفنها مزاحم. لا عن أحلام محطمة تطفو على سطح دجلة منذ أربعين عامًا.

أصابعها تضغط على زناد مسدسها المتوثب في حقيبتها. تشعر ببرودته المعدنية تخترق نسيج الحقيبة. هذا التماس البارد يذكرها بأن الموت في باريس الأنيقة قد يأتي مخبأً في حقيبة امرأة. تبدو كسائحة عادية.

استدارت نحو المصعد. قلبها يخفق بعنف تحت وطأة الخيبة والإحباط. نزل بها وكأنه يهبط إلى قاع محيط من الظلمات. كل طابق يمر به المصعد يحمل معه شظية من ماضيها تخترق روحها. خطواتها المتعثرة تكاد لا تلامس الأرض، العرجة المصطنعة تبدو أكثر وضوحاً الآن تحت ضغط التوتر الهائل. في ردهة المدخل، أصبحت وجهًا لوجه مع الحارس من جديد. رفع رأسه من لعبة المربعات على هاتفه للمرة الثانية. نظرتة تتبع حركة قدمها العرجاء بشفقة تلقائية سأله: «هل وجدتِ صديقتك؟»

وهي ماشية تعرج أجابته بفرنسية مرتجفة: «لا، لم تفتح لي الباب. يبدو أنها نائمة من أثر إفراطها بالشرب».

ولمّا وصلت عند مدخل البناية، استدارت إليه مرةً أخيرة بخطوات مثاقلة، تجرّ قدمها بإتقان مسرحي لا يشوبه خطأ واحد

قائلة «من فضلك، قيء كليز يملأ أرضية المصعد، والرائحة لا تطاق!»

هزّ رأسه لها بالإيجاب ليؤكد لها أنها لم تكن المرة الأولى لكليز وأمثالها من سكان البناية، وعيناه تتابعان مشيتها العرجاء بنظرة عطف لا تحمل أدنى ذرة شك، ثم ولى ظهره لها عائداً إلى لعبة المربعات غارقاً في روتينه الليلي.

خارج البناية، تخلّت نسرین عن العرجة فجأة، خطواتها تستعيد رشاقته الطبيعية وكأن معجزة شفاء حدثت للتو. ابتسمت برضا خفي - التمثيل نجح - القناع لم يسقط - واقتناص الهدف تأجل ريثما يرن هاتفها معلناً عن اتصال من جانب وليد.

في صالة الفندق كانت نسرین تتصفح هاتفها الخلوي بقلق، تنتقل بلا هدف محدد بين التطبيقات والصور القديمة، عندما اخترق رنين المكالمة الواردة سكون عالمها المنعزل. اخترق صوت وليد صمت هذا العالم المثالي: «انتظريني عند مقهى لوسيكويا. السابعة مساءً. سننهي هذا الكابوس معاً». للمرة الأولى منذ وصولها باريس شعرت أن صوت صديق يمكن أن يكون أقوى من رصاصة. عند السابعة تماماً دفعت باب "Le Sequoia" فاستقبلها عبق القهوة المحمصة وأصوات باریسیة متداخلة ودخان خفيف يتصاعد من الزوايا. رآته في الركن القصبي فأشار بيده وابتسم. تقدمت نحوه والنادل المصري الذي عرفته منذ وفاة أمها خديجة والذي شارك

في تشييعها والذي تبادلته معه رسائل ومكالمات طوال عقود جالس أمامها الآن مألوف وغريب. ناداها «ماري؟» باسمها المستعار ونهض فتعانقا عناقًا طويلًا يحمل عبء سنين. طلبا قهوة فرنسية بالحليب وأضواء الشموع ترقص على وجهيهما تُخفي أكثر مما تكشف.

تفحصا وجهي بعضهما بنظرات باردة محايدة كجنديين مخضرمين يُقيّمان أضرار حرب خاضها لعقود. هو يرى في وجهها المتهدل خريطة مأساة سومرية وتجاعيد محفورة تتحدث عن ألم عبر التاريخ. وهي تتأمل في عينيه الغائرتين وشعره الأشيب هبة فرعونية وتقاسيم وجه تحمل هيروغليفيات خفية وأسرار معابد الأقصر. من هو هذا النادل المصري الذي ظهر في حياتها نجدة من المجهول ولماذا يضحى بكل هذا؟ أسئلة تدور في رأسها حتى تبادلًا إيماءة جافة متفاهمة وعيونهما قالت: الآن وقت الانتقام والأسئلة تنتظر.

خرجتا إلى ليل باريس الماطر وتحت مظلة واحدة قال وليد: «أعوام بعمر نوح من العذاب. حان الوقت لنكتب نهايتها معًا». نظرت إليه فرأت في عينيه انعكاس صداقة عمرها دهرًا وأدركت أن الانتقام مثل الحب يصبح أجمل حين يتشاركه قلبان.

المطر يغسل شوارع نوي والأرض لامعة تحت أضواء البنايات الشاهقة ومشيا نحو الفندق وكل منهما يحمل غصّة انتقام تأجل طويلًا. سألتها «هل تعتقد أننا سنحقق ما نريد؟» فأجاب «لقد حان

الوقت» وأضواء برج إيفل تتلألأ في الخلفية رمزاً لمدينة تحمل أسراراً لا تُحصى والأمطار تحمل الذكريات والليل يحمل الخطة.

في غرفتها الصغيرة بفندق "لو بالكون" جلست نسرين على حافة السرير الضيق تسرد لوليد تفاصيل تسللها إلى البناية الهوسمانية التي يحتمي بها مزاحم خلف واجهاتها الأنيقة وشرفاتها الحديدية المزخرفة.

كان وليد يستمع بانتباه شديد وعينه تنقلان بين وجهها المتوتر والنافذة الصغيرة التي تطل على شوارع نوي الهادئة. وعندما انتهت من حكايتها مال نحوها وبدأ ينسج خيوط عملية محكمة: عودتها متكررة برفقته كزوجين لموعد مع مدموازيل كليز في الشقة ٤٠٨، والحارس معتاد على مواعيد كليز الغريبة وحالتها المخمورة الدائمة فحتى لو اتصل بها وأنكرت الموعد بصوتها المترنح فلن يشك في شيء. أضواء المدينة ترقص داخل شرفة الغرفة وتنعكس في عينيه المليئتين بالحزم والتصميم فأدركت نسرين إمكانية نجاح خطتهما. اشتعلت عينها بوهج مفاجئ وفكرة جهنمية اتقدت في عقلها. رفعت عينها إلى السقف وتخيلت عدسات الكاميرات المنتشرة في كل زاوية من تلك البناية اللعينة - عيون إلكترونية لا تنام.

نهضت بحركة مسرحية مدروسة وابتسامة غامضة تراقصت على شفيتها وتسمرت أمامه واقفة تحديق في وجهه بعينين متلألئتين تبحث عن بريق إعجاب منه بفطنتها ثم قالت وهي تهم نحو

الحمام: «سأفاجئك بشيء لن تصدقه يا وليد. انتظرني نصف ساعة». اختفت خلف الباب والتساؤلات تطاردها: هل وليد ملاك حارس نزل من السماء ليحميها أم له أجندة خفية تتربص بها في الظلام؟

مرّت أكثر من نصف ساعة والصمت يخيم على الغرفة. جلس وليد على حافة السرير وأصابعه تنقر على ركبته في إيقاع متوتر وعيناه معلقتان على باب الحمام المغلق. تسلل القلق إلى قلبه وخلفه يزحف شبح من الخوف: ماذا لو استسلمت هذه المرأة التي احترقت روحها على نار الانتظار والألم أخيراً للجنون؟ تخيل نفسه وهو يواجه نسرین تخرج إليه بعينين جامدتين تحمل في يدها سكيناً تقطّع بها أوصاله - رغبة يائسة في خلع رداء خوفها الأزلي.

استمرت هذه التخيلات في التناسل إلى أن اخترق صوت سقوط شيء في الحمام فُقاعة كوابيسه فهزّ رأسه بقوة طارداً تلك الطيور السوداء. رفع صوته قليلاً ليخترق صمت الحمام الثقيل: «يا ما في الحبس مظالم!»

انفتح الباب ببطء مسرحي. خرجت إليه امرأة أخرى تماماً. تجمّدت الكلمات في حلق وليد وضرب راحة بأخرى في دهشة طفولية وانفجرت عيناه:

«يا إلهي! لو لم أكن أعرف أنك من دخل الحمام قبل قليل لما عرفت الخارجية منه!» راح يصفق وابتسامة عريضة تشغل وجهه بالكامل.

«تلميذتك أيها اللغز المحير!» قالت بصوت مختلف تمامًا -
أخشن وأبطأ من صوتها المعتاد وعيناها تطعن ملامحه تبحث عن
حقيقة مدفونة يطمئن إليها قلبها المتشكك.
«من أين تعلمتِ كل هذا!!»

«التنكر فن تعلمته من ضرورة البقاء» أجابته وفي قرارة نفسها
كانت تعرف أن هذا القناع سيخدع كل عدسة مراقبة في تلك البناية.
لمح وليد في عينيها - الشيء الوحيد الذي لم يتغير - شيئاً أكبر
من خوف متوقع. كانت تنظر إليه بطريقة فاحصة تشريحية تحاول
أن تقرأ سطوراً مخفية في وجهه المألوف.

خرجوا من الفندق على عجل وأوقفا سيارة تاكسي سوداء بدت
كغراب ليلي يحوم في الظلام. صعدت نسرين بقدمين سليمتين
قويتين مؤجلة تنكرها بالعرج لحين الوصول إلى هدفها النهائي
وانطلقت بهما السيارة نحو وجهتهما الأخيرة في نوي. جلست
نسرين تتأمل انعكاس وجهها المقنّع في الزجاج المبلل بقطرات
المطر وكأن الزجاج أصبح صديقها الوحيد الصادق والمرآة التي
تؤكد لها حقيقة وجودها. انطلقت بهم السيارة عبر شوارع باريس
الليلية والسائق يراقبهما من خلال المرآة الأمامية العلوية.

تسلل سؤال مخيف إلى عقل نسرين: إذا كان بإمكانها تغيير
هويتها تمامًا بباروكة ونظارات وبعض مستحضرات التجميل لخداع
فرنسا كلها فماذا لو كان وليد يفعل الشيء نفسه معها منذ أربعين

عامًا؟ ماذا لو كان الرجل الجالس بجانبها مجرد قناع محكم
لشخص غريب لا تعرفه حقًا؟
قطع وليد شكوكها كأنما قرأ أفكارها الخفية: «عمر كامل من
الانتظار... هل ستختِم هذه الليلة كل ذاك الصهيل؟» كلمات
متطابقة مع أفكارها وكأنهما يتشاطران عقلًا واحدًا أو روحًا
مقسومة بينهما. هل هذا دليل على الصدق العميق أم على إتقان
اللعبة الشيطانية؟

(٢٤)

توقفت السيارة أخيرًا أمام البناية القديمة التي كانت تحمل في هوسمانية تصميمها حتى وقت قريب حكايات دموية لا تُحصى. حذرهما السائق بصوت قلق مضطرب: «لا تبقيا طويلاً هنا. أصيب أحد الهوسمانيين بإطلاق ناري الأسبوع الماضي». ثم أضاف بسخرية مريرة: «وكأن هذا حدث استثنائي في باريس! المدينة تعج بجرائم القتل والسرقة المتناسلة يوميًا، موزعة بعدالة بين كل الجاليات».

بعد دفعهما الأجرة، ترجّلا من السيارة. نزلت نسرین بقدم عرجاء واضحة مقصودة، عائدة إلى تنكرها المدرّوس أمام البناية الهدف. وقفا يراقبان أضواء السيارة الحمراء تتباعد في الظلام كنجوم حمراء تذوب في ليل باريس البارد.

خلف المقود، شاهد السائق في مرآته الجانبية مشهدًا أثار حيرته: المرأة التي صعدت إلى سيارته بقدمين سليميتين تنزل الآن بعرج واضح. غريب جدًا.

انقطع تأمله بصوت فرامل حادة أطلقتها سيارته - لاعتراض طريقه من قبل شباب سكارى عبروا من مكان مخالف لا يسمح لهم بالعبور. هز رأسه وقرر طرد هذه الملاحظة الغامضة، مرددًا حكمة صينية قديمة وهو ينطلق إلى الأمام: «في السعي وراء

المعرفة، لا بد من إضافة شيء كل يوم. وفي السعي وراء الحكمة، لا بد من حذف شيء كل يوم».

تمسكت نسرين بيد وليد وهي تنظر إليه بعينين مليئتين بالفضول المختلط بالقلق: «لماذا لا أراك متنكرًا مثلي؟ ألا تخشى أن تكتشفك الكاميرات؟»

انفجر وليد بالضحك، صوت عالٍ يحمل في طياته مزيجًا من السخرية والمرارة والثقة المفرطة: «متنكر؟ يا عزيزتي، أنا متنكر أصلاً منذ عقود!» ثم أخرج من جيبه أنفًا كبيرًا مطاطيًا وحاجبين ثخينين صناعيين، ألصقهما بحرفية من اعتاد على هذه الطقوس. «طبعًا أمزح معك»، أضاف وهو يضبط الأنف والحاجبين، «لي طرقي الخاصة في المطارات والفنادق. أغير مشيتي، نبرة صوتي، حتى طريقة جلوسي. التنكر الحقيقي ليس في تغيير الوجه فحسب، الأهم في تغيير الروح».

توقف للحظة، نظر إليها بعينين جادتين رغم المظهر الكاريكاتوري، ثم سألها بصوت أشبه بالهمس المخنوق الذي يحمل في طياته كل التوتر المكبوت لسنوات طويلة: «هل أنت جاهزة حقًا؟»

عدلت نسرين وضع حقيبتها، وتحسست المسدس البارد في جيبها الداخلي. معدن بارد يحمل حرارة الانتقام المشتعلة. أومأت برأسها صامتة، كجندي محنك يستعد لمعركته الأخيرة الحاسمة.

انطلقا نحو البناية، كل منهما يحمل أسرارهِ كحقائب ثقيلة مليئة بالذكريات المؤلمة. المهمة واضحة: انتزاع الحقيقة من مزاحم، ثم تصفيته دون رحمة. المصير غامض: يعلمان أن هذه الليلة قد تكشف أسرارًا دفنوها لعقود في مقابر النسيان. حقائق قد تغير كل شيء في حياتهما... أو تدمر كل شيء إلى الأبد. هل هما حقًا حليفان في هذه المعركة؟ أم كلاهما يحضر للآخر مفاجأة أخيرة قاتلة؟

قبل دخول متاهة مزاحم ومفاجآته: لَقَّهما الليل بصمته الثقيل كأكفان سوداء، والبناية أمامهما تنتظر بصبر شيطاني... كقدر محتوم لا مفر منه. دخلت نسرين البناية وهي في كامل تنكرها - الشعر الأشقر يلمع تحت الأضواء، النظارات العريضة تحجب معالم وجهها، الشامة على ذقنها، والعرج المتقن يضلل أي عين تراقبها. كاميرا المدخل الصامتة سجلت امرأة شقراء عرجاء - شخصية مختلفة تمامًا عن نسرين الحقيقية وبصحبتها رجل كبير بأنف مقزز وحاجبين ثخينين كفرو ثعلب، يبدو زوجها، أو صديقها على الأغلب.

في تلك اللحظة بالذات، انسلَّ سريعًا رجل ملثم خارجًا من مدخل البناية. يرتدي معطفًا داكنًا ابتلع معالم جسده، خرج من البناية بحركة خاطفة أشبه بظل هارب. مر بجانبهما دون أن يرفع عينيه، خطواته المتسارعة كانت تنبئ بأنه على عجلة من أمره.

لم يلتفتا إليه في البداية - مجرد عابر سبيل آخر في ليل باريس المعتاد. غير أن وليدًا، بحدس المحارب المخضرم، التقط شيئًا مريبًا في هيئة الملثم المتوترة وطريقة إخفائه وجهه. أشار بحركة خفية إلى نسرين، إشارة اعتادا عليها من أيام الماجدية، وما أن اتجها نحو مكتب البواب حتى تسرب إحساس بارد إلى عروقهما. ثمة خطب ما يتربص بهذا المكان، وذلك الرجل الملثم لم يكن مجرد صدفة عابرة.

انتصب المشهد أمامهما: العجوز متكئ على كرسيه برأس مائل. قد غرق صدره في بحيرة قرمزية تخثرت حوافها. السكين ذات المقبض العاجي غرست بإتقان - علامة ترقيم تفصل بين فصلين من العمر. وليد، بعين الخبير، فحص الجرح بنظرة سريعة - طعنة محترف، دقيقة ومميتة. وعلى سطح شاشة هاتفه، ظلت لعبة المربعات الإلكترونية تومض بضوء أحمر متقطع، بينما ارتسمت على شفثيه ابتسامة انتصار لم تمهله طعنة الملثم إكمالها. «جئتما متأخرين» همست ابتسامته الشاحبة. «اللعبة أعمق مما تظنان». ورائحة الياسمين المنبعثة من المبخرة الموضوعة قريبًا اختلطت برائحة الموت. لعبة الشطرنج البشرية انتهت بخسارة ملك، غير أن القطع المتبقية ما زالت تتحرك. أدرك وليد أن الملثم سبقهما إلى العجوز، وربما إلى مزاحم أيضًا. ومع ذلك لم يكن مكسيكيًا كما قالت نسرين.

اندفعا في المصعد إلى الطابق الثالث، ووليد يستعد ذهنيًا للمواجهة كما علمته سنوات الكفاح والبوليسية، وعدسة المصعد الخفية سجلت نفس المرأة الشقراء العرجاء ذات النظارات العريضة ورفيقها العجوز. أخرج وليد مسدسه، فتأهبت نسرین بسلحها.

أخرج وليد الماستر كي الإلكتروني من جيبه استعدادًا لمعالجة قفل الشقة "٣٠٣"، فالأبواب في شقق باريس كانت قد جُددت بأقفال إلكترونية حديثة. لكنه قبل أن يقربه من القفل، دفع الباب برفق ففوجئ بأنه كان مفتوحًا. تبادل مع نسرین نظرة سريعة محملة بالفهم: الرجل الغامض الذي مرّ من أمامهما قبل لحظات كان داخل شقة مزاحم! هذا الاكتشاف دفعهما إلى التحرك بسرعة أكبر والاندفاع نحو الداخل. الظلام غمر المكان باستثناء شعاع ضوء خافت، والفضاء كان يمتلئ برائحة الخوف، والدم، والمفاجآت. وفي غرفة المعيشة، كان يتظرهم مزاحم وهو يفتersh الأرض دون حراك وقد بان ضماد إصابته السابقة جليًا يرتسم على كتفه، كما لاحت طعنات مميتة توزعت على جسده يبدو أنها قد أجهزت عليه. حدقت نسرین في الجثة تستنطق ملامحها المشوهة. غريب كيف انكمش الوحش في موته! بدا أصغر مما نحتته مخيلتها طوال سنوات الانتظار.

«من سبقني إليك؟» همست بصوتها المتكرر المرتجف متماهية دون قصد مع شخصيتها الجديدة. «أي شبح من أشباح ماضيك قرر أن يكتب نهايتك بهذه الطريقة؟» تسلفت الكلمات من بين

شفتيها محملة بمشاعر متناقضة: مرارة الفرصة المسلوبة، ثم نشوة خافطة بسقوط الظالم ولو على يد غيرها. أعمق جراحها كان ذلك السؤال المعلق: أين اختفى طفلها الذي اقتلعت من أحشائها قبل عقود؟

فجأة، انفرجت جفون مزاحم ببطء. التقت عيناه بعينيها عبر ضباب الموت، فهمس بصوت متكسر: «من أنتِ؟» تسمرت نسرين في مكانها رغم انفراج أساريرها بعودة الروح فيه: «أنا نسرين، نسيتني؟ أنا التي قتلت كلَّ جميل فيها» تحركت شفثاه المصبوغتان بالدم، حيثُ تشكلت عليهما ابتسامة: «نسرين؟ أخيرًا، جئتُ لنهي ما بدأه عليوي؟» ارتفع مسدسهما نحو جبهته، غير أن مزاحم واصل: «قبل أن تطلقى نار ثأرك، هناك ما يجب أن تعرفيه عن ابنك» كانت الحقيقة تنز من شفثيه نزيه دم بطيء: «عليوي أبو زكية، هل تتذكرينه؟ كان ذراعي في النيل من أهلك». أشارت له بالاستمرار.

«على غير المتوقع كان يحبك هذه اللحظة بصبر».

صرخت نسرين مستعلمة عن مصير طفلها الذي تجهل حتى جنسه. أجابها مزاحم بصوت يحتضر: «ولد... ومصيره في علم الغيب».

سقط المسدس من يدها. «مات؟» توالى صرخاتها، والكلمة تخرج من حلقها منتزعة كقطعة من روحها. ابتسم وقال بآخر

أنفاسه: «إلا بيت عليوي، هم أعلم بموضعه... خطفته بمساعدتهم لأضمن ولاءهم، جيلج هو: عليوي، ونورية، وزكية».

بأنفاس متقطعة، أضاف كأنما يطعن قلبها بخناجر الحقيقة: «تبعني عليوي إلى باريس رغبة في الانتقام. هو من أصابني في المتنزه... علاوة على ذلك هو من أجهز عليّ هنا قبل قليل».

حلّ صمت رهيب يخنق الأنفاس. لم يكن مزاحم ليستدرك أكثر. الموت أعلن وصوله، تاركًا نسرين ووليدًا غارقين في بحر من الأسئلة تتلاطم أمواجه في صدريهما.

اندفعت نسرين نحو جثة مزاحم تتحب بألم يمزق صدرها. حتى في لحظة انهيارها، ظلت محتفظة بتكرها - الباروكة الشقراء تهتز مع نحيبها، النظارات العريضة تنزلق على وجهها المبلل بالدموع. حاولت ركله، إلا أن وليدًا أمسك بها برفق الرفيق المجرب الذي يعرف كيف يتعامل مع صدمات ما بعد المعركة. استسلمت له بعد أنين مريّر وهي تسرد تفاصيل آلامها كطقوس جنازية لحلم ميت. كفكت دموعها، ثم همست في وجه الجثة بصوتها المقنع المكسور: «أنت حيوان!»

استعادت هدوءها مرغمة، كمحارب ينهض بعد هزيمة قاسية. وقفت تتأمل الجثة قبل المغادرة، وجهها المقنع يحمل مشاعر لا تستطيع أي كاميرا فك شفرتها. توقفت عند العتبة وتمتمت: «أهنتك رفيق مزاحم، في كل جولاتك معي كنت أنت المتصر».

خرجت نسرين من الشقة ثقيلة الخطوات، عرجتها المصطنعة أصبحت حقيقية من وطأة الصدمة، تجر خلفها ثلاثين عامًا من الانتظار المرير. وصلت إلى مكتب البواب حيث تدفقت عليها موجة من الذكريات المؤلمة: كل المحاولات السابقة لقتل مزاحم باءت بالفشل، أيقنت معها أنه شبح لا يموت. رجل محاط بحماية خفية، يفلت من قبضة الموت مرّة بعد أخرى.

«مستحيل أن يكون ميتًا!» همست لنفسها بصوت يعود تدريجيًا لطبيعته وسط الهستيريا، ثم بحركة مفاجئة لوليد انحنت على جثة البواب واستلّت الخنجر ذا المقبض العاجي من صدره المشخن بالدماء، واندفعت عائدة على غير العادة نحو السلالم تتخطى الدرجات اثنتين، اثنتين، قلبها يدق مثل طبول الحرب، فيما صدى أقدامها يملأ الفضاء.

«نسرين!» صرخ وليد من خلفها، يتبعها متسائلًا عما حل بها.
«ماذا تفعلين؟»

وصلت إلى باب الشقة "٣٠٣" لاهثة، فدفعته بقوة ودخلت. هناك وجدته "لم يكن ميتًا"... مزاحم يزحف على بطنه نحو عتبة الباب، تاركًا خلفه أثرًا من الدم كخط أحمر يؤرخ لنهايته. يده الضعيفة تمتد طالبة النجدة، صوته المتكسر يناديها بأسماء لا تعرفها.

«ها أنت ذا!» صرخت نسرين منتشية وكأنها أطلقت العنان لكل مشاعرها المدفونة. «ما زلت حيًا أيها الوحش!»

إحساس قوي بالانتقام اجتاحتها بعاصفة جهنمية، مما جعلها تنقض عليه بلا تردد، والخنجر في يدها، تغرسه في ظهره مرة ومرتين وثلاثاً. كل طعنة تحمل معها عقوداً من الألم والانتظار، في حين اختلط صراخ مزاحم المتلاشي بنحيبها الهستيري. قلبته على ظهره ثم بصقت بين عينيه وأسكته بغرس الخنجر أخيراً في نفس المكان الذي غرس فيه حمدان حربة انتقامه بين عيني صقر.

وليد، الذي وقف في المدخل، في حالة من الصدمة المطلقة. الفدائي القديم فيه سرعان ما استعاد توازنه، يقيّم الوضع بعين التكتيكي المحنك. يرصد المشهد بكل تفاصيله المؤلمة، والطعنات التي لم تستغرق سوى ثوانٍ تبدو له كفصول تعكس مأساة طويلة تمر ببطء سينمائي مرعب. كل حركة من حركات الخنجر تعكس العذاب المكبوت في صدر نسرين، امرأة أفنت حياتها في مطاردة شبح أصبح جثة تحت قدميها.

«ما الذي فعلته؟» قالت عيناه بدهشة لما شاهده أمامه من حقيقة مروعة تكشف عن مأساة انتقام ما زالت تجول في مصارينها ضحايا المدينة الذين عايشهم وأكل من طعامهم وذاق الألم معهم. أنهضها بكلتا يديه فاستسلمت له، مؤمنة برغبتها في النجاة دون أن تبدي مقاومة.

قالت بصوتها الحقيقي الذي عاد أخيراً بعد أن تخلّت عن القناع الصوتي في لحظة الانتشاء: «أقصى درجات الشفقة تكمن في قدرتنا على منح الموت لأولئك الذين يعانون عند سكرات الموت،

خصوصًا عندما نمتلك القدرة على إنقاذهم، مما يجعل تلك الشفقة أعمق وأكبر، إذ يمكن أن نكون صوت الأمل في وجه محتتهم». توقفت نسرين في الممر ونظرت بعينين حادتين إلى إحدى كاميرات المراقبة المثبتة في السقف قرب باب شقة مزاحم. كانت تعلم أن عدسة الكاميرا ترى امرأة شقراء بنظارات عريضة وشامة على ذقنها - امرأة لا وجود لها في الحقيقة.

ابتسمت ابتسامة انتصار خلف شفيتها القرمزية المرسومة، ثم رفعت يدها وأشارت بعلامة النصر باتجاه الكاميرا - إشارة تحدّ وإعلان انتهاء عقود من الألم. رسالتها للعين الإلكترونية كانت واضحة: «لقد انتصرت أخيرًا، ولن تعرفوا من أنا أبدًا».

سحبها وليد بعنف نازلًا بها سريعًا عن طريق السلم، خبرته في عمليات الانسحاب تقوده تلقائيًا - يتجنب المصعد، يختار الطرق الأقل مراقبة، ويحسب كل خطوة كما علمته سنوات الكفاح الطويلة، بينما كاميرات الممرات والمصعد تسجل هروب امرأة مقنعة ستختفي للأبد، تاركة وراءها لغزًا لا حل له في أرشيف المراقبة.

في طريق خروجهما من البناية، وجدا مجموعة من السكّان يتحلّقون حول جثة البواب القليل، ينظرون إليها بأسف وحزن. بعضهم يمسك بهاتفه المحمول للإبلاغ عن الحادثة، وآخرون يتهايمسون بصدمة وهلع. لم يكن أحد منهم يعلم بأن حادثة أكبر وأعظم قد وقعت للتو في الطابق الثالث - مقتل مزاحم الذي

سيكتشفونه بعد حين. مرّ وليد ونسرين بينهم بهدوء، وجهاهما لا يكشفان شيئاً، كأنهما مجرد ساكنين عابرين يشهدان مأساة لا علاقة لهما بها.

في طريق هروبهما أوقف وليد نسرين عند ساحة نوتردام بحجة أن يستريحاً قليلاً ويتأكد من عدم تتبع أحد لهما قبل العودة إلى الفندق. جلسا على مقعد حجري بارد يطل على الكاتدرائية الجريحة وكانت نسرين ما تزال تلهث من هول ما فعلته وأصابها ترتعش وعيناها شاردتان تائهتان بين ذكرى الطعنات التي غرستها في جسد مزاحم ودماء الانتقام التي لطخت يديها.

رفع وليد نظره نحو الكاتدرائية المحاطة بسياج البناء منذ حريق نيسان ٢٠١٩ الذي التهم برجها الشاهق وسقفها الخشبي العتيق تاركاً باريس تبكي على جرح لم يندمل بعد.

السقالات المعدنية تلتف حول جدرانها كأربطة جراحية على جسد عملاق جريح يحاول النهوض من رماده بينما العالم يراقب قيامته البطيئة من تحت أنقاض ذلك المساء الملتهب الذي حوّل رمزاً خالداً إلى ذكرى محترقة والسياح يتجولون حولها رغم ذلك يلتقطون صور الخراب الأنيق.

أشار وليد بذقنه نحو الكاتدرائية وقال بصوت هادئ حكيم: «انظري إليها. احترقت في ليلة واحدة وظن العالم أنها انتهت لكنها الآن تنهض».

تبعث نسرين نظره وهي ما تزال محافظة على تنكرها الكامل -
الباروكة الشقراء تتراقص مع نسيم باريس البارد والنظارات العريضة
تعكس أضواء الساحة وانعكاس الكاتدرائية الجريحة في عدساتها.
شيء ما في هذا المشهد لامس شيئاً عميقاً في روحها المحترقة.
تأملت الأنقاض المقدسة التي ترفض الموت وأدركت فجأة أن
موت مزاحم ليس نهاية حكايتها بل بداية حكاية جديدة ستكتبها
بنور البحث عن ابنها المفقود لا بدماء الانتقام. أيقنت أن مسرحية
القصاص انتهت بنهاية غير متوقعة تماماً كما أن نوتردام احترقت في
ليلة لم يتوقعها أحد. الكاتدرائية تنهض من رمادها وهي أيضاً يجب
أن تنهض من رماد أربعة عقود من الحقد المشتعل الذي التهم كل
ما كان جميلاً فيها.

رفعت عينيها متسائلة نحو وليد الذي كان يتأملها بدهشة لم
تتوقف: «كيف تحول عليوي البسيط إلى قاتل محترف؟» أوضح
وليد بصوت محمل بخبرة مرة: «المنظمات ظهرت بعد سقوط
بغداد. تجند الضعفاء وتحولهم لأدوات قتل حتى صار عليوي أداة
بيدها».

قررت نسرين بصحبة وليد تعقب عليوي العاگول في باريس
أولاً - الرجل الذي وحده كان يحمل سر طفلها المسروق منذ
عقود والذي ربما ما يزال حيًا في مكان ما يتنفس هواء هذا العالم
دون أن يعرف أن أمه تبحث عنه في شوارع مدينة تعلمت كيف
تنهض من رمادها.

وفي صباح باريسى شاحب، كانت نسرين تتخلص من آخر بقايا تنكرها في حمام فندقها الأخير من سلسلة فنادق رخيصة تنقلت بينها عبر أحياء باريس الشمالية والشرقية - حيث تكثر الفنادق الصغيرة التي لا تطرح أسئلة كثيرة. بحث غير مجد خاضته مع وليد عن عليوي لأكثر من أسبوعين، تنكرت خلالها بوجوه مختلفة وتفاصيل متنوعة كل يوم. وبروح اليأس بدأت تمحو ملامح هويتها المزيفة الأخيرة. وفجأة انطلق صوت المذيعة من التلفزيون كطلقة نارية تخترق صمت الغرفة.

كشفت قناة BFM TV في نشرتها الإخبارية المسائية، بشرطها الأحمر العاجل الذي يومض أسفل الشاشة، عن العثور على جثة رجل عراقي في السبعينيات من عمره غارقاً بدمه في شقته بمنطقة نويي سور سين. صوت المذيعة الفرنسية ينساب بنبرة عاجلة: "خبر عاجل: رجل من أصل عراقي عُثر عليه ميتاً في نويي سور سين. وفقاً لمعلوماتنا، الضحية، في السبعينيات من عمره، طعن عدة مرات في شقته. يُرجح أنها تصفية حسابات شرق اوسطية..."

على الشاشة، ومضت صور للبنية الهوسمانية المألوفة لديها - نفس الواجهة الكريمة الأنيقة التي تميز هذا الحي الراقي. الشريط الأحمر أسفل الشاشة يتحرك دون توقف. المفارقة مرعبة: باريس مدينة كاميرات، لكنها ليست كلندن أو بكين. المراقبة موجودة لكنها محدودة، تسجل الأحداث لكن لا تراقب كل زاوية.

استمر التقرير ليكشف فصلاً جديداً من المأساة: "وتطور جديد في هذه القضية: رجل عراقي ثانٍ عُثر عليه ميتاً في سان دوني. "حالة تسمم" وفقاً للمعاينات الأولية. محققو الشرطة القضائية يحللون احتمال وجود شبكة إجرامية مرتبطة بالشرق الأوسط وثمة رابط بين القتيلين..."

الكاميرا انتقلت لتُظهر مشاهد خارجية من حي سان دوني - المنطقة المكتظة شمال باريس، حيث تتداخل الجاليات وتختلط الأصوات واللغات. مكان يليق بنهاية بستانٍ تحول إلى أداة قتل. على الطاولة - كما أظهرت صورة من تحقيقات الشرطة - كوب شاي بارد، وصورة قديمة باهتة تُظهر رجلين عراقيين بزيهما البعثي الزيتوني، وهما بغاية الفرح يهزجان ربما لصدام بقم مفتوح على اتساع فكيه عقب الثورة الشعبانية في الجنوب، عرفتهما نسرین سريعاً، مزاحماً ومرافقه عليوي.

جلست نسرین أمام الشاشة بوجهها الحقيقي المكشوف أخيراً - شعرها الأسود الطويل، عيناها الحقيقيتان دون نظارات، وجهها الطبيعي بلا أقنعة. ترسخ في وعيها أن الأمر أكبر من انتقام شخصي. تساءلت بصوت مخنوق: «(من أراد إسكاته؟)» أوضح وليد بنظرة محقق محنك: «(المنظمات تختار عملاءها بدقة. تبحث في الماضي والجراح القديمة. تصطاد في مياه الذاكرة العكرة. تقدم المال والحماية والوعود...)»

«وعندما ينتهي دورهم؟» سألت نسرين، رغم أنها كانت تعرف الإجابة.

«يتخلصون منهم». أجاب وليد بصوت قاطع. «بهدوء، بنظافة. كوب شاي، جرعة سم، وتنتهي الحكاية. لا شهود، لا آثار، لا أسئلة».

أكد وليد أخيرًا بوعيه البوليسي العميق: «ما إن أنهى عليوي مهمته مع مزاحم حتى أصبح عبثًا، خاصة أنه يعرف الكثير عن عملياتهم في العراق. رجلٌ مثله، يحمل أسرار ثلاثين عامًا من التجارة بالبشر والتطهير العرقي، لا يُترك ليعيش في هدوء».

على الشاشة، ظهر ضابط من الشرطة القضائية يتحدث أمام الكاميرات بذلك الأسلوب الفرنسي المقتضب الحذر: "نتعامل مع قضية معقدة تتضمن احتمال وجود شبكة منظمة. يبدو أن الضحيتين لهما روابط بمنظمات نشطة في الشرق الأوسط. التحقيق مستمر."

«والآن، ما العمل؟»

«زكية... هي الخيط الأخير». رد وليد وعيناه تتوهجان بالحماسة. «إذا كانت تعرف عن تورط والدها مع المنظمة، إذا كانت تحمل سر ما حدث لابنك، علينا أن نصل إليها قبل وصول المنظمة. وربما...» تردد قليلًا. «جهات أخرى».

انطلقت ضحكة ساخرة من وليد، كمن وجد فكاهة سوداء في قلب المأساة: «وربما نكتشف أن العجوز حارس بناية مزاحم هو المحرك الأساس لكل ما يجري».

تشارك الضحك بتواطؤ عجيب، وهما يستعيدان تفاصيل متخيلة حول ما مر من أحداث خلال هذه الأيام. بعد صمت أشعل تكهنات شتى، تسلل إلى قلب نسرين خوف غامض. إحساس مبهم بأن مزحة وليد قد تحمل شظية من حقيقة.

ضحكت مجاملة، بعينين توقفتا عن الابتسام. في عالم حيث البستاني يتحول إلى قاتل محترف، وحيث الصديق يمكن أن يكون خائنًا، من يضمن عدم كون حارس عجوز جزءًا من اللعبة الكبرى؟ وربما أنت أيضًا يا وليد؟

كان ضحكهما يحمل صدى أجوفًا في الغرفة. ضحك من يقفون على حافة هاوية عميقة، يتظاهرون بالثقة وهم يعرفون أن كل خطوة قد تكون خطوة نحو السقوط.

نظرت مرّة أخيرة إلى صورة عليوي على الشاشة. الرجل الذي عاش كبستاني ومات كأداة قتل. في عينيهِ الجامدتين، رأت انعكاسًا لكل الخيانات والأسرار التي عاشها العراق في سنوات ما بعد السقوط. حين تحول البسطاء إلى قتلة، والجيران إلى أعداء، والماضي إلى شبح يطارد الجميع.

أطفأت التلفزيون بحركة حاسمة. الصورة اختفت، والأسئلة ظلّت تتراقص في عقلها أشباحًا إلكترونية. في عالم الكاميرات المحدودة والمراقبة غير الكاملة، حققت انتقامها من غير افتضاح. وفي عالم الشبكات والمنظمات، أدركت ضخامة اللعبة أكثر مما تخيلت. والآن يجب عليها إيجاد زكية... قبل عثور الآخرين عليها.

بعد انتقالهما لفندق آخر في مدينة تولوز حسب توجيهات وليد البوليسية وفي مقهى بسيط قلبت نسرین ملعقتها في فنجان قهوة تركته يبرد. عقلها يعصف بذكرى زكية. صديقة الطفولة التي استحال خنجرًا مسمومًا في ظهرها. كيف صارت أداة بيد مزاحم؟ وابنها المختطف، أما زال قلبه ينبض بعد كل هذه السنوات؟ هل حقًا زكية تعرف مكانه.

«وليد». قالت بعينين ملتهبتين. «عليّ العودة إلى العراق. زكية هي المفتاح الأخير في هذه المتاهة». نظر إليها بإرهاق. واضعًا فنجانه بحدّة: «أي تخريف هذا؟ العراق الآن بركان - مرجل يغلي بالفوضى والدم - كل شبر فيه يخفي ألف خطر... انتظري لتهدأ الأمور السياسية هناك».

صمتت تراقب انزلاق المطر على النافذة. فكرت: تولوز آمنة، هادئة. في المسافة البعيدة، يكمن الجحيم. وفي قلب ذلك الجحيم... الحقيقة. ابتسمت ابتسامة باهتة. العودة؟ مواجهة الأشباح. الاستعداد؟ تام. إذن الأمومة أقوى من كل خوف.

اتصلت ببرنار. حكّت له قصتها كاملة. رحلة امرأة عراقية فرت إلى فرنسا حاملة جرحًا غائرًا واسمًا مستعارًا. أخبرته أن مقتل عليوي فتح باب الأسرار القديمة. أن كل الخيوط تقودها إلى العراق.

«ماري كونتاري أم أناديك نسرين الوالي؟» تنهد. «ألا يكفي ما عشته من عذاب؟ العراق اليوم متاهة من النار والدم. دعي الماضي يرقد بسلام».

ضحكت ضحكة مريرة: «أي مستقبل تتحدث عنه؟ مستقبلي معلق في ظلال خطوات ابني، لقد أخبرني مزاحم أنه ولد، ولد يا أبي برنار... العراق خطوتي المؤجلة لإعلان الحياة وها قد حانت. أنا أؤجل! ولكن لا أنسى!». أضافت بيقين الأمهات: «لن أعرف السلام حتى أعرف مصيره».

«وإذا كانت الحقيقة مؤلمة؟»

«حتى الألم أفضل من هذا الجحيم المعلق بين الأمل واليأس. مصير ابني بوصلتي الوحيدة. حتى لو كان الثمن حياتي».

(٢٥)

مطار شارل ديغول / أواخر ٢٠١٩

اختلط صوتها بضجيج المطار كأنه انكسار موج على جدار صخري: «من أنت يا وليد؟ حقًا... مَنْ تكون؟»
بمحاولة لتشتيت قلقها قبضت نسرين، بيدها على حقيبة الهيرمس الشخصية، لا تملك معها سوى مقتنيات تختصر رحلتها وقرارها؛ عيناها تحدقان بقوة فيه، فوجدت مزيجًا من استغرابٍ وقلقٍ لا يحتاج إلى كلام كثير.

انبثقت الكلمة من حلقه كرصاصة: «مصري!»
«هذا كل شيء؟» عيناها تحفران في وجهه بلا رحمة.
ارتسمت على شفثيه ابتسامة مزة: «في البداية، ربما».
«احكِ لي إذن... عن وليد الأول، وعن هذا الواقف أمامي الآن».

استنشق الهواء بعمق، متأهبًا للغوص في أعماقه المظلمة.
«القاهرة... كانت المنطلق. عبق المطابخ الجديدة وقواعد الضيافة في معهد الفندقية... أحلام متواضعة بوظيفة وحياة شريفة. ثم... شارع الهرم».

توقف، يسحب أنفاسه مستنشقًا كامل أوكسجين المطار: «كل شيء برائحة مختلفة تمامًا... وبعد عام، انهار العالم. أتهمت زورًا بقتل الراقصة فيفي شكليطه».

تدحرج الاسم على لسانه مثل حجر شائك. صمت لحظةً بهيئة من ابتلع سمًا.

«ضاقَت الحياة حولي كسجنٍ انفرادي... كان عندي "قريب معرفة"... رجل يُدعى محمود النوبي، يُذكّرني بسرور». تابع بصوت مخنوق قادم من تحت الأرض: «كان يُهرّب المصريين للعمل في العراق. محترف في صنعة الاختفاء. زور لي وثائقًا. أصبحت... وليدًا... النادل وليد. فهربتُ سراعًا. ابتلغني العراق كوحش جائع. عملت في الفنادق، في الحانات... بنفس الاسم المزيف».

استراح لحظة. بصره يحفر في شاشة مواعيد الإقلاع. «لاحقًا... صرت منسقًا في منظمة إنسانية دولية ضخمة. عذرًا، لم يكن بالاختيار. جندوني بالتهديد والابتزاز - إما العمل معهم أو كشف هويتي وبالتالي كشف جريمتي الملققة». غرق في صمت جديد. غير أن نظرات نسرین الحادة دفعته للمتابعة. «مهمتنا؟ ظاهريًا تهريب المطلوبين للنظام داخل العراق. أما الحقيقة التي اكتشفناها مؤخرًا... فهي أكبر من خيالنا جميعًا... نحن ضحايا عالم مزيف». ثم انفجر بضحكة طويلة تحولت إلى سعال متقطع ومختنق. السعال ذاته الذي جرّ ذاكرة نسرین إلى أيام أمها الأخيرة. «عليها رحمة الله، أمك جميلة الغحاحة...» قالها وهو يطرق صدره برفق: «مفارقة مؤلمة، أليس كذلك؟ أهربهم وأنا الهارب الأعظم».

«إِذَا... اسمك الحقيقي ليس وليدًا؟»
«مؤكد». هز رأسه وابتلع الكلمة كأنها تحمل أسرارًا لا يريد لها أن تُكشف.
«اليوم... آخر أيام هذا القناع. مصر... يا نسرين... مصر تناديني».

«أهلي... أطفالي...» تردد قليلًا. ثم انساب على وجهه ما يُشبه الابتسامة الحزينة كانعكاس نور القمر في بركة عكرة: «أقصد أطفال أختي... فالحياة التي وهبُتها للشوارع لم تمنحني فرصة لحديقة خاصة. الهارب لا يغرس شجرة».

مرّ بأصابعه في الفراغ كمن يلامس شبحًا: «الآن... أتوق فقط لمقعد خشبي تحت ظل تينة في الغيط. لنوم هانئ بين الجاموس دون وسادة مبللة بالأرق. مكان أكون فيه ذاتي الحقيقية وليس وليدًا، بعد كل تلك السنوات من التجوال في دهاليز الخداع».
«كيف ذلك؟» استفسرت نسرين والحيرة تكسو صوتها:
«التهمة... الجريمة؟»

أشار نحو شاشة الرحلات. حيثُ كان ضوء رحلة بغداد الأحمر ينبض كعين مسعورة. إنذار خطر وشيك: «البراءة وصلت، تسربت كخيوط ضوء من شق في الباب». خفت صوته: «بفضل قاتل متسلسل يعمل لصالح ضابط في الداخلية رفضته فيفي على مرأى ومسمع الكثير... ألقوا القبض عليه بعد عام من فراري. اعترف بكل

شيء، بكل الدماء التي أراقها. ومن ضمنها... قتل فيفي شكليطه.
وجميع جرائمه كانت بتوجيه من هذا الضابط الهمام». «والزمن...» تأمل راحة يده المفتوحة كصفحة من كتاب:
«الزمن أيضًا يمنح عفوًا خاصًا به. يغسل الذنوب ويدفنها عميقًا». صمت برهة. بصره يجوب فراغ المطار كأنه يرى فيه وجوهًا مفقودة.

«وأخيرًا... اكتشفت أن جميع رفاقي في المنظمة... أخفوا عني الحقيقة. كتموا عني خبر براءتي». أطبق جفنيه للحظة كمن يستحضر عذابًا بعيدًا: «تأمروا جميعًا بصمتهم على ميلاد منفاي الثاني. تحولت من هارب من عدالة كاذبة إلى مُبعد عن حقيقة حاضرة».

«وستعود إلى أمّ الدنيا؟»

«حتمية إلهية... نعم سأعود!»

بعينين تفتشان في وجوه الرخالة، تستعرضان شريط حياتها ماضيًا وحاضرًا معًا، أخرجت جواز سفرها العراقي الذي أنهى وليد إجراءاته منذ ساعات. جواز يحمل ختمًا رسميًا وأختام دخول وخروج حديثة من العراق. كانت تعرف أن للرجال المؤثرين لسانًا خاصًا مع البيروقراطية. خاصة بيروقراطية العراق. لسان يختصر الإجراءات ويفتح كافة الأبواب المقفلة.

أخيرًا، وقف صديقان على تقاطع طرق، يتبادلان طقوس وداع مؤثر. استجابت حزينة شاشة مواعيد الإقلاع لهذا المشهد فراحت

تومض بضوئها الإلكتروني، شاهدةً على لحظة فراق تاريخية،
فانطفأت أضواؤها برهة ثم عادت تتلألأ من جديد.
كلاهما يحمل حقيقة محشوة بـماضٍ مـوجع وحاضر غامض.
وليد سيتوجه إلى مصر ليدفن هوية مزيفة عاش بها سنوات طوال.
أما نسرین فستحلّق إلى العراق لتنش حقیقة مـطمورة تحت ركام
الظلم وخواء المجتمع.

الفصل السابع

”قَلَّمَا تَأْتِي النِّهَايَاتُ مُبَاغِتَةً حَقًّا. أَغْلِبَهَا تَرْسُلُ إِشَارَاتِهَا
مُسَبِّقًا، تَهْمِسُ بِقُدُومِهَا عِبْرَ تَفَاصِيلٍ صَغِيرَةٍ نَخْتَارُ تَجَاهِلَهَا. لِأَنَّ
الْحَقِيقَةَ، فِي لَحْظَاتٍ ضَعْفَنَا، أَثْقَلُ مِنْ أَنْ نَوَاجِهَا”
”مَارِكُ تَوِينُ”

(٢٦)

العمارة / أواخر ٢٠١٩

حطّت أخيراً طائرتها على أرض مطار البصرة، نزلت نسرین من الطائرة كطائر مهاجر عاد إلى عشّه بعد فراق طويل. ثلاثة عقود من الانتظار محفورة في تجاعيد وجهها، وفي حقيبتها الصغيرة حملت أحلامًا ذبلت وأوجاعًا لم تشف.

العراق الذي تركته ليس العراق الذي استقبلها اليوم. وعند تفاصيل العمارة وجدت الألم... الألم وحده من بقي كما هو - ما زال ينتظرها كخَلّ قديم عند كل زاوية شارع، وخلف كل نخلة صامدة.

وقفت نسرین فوق جسر الماجدية. امرأة من نسل الانتظار، تحمل في عينيها ذكريات موجعة. خطواتها اللاهثة تشبه نواح النخيل على مصير دجلة والفرات، تنساب أسفل الجسر كنسوة حزن. هناك، حيثُ تنحني ظلال الخرسانة على صفحة دجلة، كان قبره السريّ يرقد كشاهدٍ صامت على ذاكرة من نار لوطن بيع بالمزاد العلني... وعلى عينك يا تاجر.

حفرت القبر بأظافرها المتعبة، تنبش التراب بحرقه الانتظار رغم معرفتها أنه فارغ من تفاصيل جمال حيثُ عثرت عليه السلطة وغيبته في مكان خفي حال أكثر ضحاياها. كل حفنة تراب كانت تحمل رسالة عشق، وكل حجر يتحدث بلغة الألم.

لم تبكِ كالنساء الأخريات. نزفت صمّتًا من مآقيها، لأن الدموع عاجزة عن احتواء حجم المأساة. تمتمت فوق التراب صلوات من نسيح الذاكرة.

النهر، شاهدها الوحيد، ارتفع حاملاً أسرارها، يلمس السماء المثقلة بالذكريات. نهر تغذى من دموعها ودمها.

بيت ميثم الوالي، الذي شهد طفولتها وأحلامها، صار جسداً بلا روح. منذ إعدام والديها، وهروبها واتهامها بالخيانة، تنقل البيت كفريسة بين أيدي متعاقبة. فقد منحه البعث لعلوي وعائلته مكافأة لمشاركته جرائم مزاحم العديدة بولاءٍ عجيب، والذي تخلى عنه الأخير هارباً بعد سقوط النظام يخبئ جرائمه معتذراً في جوارير الطاعة والوظيفة، ليستولي على البيت أحد الحواسم، هؤلاء القطعان البشرية التائهة التي لا وطن لها.

بعد انحسار الضوء عن الطاغية ورجالاته انتشر الحواسم، كالجراد الأعمى، يقتحمون كل مكان فارغ. بيوت السلطة ومقراتها وبيوت المنفيين والمهجرين والمقتولين صارت مستودعات لغرائزهم وبؤسهم. يسكنون بلا كرامة، يعيشون فساداً في أماكن ليست لهم، يحولون البيوت إلى أقفاص.

تاهت نسرین في دوامة ذكرياتها المخدرة، وعيناها تجوبان بوجع صامت جدران مرتعها الأول - ذلك المكان الذي احتضن براءة طفولتها وأحلام صباها، والذي كان يوماً مملكة زاهرة للحلم والنحت والمقاومة.

كان الزمن قاسيًا. طغاة عقدين ملتائين حوَّلا هذا المعبد المقدس إلى خرائب مشوهة، وفي كل زاوية مهجورة كانت تتردد أصداء صرخات خافتة، وكأن الجدران ذاتها تنُّ تحت وطأة التحول المؤلم.

تحركت بخطوات متثاقلة نحو منطقة العرضات حيث وارت أمَّها جميلة الثرى منذ ثلاثين عامًا، وأثقال الدهر في قدميها. العرضات تلك الأرض المنفية عن مدينة العمارة والتي سميت بالعرضات لاستخدامها ميدانًا لاستعراض نشاطات الجيش العراقي.

الصدمة الكبيرة جاءت مع المشهد: «هل حقًا هذه العرضات؟» قبر أمَّها تلاشى كأن لم يكن. اختفى كما اختفت أشياء كثيرة في هذا الزمن الذي لا يقدس الذكريات.

وقفت مذهولة أمام حي سكني جديد يدعى "الغدير" شُيد على أنقاض ذكريات العرضات، سُمِّيَ تيمناً بذلك اليوم الذي نصَّب فيه النبي محمد ابن عمه علي بن أبي طالب وليًا للمسلمين. سخرية القدر أن تُبنى الحياة فوق الموت، وأن تُمحي القبور لتقوم مكانها عمارات شاهقة، وقصور فارهة، وجوامع لقراءة الفاتحة على أرواح الذين ماتوا فرارًا من حياة ملغمة بالذلة والقهر وتعاقب الحكومات. أخذت تدور في الحي كطائر فقد عشه، تنظر تحت أقدامها وتتساءل: «تحت أي بيت من هذه البيوت ترقد أمي الآن؟» كانت

الفكرة تُصيها بالجنون. فكرة أن الناس يعيشون ويضحكون ويتشاجرون فوق جثامين الموتى دون أن يدروا.

لم تملك في تلك اللحظة سوى دموعها، فذرفت فوق أسفلت شوارع حي الغدير المتصدعة رغم حداثة تعبدها، كما لو كانت تقدم ماء الحياة لروح أمها المدفونة في مكان ما تحت هذه الأرض الجاحدة.

ومع انكسار اليوم، توجهت نحو البيت القديم، بيت جميلة وكريم، تلتمس فيه شيئاً من الذكرى، غير أن ما وجدته كان هيكلاً باهتاً لا روح فيه. الجدران متآكلة، والنوافذ محطمة، والباب الخشبي العتيق مخلوع من مكانه كسِنٍ مسوس.

وقفت أمام البيت، تكاد تسمع صدى الضحكات القديمة لجميلة وكُرِّيم، وشجارهما الدائم حول من فرط بها، ومن باعها. وفي غمرة تأملها، لاح لها طيفان من ضوء: كُرِّيم بقامته المديدة وأناقته المعهودة، يوم كان معلماً يحظى باحترام الجميع. كان يقف هناك كأنه يلقي درساً على تلاميذ غير مرئيين، يشرح معادلات نيوتن بيديه المتحركتين في الهواء وصوته الرخيم الذي يخترق صمت المكان.

أما جميلة، فكانت تسعل بصمت الموتى، بصمت من لم تعد الحياة تعنيها. عيناها تحدقان في اللاشيء، كأنها ترى عالماً آخر خلف حجب الواقع.

الحواسم - هؤلاء الغرباء الذين لا تاريخ لهم - استولوا على المكان كقطعان جائعة. اقتحموا البيوت، نهبوا الذكريات، لوثوا القداسة، ولم يتركوا للمكان هويته الأصيلة. إنهم لا يعرفون للذاكرة معنى، ولا يدركون أن الأماكن، كالبشر، لها أرواح.

في تلك اللحظة الفاصلة، أيقنت نسرين بوهم من يعتقد أن الوطن مجرد أرض وحجر. الوطن ذاكرة حية لا تموت، تسكن في عروق من حملوها وإن تشتتوا في المنافي. الوطن ليس جغرافيا تُرسم على الخرائط، إنما هو كل طفل سُرق من أحضان أمه، كل دمعة ذُرفت على عتبة بيت مهجور، كل اسم نُقش على شاهدة قبر لم يُزر. الوطن هو السؤال الذي يطاردك في كل منفى: من أنا حين تُمحي الأرض التي شكلتني؟

وأن الانتظار، مهما طال زمنه وقست ظروفه، ليس استسلامًا للزمن - هو مقاومة صامتة ترفض النسيان. الانتظار فعل وجودي يؤكد أن المفقود لم يُمحَ من الوجود، أن الغائب ما زال حاضرًا في كل نبضة قلب، أن المسروق سيعود يومًا لأن الظلم لا يمكن أن يكون القانون الأبدي للكون.

الأشباح تقف صامدة - ليست أطياف الموتى، إنما شهود الحقيقة التي يحاول الجميع دفنها. أشباح الأطفال المسروقين، النساء المغتصابات، الرجال المقتولين في الساحات. هذه الأشباح لا تتلاشى، تظل معلقة في الهواء كأسئلة لم تُجب، كديون لم تُسد، كعدالة مؤجلة تنتظر ساعتها.

والتاريخ، ذلك القاضي الصامت، يسجل كل شيء. لا يعاقب في لحظته، لا ينتقم بسرعة الغاضبين، لكنه لا ينسى. يراكم الشهادات، يجمع الأدلة، يحفظ الأسماء. وحين تأتي لحظة الحساب - وستأتي حتمًا - سيفتح سجلاته ويعيد الأمور إلى نصابها، لا بمنطق الانتقام، بل بمنطق العدالة التي تأخذ وقتها لأنها لا تخطئ.

همست لنفسها: «سأعود يومًا، وسأضع شاهدةً على قبرك يا أمي، حتى لو اضطررت لهدم عمارة بأكملها». ثم انسحبت من المكان والدموع تلمع في عينيها كنجوم باهتة، تاركة خلفها طيفي جميلة وكريم يحرسان ما تبقى من ذاكرة المكان.

كان "المحطّ" يتنفس بعمق، كائنًا حيًا يحتضن أسرار المدينة. الأجساد تتدفق كخلايا دم في جسد عملاق، تحمل كل منها حكاية مختلفة، وذاكرة متوارثة.

توغلت بين الباعة، تحمل اسم "بيت عليوي" كسؤال مشبع بالألم عمن يعرف لهم أثرًا ولو بصمة إصبع في الهواء. كلما نظقت اسمه، ساد صمت ثقيل كضباب صباحي يمحو ملامح الأشياء. مرت بأبناء الحاج "أميش"، ورثة الذاكرة وجحيمها. الحاج نفسه توفي منذ زمن، وبقي أولاده يصرخون بأصوات السوق: «باجة، كباب، طماطة شوي، خبز تنور».

يتبادلون النظرات كرسائل مشفرة، والموت حتمية في مسرح الحياة الدائم.

عند المكتبة العصرية، توقفت. الناس يتدافعون كقطيع يهرول نحو بوابة معرفة، يتصفحون صحفًا شاخت كلماتها، متلهفين لأخبار موتاهم. وجدت هناك "جميل جبار مويغز" يتصفح جريدة طريق الشعب. ذلك الرجل الفنان الذي كان شاهدًا على سبعة حكام جاؤوا ورحلوا. نظر إليها طويلًا، وهز رأسه بحركة غامضة. «بنيتي آني اعرف ابوج اليهودي وابوج المسلم علاواه على وكتهم... تره احنا مبيوعين وما ندرى، يحاسبونا شلون تشربون أوزو.. هو احنا بطرانين ونشرب أوزو... غير نريد نرتاح بالليل من صوت طلقاتكم، عمي أريد اسمع ام كلثوم تطلبوني بطلابه... إي كافي مو ملينا».

هنالك انفجرت براكين القلق والنقمة في صدرها، وهي تشهد ما أحدثته سنوات البعث والعبث المظلمة من خراب في روح المدينة المقدسة وأبنائها.

وفي كل مرة تنطق اسم "عليوي" يخيم صمت قصير. ثم يعود الضجيج مضاعفًا، كأن السوق يريد أن يمحو الهمسات بصخبه، ويخفي الأسرار تحت طبقاته الصوتية.

توجهت قدمها المثقلتان بأعوام من الانتظار خارج صخب المحط والمسكوف إلى صخب آخر، حيث انسياب شارع دجلة بهيئة شريان يتدفق في جسد المدينة. ارتفع هدير المتظاهرين عاليًا

صوب السماء، أشبه بمطر صاعد: «خرجنا، نريد وطن». أصوات تتناسل وتتكاثر في الهواء، تتسلق جدران الأبنية، تخترق أسوار الصمت التي بناها الخوف والنسيان.

ظهر أمامها فجأة، بوضوح الرؤى في الأحلام ذاتها وغموضها. شاب طويل القامة يحمل إبريق شاي، يمشي بين الحشود. امتدت رائحة الشاي الزكية في الفضاء متموجة، كنهر خفي يسبق إبريقه بخطوات ويلحقه بأخرى.

«مظلوم»، هذا ما كان ينادى به، اسمٌ وُلد قبل صاحبه بسنوات طويلة، كان ينتظره في زاوية من زوايا القدر حتى التقيا. ابتسامته البيضاء خط رفيع يفصل بين عالَمين، تخفي خلفها بحرًا من الألم امتد حتى حافة الشفتين.

كان يتنقل بين الجموع نحلة ضلّت سربها فقررت أن تصنع عسلًا من مرارة الحياة: «چاي مخدر بيد أمّاية مظلوم، مظلوم يلعن جميع الظالمين، مظلوم يريد وطن، ماكو وطن، ماكو حياة».

انجذبت نسرين إلى صوته بشغف يشبه لهفة الأرض للمطر بعد جفاف طويل. فانزلقت مع التيار البشري دون مقاومة، ومن فجوة في نسيج الحشود الغاضبة، انبثقت امرأتان بهيئة ظلال تجسدت من ذاكرة مرتبكة. زكية بنت عليوي ودلال زميلتها في الأكاديمية. كانتا تشبهان غرابين أسودين، غير أنهما في الحقيقة امرأتان طحنتهما أرحية الأيام حتى صارتا غبارًا يحمل ملامح بشرية. دلفتا بها جانبًا.

«ثلاثتنا ضحايا وحش لا يرحم». نطقنا الجملة بصوت واحد، مثل كورس تراجيدي يعترف بذنب جماعي، اعترفتا بذنبهما بلغة متكسرة، كانتا عبارة عن أداتين في يد هذا الوحش، دمی خيطية يحركها عراف قاس.

دلال، التي تركت زمالة نسرين في كلية الفنون الجميلة بعد فضيحة استسلامها لمخططات مزاحم في النيل من جمال، والتي أصبحت فيما بعد «ممرضة الشيطان» في مستشفى صدام، اعترفت بأنها من اختطفت قطعة اللحم الوليدة التي كانت ابن نسرين ساعة ولادته بعملية قيصرية.

أما زكية، فكانت هي من أودعته ملجأ الأيتام بعنوان "لقيط مجهول النسب". اعترفت بوجه تعرّجت فيه التجاعيد خرائطاً لطرق داستها أقدام الفقر طويلاً.

في ذلك المشهد الذي بدا مقتطفاً من حلم طويل، كانت مجاميع المتظاهرين تهتف بصوت يهز جدران الزمن، حتى من كان يقف صامتاً كان يهتف في داخله: «لكل ظالم نهاية ولكل مظلوم حلم». «مزاحم قتل فينا الآنثى التي كنا نحلم بأن نكونها». قالت زكية بصوت مبحوح. «طوال تلك السنوات، كنا ضحايا مثلك يا نسرين. الفرق إننا كنا جزءاً من مؤامراته ضدك، وهذا ما لن نغفره لأنفسنا أبداً».

«غرّر بي بوعود ذهبية في حياة مرفهة... فقدت...» راحت تجesh بالبكاء بحرقه «فقدت عذريتي على يديه ولم يفِ بوعوده

في حفظ ماء وجه شرفي». واصلت زكيّة، وكلماتها تتساقط قطرات ماء حارقة. «جميع من أتى لخطبتي رفضته بانتظار إصلاح مزاحم لجريمته، حتى سقط النظام فسقطت أقنعتي، فهرب من العراق في جملة من هربوا. ومع إصرار أبي على معرفة سبب رفضي، اعترفت أُمي له بكامل الحكاية، فقرر قتلي من ساعتها».

في اللحظة التي سقطت فيها الكلمات من شفتي نورية في أذني زوجها عليوي الهارب من قصاص الشعب، وعدالة نسرين، تحول الهواء في بيتهما إلى ثقل لا يحتمل. وقف عليوي تمثالاً من حجر أسود يشبه ذلك الحجر الذي شجّت به عنيدة رأس صقر.

استيقظت فيه حمية الهور وقداسته الموروثة. راح وجهه يتحول تدريجياً إلى قناع من غضب بدائي، أصابعه تنقبض على مقبض الخنجر الموروث عن أبيه وجده.

«زكيّة... ابتنا... عارنا... دورنا القادم في امتهان الفضائح». همس بصوت يشبه صرير الرمال الزاحفة تحت أقدام القافلة المرتحلة.

انعكس ضوء الشمس المائل على نصل الخنجر حين استله من غمده.

«أين هي؟» سأل بهدوء أشدّ رعباً من الصراخ.

لم تجب نورية. بدلاً من ذلك، سقطت على ركبتيها، وجهها شاحب مثل قمر شتائي. انهارت أمامه شجرة معمرة بالخطايا

اقتلعتها العاصفة تَوًّا، وفي عينيها نظرة استرحام تختلط بألم يتجاوز
الآلام الجسدية جميعها.

في مستشفى "صدام" الذي حوله انقلاب ميزان القوى ومؤثراته
إلى مستشفى "الصدر"، حيثُ رائحة المطهرات تختلط برائحة
الموت المتربص، رقدت نورية على سرير حديدي بارد. أنابيب
بلاستيكية تخترق جسدها النحيل أفاع شفاقة، وآلة تسجل نبضات
قلبها المتقطعة برتابة ميكانيكية.

جلس إلى جوارها، وجهه محفور بخطوط عميقة أخاديد في
أرض جافة، مغامرًا بحياته فقد أخدمت في روحه "دكّة" زكية الرغبة
في الحياة. يداه الخشتان تحتضنان يدها الباردة، وعيناه مثبتتان على
وجهها الذي يشبه قناعًا شمعيًا.

فتحت نورية عينيها بصعوبة. كانت نظرتها صافية بشكل غريب،
فالموت القريب منحها رؤية تخترق حجب المستقبل. أشارت له أن
يقترّب أكثر، وحين أصبحت شفتاها قريبة من أذنه، همست بصوت
متقطع:

«ما نحن فيه: حوبة ميثم الوالي وخديجة... وحبوبة نسرين
أكبر».

أجهش بالبكاء عاضًا على طرف شماغه والندم يأكل ما بقي فيه
من حياة وشرف:

«ومن أين آتي بميثم الوالي وخديجة ونسرین کی أقبل أقدامهم
وألتمس عفوهم... حوبتهم تطاردنا حتى القبر ولن نهناً لا بالحياة
ولا بالموت».

شهقت نورية وهي تستعد لمغادرة الدنيا بخطوات خائفة وجلة:
«أقسم عليك بالله وبحليب امك... لا تقتلها قبل أن تنتقم ممن
أفسدها. دمه أولاً... إن قتلتها قبل أن تقتله ستضيع فرصة انتقامنا
من ذلك الوغد. عدني بذلك... وإلا فموتي لن يكون هائلاً».

كانت كلماتها تتساقط في أعماقه وخز حقن ملوثة بمرض معدٍ،
تعيد ذاكرته إلى لحظات فرحه بولادة زكية. كان يسمع منها وصية،
عهداً، قانوناً أبدياً ينقش في صخر روحه. في عالمه الريفي
العشائري، كلمات المُحتَضِر أحكام تتجاوز الحياة والموت، أثقل
من الجبال وأقوى من الفولاذ.

أمسك بيدها المرتعشة، وقال بصوت أجش:

«أعدك. دمه قبل دمه».

ابتسمت نورية ابتسامة غامضة ابتسامة من يرى ما لا يراه
الآخرون في برزخ بين عالمين. أغمضت عينها ببطء، وغادرت
الحياة بهدوء الفراشة المنسابة خارج حديقة الدنيا.

وفي مضيف عشيرة عليوي، في هور "المعاذيب" شرقي العمارة حيث يتشابك القصب والبردي متعانقين فوق الرؤوس تاجاً مهيباً، تكتل الرجال بصمت مثقل بالترقب في حلقة متصلة. وجوههم المتجهمة تعكس هيبة اللحظة، بينما توسط عليوي الحلقة واقفاً شامخاً رغم انكساره الداخلي. والشيخ الكبير، بلحيته التي تنساب شلالاً ثلجياً على صدره، يجلس متربعا على وسادة موروثية، وعينه تخترقان القلوب كسهام.

«عاهدتُ نوريّة»، نطق عليوي بصوت لا يشبه صوته. «سأذبح الفاسد أولاً، ثم أغسل عاري بدم التي دنست اسم العشيرة». هز الشيخ رأسه بحركة بطيئة، متأملاً، وفي عينيه انعكاس قرون من حكمة الهور وقسوتها.

«صدقت ابن عمي. دم المفسد يسبق دم ضحيته. هذا ما يكمل دائرة العدل، ويتعظ الخائنون به. قتل البنت وترك مغويها سيجعل ذئاب البشر تستبيح أعراضنا دون خوف».

انتفض المجلس بهمهمات موافقة خافتة وأخرى معارضة. بات القرار محفوراً على صخرة الأعراف، قرار امرأة محتضرة عززه حكم العشيرة المطلق.

«عليوي... هل أعددت عدتك للرحلة؟» سأل الشيخ بنبرة تختزل هيبة الهور وبساطته.

«نعم شيخنا... تواصلت مع منظمة قادمة من دولة مجاورة
تصفي حسابات الماضي مع أزلام النظام».

فجأة، نهض رجل من الصفوف الخلفية، أذنه المبتورة تشهد
بصمت على سطوة النظام الفاشي - ذلك الوشم الذي لا يُمحى،
العقاب الأبدي للهاربين من الجيش في سنوات الحصار
والحروب. بصق على الأرض بازدراء كمن يبصق على التاريخ كله،
وصرخ بصوت أحدث جلبة بين الحاضرين: «ونت يا عليوي، يا
وجه البومة، مو واحد من أزلام النظام چنت؟ دمشي... مسوي
روحك أبو ذر الغفاري! كلنا نعرفك، كلنا نتذكر!»

انفجر المجلس بركائنا طال صمته. الأجساد تتلاطم كأموح
هائجة، والعقال يُنتزع ليصير سوطاً يهوي على الرؤوس. النعال
يشق الهواء صاروخاً بدائياً، يرتطم بالوجوه في صفعات مذلة.
الأحذية الثقيلة تُقتلع لتصبح هراوات تضرب اللحم والعظم. دلة
القهوة النحاسية تُرفع كالصولجان، تهوي على الجماجم بصوت
معدني مدو. صينية الشاي تتحول ترساً تُصد به الهجمات المقابلة.
والمسبحة - تلك التي كانت تُسبّح بأسماء الله - تُلف الآن حول
الأعناق خنقاً، حباتها الثلاث والثلاثون تضغط على الحنجرة كأنها
تعد أنفاس الموت الأخيرة، تحولت من أداة تقرب إلى الله إلى أداة
تقرب من الجحيم. كل حبة تشهد على سقوط مقدس آخر، على
تحول الإيمان إلى سلاح، والصلاة إلى صراخ.

وسط هذا الجحيم البشري، انسلّ عليوي كظل هارب. يتفادى القبضات الطائشة، يتخطى الأجساد المتشابكة على الأرض، يمر بين الفوضى كشبح له مهمة أكبر من هذه المعركة المتواضعة الخسائر.

عند باب المضيف، توقف لحظة. التفت إلى الورا - المجلس يحترق بنيران الغضب القديم، والرجال يمزقون بعضهم كذئاب جائعة. لكن عينيه لا ترى هذا. عيناه ترى باريس فقط. ابتلعه المشحوف، فابتلعتهما العتمة معًا. رجل من طين الأهوار ينطلق صيادًا عابرًا للقارات، حاملاً ثأراً أقدم من سبع حضارات، وتذكرة إلى جحيم اسمه باريس.

مرّ الوقت على زكية كقطار بطيء يعبر صحراء لا نهاية لها. وفي بيت لجوئها عند دلال في حي "الرحمة" على أطراف العمارة هاربة، عاشت زكية حياة معلقة بين عالمين. لم تكن حية بالمعنى الكامل للكلمة، ولم تكن ميتة رغم أن الموت كان ينتظرها عند نهاية طريق رسمته وصية أمّ وعهد أب، وقرار عشيرة. كانت تعيش يومها الأخير دومًا، تتنفس الهواء بحذر، امرأة تعلم أن التنفس امتياز سيُسحب منها قريبًا.

نطقت نسرين بالحقيقة المرة التي كانت غائبة عن توقعات زكية وشرحت لها ما جرى في مدينة نوي من تصفيات وانتقام، وأن مزاحم وعليوي أصبحا في عداد الموتى. طمأنتها أن الخطر زال

عنها... خطر مغوبها الذي دّس شرفها، وخطر أبيها الذي كان يريد غسل العار بسفك دمها.

كان صوتها يقطر مرارة، حلو في بدايته، لاذع في نهايته. زكية التي كان وجهها متجمداً للحظات كتمثال من رخام، انسابت دموعها ينايغاً تفجرت للتو بعد شتاء طويل، ما بين فرح بنجاتها وحزن بقتل أبيها.

«وأنا!»

انفجرت الكلمة من حنجرة دلال كطلقة نارية تشق السكون. صوتها - ذلك الجرس المتصدع الذي يدق في كنيسة مهجورة - ارتعش وهو يخترق الهواء الثقيل. دموعها لم تكن دموعاً عادية، بل بلورات ثقيلة محملة بأربعين عاماً من الكتمان المرعب، تنساب على وجنتيها المتعبتين كأنها تحفر أخاديد في لحمها.

«وظفني ممرضة في مستشفى صدام... استخدم نفوذه المتصاعد ليجعلني تحت رحمته». صوتها يرتجف الآن كورقة خريف في عاصفة. «وعدني بالزواج... كذب... خدعني... ثم... ثم...»

تلعثمت. ابتلعت ريقها بصعوبة. الكلمات التالية كانت تحرق حلقها من الداخل.

«حين هددته... حين قلت له إنني سأكشف مصير ابن نسرين... صحوة ضمير متأخرة ملعونة». ضحكت ضحكة هستيرية مختنقة.

«لَقَّ لي تهمة سرقة أدوية من المستشفى. تهمة؟ لا... مسرحية

كاملة! شهود زور، محاضر مزورة، قاضٍ يقرأ الحكم وهو يتشاءب».

لحظة ثقيلة مرّت على دلال عيناها تحقدان في الفراغ كأنها ترى شبح ذلك اليوم.

«حكم عليّ بالسجن المؤبد». نطقت الكلمات كصلاة جنازية. «بتهمة سرقة أموال الدولة وإرسالها إلى المعارضة في الأهوار. أنا! التي لم أر الأهوار في حياتي! أنا التي كنت أخاف النطق باسم المعارضة حتى في أحلامي!»

رفعت رأسها فجأة، وفي عينيها بريق جنوني:
«عشرة أعوام في قفص خرساني... عشرة أعوام أعد الشقوق في الجدار... عشرة أعوام أسمع صراخ المعذبين في الزنازين المجاورة... حتى سقط التمثال... حتى انهار كل شيء».

ابتسمت ابتسامة مخيفة، نصفها انتصار ونصفها جنون:

«كان الله رحيماً معي ساعة أن نال جميع العراقيين حريتهم بسقوط صدام. غادرت السجن، لكن السجن لم يغادرني قط».

وقفن الثلاث متشابكات الأيدي، نساء حررهن الموت من قيود انتظار لا نهاية له. في تلك اللحظة، تحت سماء الماجدية الملبدة بالمفاجآت، وبين جموع المتظاهرين الذين يصرخون بشعارات الحرية، أدركن أن دورة الانتقام قد انتهت أخيراً، والحياة، بجميع قسوتها وجمالها، تنتظرهن خلف الأفق.

رغم ذلك وفي لحظة من لحظات الغضب الأبدي، وزعت
نسرین علی وجهی المرأتین بصاقًا حارًا كان يختمر في روحها منذ
أربعة عقود. بصاق كشف عن جروح لو وضعت في ميزان لرجحت
بثقلها جبال الدنيا.

«لا يهمني ما حلّ بكما وفاءً لغدركما». صرخت نسرین بدموع
تحولت إلى كريستال في الهواء. «ما جئت من أجله هو ابني،
فمزاحم قبل أن يموت قال لي اسألي بيت عليوي، وأنت يا زكيّة
بنته ووريثة أسرارهِ».

تدفقت الحشود من جهات الأرض جميعها، تجتاز الشوارع
المتعبة مثل نهر متمرّد كَسَرَ سدوده مجتمعةً وتدفق شللاً. أصوات
تنبعث من حناجر عطشى للحرية، تحمل أرواحًا نذفت عقودًا من
الصمت القهري.

الهتافات تتصاعد بنغمة أجراس ثورة:

«حر ورافض للأصنام... لا إيران ولا صدام...».

وهي تتابع همجية الجهاز العسكري وهو يُعنف المتظاهرين
راودتها ذكريات رواية حمدان: كيف هاجم جيش صدام الانتقامي
زوّار سيد مديح - لحظة أن كانت هاربة على غير هدى نحو بيته
الطيني بعد محاولتها الفاشلة لقتل مزاحم قبل عقود من الزمن.
همست في يقينها وسط هذا المشهد الأخير:

«صدام لم يُعدم! لم يَمُت! فهناك ألف صدام يتجول طليقًا في شوارع آهاتنا».

اختلفت نبرات الغضب بنبضات الأمل، وامتزج الغاز المسيل للدموع بهمسات العيون الصاخبة. آلة القمع انطلقت تحصد الأرواح مستحضرة أشباح الماضي، ومن بين دخان القنابل برزت وجوه تحمل ملامح الرفض.

رفعت زكية ودلال سبابتيهما المرتجفتين كعقربي ساعة توقفت منذ زمن بعيد عادت فيهما الحياة مجددًا، وأشارتا نحو بائع الشاي "مظلوم" الذي كان فرحًا محمولًا على الأكتاف: «ابنك، مظلوم». توقف قلب نسرين قبل عودته للنض بعنف مطرقة على سندان. تعلقت عيناها بملامح وجهه، ذقن خفيفة تشبه ذقن جمال، وعينان بلون الكستناء تشبهان عينيها. إنه نسخة تامة الشبه بأبيه.

«مظلوم؟ ابني؟» نادته بصوت يحمل عقودًا من اللفظة المكبوتة، تخترق بجسدها النحيل طريقًا وسط بحر البشر: «يَمّه... مظلوم... يَمّه».

لم يسمع النداء. كان غارقًا في غبطة الهتاف، يبحث عن وطن ضائع، بروح تتوق لحضن أمّ دافئ تطمئن فيه. تساؤلات عميقة تعتصر كيانه، تستدعي إجابات لم يجدها سوى في هذه اللحظة الحاسمة. صوته يرتفع شعلة تبدد خوف السنين. ردد فاهتاجت الجماهير:

«ليس الحلم أن نعيش كرامًا فقط، الحلم هو معرفة من نحن،
وممن أتينا، وإلى أي طريق ننتهي!»

سعت نسرين لاختراق الحشود، والقدر يرصدها بصبر الصياد.
ما إن لامست كتفه حتى استدار بحركة غريزية، يحميها من رصاصة
يتوقعها منذ اللحظة الأولى أن تُصيب عزيزًا عليه.

لمحت ما لم يلمحه أحد، وميض القنّاص البعيد ينعكس على
زجاج نافذة قلبها. وبحدس الأمومة رجح في داخلها صدور قرار
الموت. التفت مظلوم بحركة مباغته، عيناه تتسعان كَمَنْ شَعَرَ بلمسة
روح عرفها قبل معرفته الدنيا. في ثانية خاطفة، رأى امرأة تشبه
الصورة التي كانت تراود أحلامه.

«يَمّه؟» همس السؤال، وفي اللحظة ذاتها، رأى ظل الموت
ينقض. بخفة قطّ بريّ، قفز من على الأكتاف، وبقرار لم يستغرق
سوى ومضة، تحرك ليقف حاجزًا بين رصاصة قاتلة وبين الحضن
الذي حُرِمَ منه ثلاثين سنة. «يَمّه!»

هناك، خلف زحمة الجنود المدججين بالدروع السوداء
والخوذات اللامعة، خلف سحابة الدخان المتصاعدة من قنابل
الغاز، رآته، ضابطًا يقف على سطح عربة مصفحة، قبعته العسكرية
مائلة قليلًا إلى اليسار، يده اليمنى ترتفع وتنخفض بحركات حادة
كأنه يقود سيمفونية جهنمية. صوته الأَجَشْ يخترق صخب الميدان:
«أطلقوا النار! لا تتوقفوا! هؤلاء عملاء وخونة!»

دَقَّت في الملامح - الأنف المعقوف، الشارب الكثيف الأسود،
تلك الطريقة المتعجرفة في رفع ذقنه حين يصدر الأوامر - فانشَقَّت
الأرض تحت قدميها.

«معاذ الدليمي!»

زميلها في أكاديمية الفنون الجميلة. ذلك الشاب النحيل الذي
كان يشكل معها الطبيعة الصامتة في مشغل النحت لأربع سنوات،
قبل أن يتحول إلى وحش يرتدي بذلة القمع. تذكّرت تلك اللحظة
المريرة عند أحد تماثيل باحة الأكاديمية، حين واجهها بنظرة واحدة
كانت كافية لسحقها، ثم رمى كلمة اخترقتها مثل سهم مسموم:
«خونة!» كلمة واحدة حوّلت من زميل دراسة إلى جلداء، ومن فنان
يحمل الطين ثورة إلى آلة بشرية تحمل سوطاً.

لكن المفارقة الأمرّ جاءت بعد سنوات، في صالة انتظار مطار
الكويت. كانت هاربة بجواز مزوّر يحمل اسم الصحفية الفرنسية
صوفي دوبوا، وكان هو - معاذ - يعبر أمامها بملابس مدنية أنيقة
وحقيبة جلدية فاخرة.

والآن، بعد سقوط التمثال، بعد انهيار كل شيء، ها هو معاذ
الدليمي لا يزال يطلق النار. لم يتغير شيء فيه سوى اسم سيّده
ومصدر لقمته الذليلة. بالأمس كان يقتل باسم الطاغية، واليوم يقتل
باسم من احتلوا الوطن بذريعة تحريره. تبدّلت الرايات، لكن الجلّاد
بقي جلّاداً.

رفع يده مجدداً، وصاح بصوت تشققت فيه آخر ذرات إنسانيته:
«النار! المزيد من النار!»

اخترقت رصاصة معاذ الدليمي صدر مظلوم، فسقط بين ذراعيها
غصن ياسمين كسرتة العاصفة، فيما تناثر الشاي من الإبريق في
الفضاء ليرسم قوساً من السائل البني الدافئ، تشكل قلائداً تشبه
قلادة أم راضي.

تدفق الشاي المعطر بالهيل منحدرًا بين شقوق الإسفلت
المتحجرة، ممتزجًا بالدماء النازفة من صدره المثقوب. تكونت على
الأرض بركة متعددة الألوان - قرمزي عميق وبني داكن - تتحدث
عن لقاء أخير بين الحياة والموت. فيما انبعث همس خافت لا
يُعرف مصدره: «چاي مخدر بيد اُمّاية مظلوم... مظلوم يلعن كل
ظالم، مظلوم يريد وطن...».

التفّ العلم العراقي حول جسده المتمدّد، متحوّلاً من رمز وطني
إلى كفن أخير لشاب لم يكن حيّاً ليموت. الأكواب المتناثرة
تدحرجت مُصدرة أصواتاً متقطعة، نغمًا جنازياً صامتًا. آخر خيوط
البخار تصاعدت من الشاي المنسكب، روحًا تفارق الجسد نحو
العلياء.

«مظلوم... يمه» همست نسرين وهي تضمه إلى صدرها،
قطرات الشاي تتسلل إلى وجهه لتغسل عنه رماد الخذلان. تحولت
تلك القطرات في عينيها إلى دموع كان يفترض أن تذرفها فرحًا
بولادته.

«لا تذهب... للتو وجدتك». تمتمت نسرين وهي تسند رأسه إلى صدرها، ذلك الصدر الذي جف حليبه قبل أن يرضعه. استخرجت من قلب حقيقتها المنديل - ذاك المنديل الذي مسحت به وجه جمال لحظة موته.

مسحت العرق من جبينه والدماء من صدره بمنديلها الأثير، ثم انتزعت من إصبعها ذلك الخاتم - الذهب الذي احتفظت به أكثر من أربعين سنة، الشاهد الصامت على تأريخ عذاباتها - وألبسته إصبع ابنها مظلوم بيدين مرتعشتين. كانت تحلم أن تراه على إصبع حورية يوم زفافها، أن يتقل الخاتم من جيل إلى جيل كالنهر الذي لا ينقطع، أن يكون جسرًا بين الموت والحياة، بين الفناء والاستمرار.

ابتسم مظلوم ابتسامة تشبه فجرًا بعيدًا: «أنتِ حقًا أمي؟ كنت أبحث عنكِ في وجه القمر، وألمح ظلك في أحلام العصفير». «نعم يا نور عيني... أنا أمك نسرين. سرقوك مني، وعشت عمري مطاردة بين المنافي بحثًا عنكِ».

لكن مظلوم - الذي كان يلهث والدم يتدفق من فمه - همس بصوت يخرج من أعماق الموت: «عرفتك من رائحتك... من لمستك... روعي تذكرتك. هي أنتِ، أمي التي حلمت بها». ثم أضاف وعيناه تنطفئان: «هل تعلمين؟ سميت نفسي مظلومًا لشعوري بأن الظلم قد سبق ولادتي. كان اسمي - فكان قدرتي».

«كان مزاحم قد اختطفك وهو يظن محققاً أن اختطافك انتقامٌ مِنِّي ومن والدك جمال». تمتت نسرين وهي تضغط بالمنديل على الجرح النازف. «أبت الأقدار إلّا أن تجمعنا في هذه الساحة... في هذه اللحظة».

«كنت أشعر دائماً بأنني أهتف لشيء أكبر من الحرية... كنت أهتف لعودتك». ثم ارتعشت شفتاه: «من هو أبي؟»
«أبوك جمال، كان أستاذاً للمسرح في الأكاديمية، صوته كان يهز جدران المسرح بحروف الحرية، علّمني فعشقتة. اعتقلته السلطة لرفضه تمثيل دور المطيع، ومات مضطهداً يحلم بوطن يستحقك».

«وها أنا ذا... أموت في ظلك، وأسلمك رايتي». ابتسم ابتسامة مشرقة رغم الألم.

«مظلوم، وليدي مظلوم!» صرخت نسرين وهي تضمّه إلى صدرها، فتسللت قطرات من دموعها إلى وجهه لتغسل عنه غبار الموت. ترددت كلماته الأخيرة في أذنها كوصية أبدية: «يمه... قولي لهم... الحرية ليست هتافاً، الحرية وجود، الحرية زلزال يقهر الطغاة. وأنا وجدت حريتي في لقاءك».

ثم أغمض عينيه وهمس: «أشعر بالدفء للمرة الأولى». وفي تلك اللحظة المقدسة، قبّلت نسرين المنديل المضمخ بدماء ابنها ودموعها ودموع جمال. تحول المنديل إلى أكثر من قطعة قماش - أصبح رمزاً للحب، سجلاً مكتوباً بالدماء والدموع،

شاهدًا على حنين عظيمين انتهى بالموت. والخاتم الذي كانت تأمل أن يكون مهرًا لحرورية، صار وصية أخيرة على إصبع ابن عرف أمه للمرة الأولى - والأخيرة.

طوت نسرين المنديل بحذر شديد، كأنها تطوي حياتها كلها، ووضعت على قلبه. كانت تعلم أن هذا المنديل سيبقى معها إلى الأبد، يحمل في خيوطه دماء الحب والثورة، دموع الأم والعاشقة، آخر أنفاس الرجل الذي أحبه وابنها الذي لم تره يكبر.

وفي لحظة معلقة بين الأرض والسماء، امتدت رائحة الشاي الزكية مثل سحابة عطرية لتغلف المكان كله، ولمن أرهف السمع جيدًا، كان يمكن سماع صوت خافت كهمس نسرين لروح ابنها: «چاي مخدر بيد آمايه مظلوم... صوتك لن يموت يا ابني، سترده الحناجر إلى الأبد...»

ارتفعت أصوات المحيطين بهما كموجة هادرة تعلن ميلاد أسطورة جديدة:

«مظلوم يلعن كل ظالم». «مظلوم يريد وطن». «آنه أمك يا مظلوم». صرخت نسرين صرخة زلزلت كيان شارع دجلة ثم أردفت باكية: «لماذا؟ لماذا يا رب؟ لماذا أنا بالذات وليس غيري؟ أهذا جزائي؟ أهذا ثمن وجودنا؟» احتضنت جثة مظلوم، تبكي كل سنوات القهر والضياع وهي تطوق عنقه بقلادة أم راضي المباركة: «لم أره يكبر، لم أسمع صوته يناديني... "ولج

يمه". لم أحتضنه إلا وهو ميت، ولك يمه مرمرت غلبي يبعد أمك وروحها».

زكية ودلال احتضنتا نسرين نائحات وقد توزرن بالعويل فغبن جميعاً بجسد امرأة ثكلى فقدت قبل قليل كل العراق.

هناك من واصل المقاومة بالهتاف: «دم مظلوم برغبة الخونة» ورفع إشارة النصر بتقبيل علم العراق... وآخرون أغرقوا الشارع بالدموع يعزّون بعضهم بعضاً: «عظم الله أجركم بمصاب الأمة الجلل... ونعزي الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ومراجعنا العظام ساعة استشهاد مظلوم».

في تلك اللحظة العصبية من تاريخ نسرين، وتاريخ العراق، تولّد في يقينها أن دائرة الثأر لا تنتهي. قتلت مزاحم بيديها، بينما شبح الموت ما زال يطاردها. انتقمت، غير أن ثمن الانتقام كان أغلى من كل كنوز الدنيا، قلب ابنها الذي لم ينبض بين يديها إلا ليموت. «سأنتقم لك يا مظلوم... هذه المرة ليس بإراقة الدم... سأنتقم بللمته وضخّه في شرايين الحياة».

(٢٨)

ساعة غبش فجر حزينٍ سلّم الكونُ على ربوع العمارة
والماجدية بتحية الشهادة، حيثُ اختلطت دموع السماء بدماء
الأرض، مشت نسرين حافية القدمين نحو مقام سيد مديح برفقة
حشود الحالمين بغدٍ أجمل.

خطواتهم تخطب الأرض الترابية الممتدة من بطون الماجدية
حتى المقبرة كدقات طول بعيدة. يحملون جثمان مظلوم بصمتٍ
يشبه صمت النجوم قبل سقوطها. المطر يغسل وجوههم المتعبة،
يمزج عرقهم بطين الأرض.

في عيونهم تلمع بقايا غضب وأمل، وفي قلوبهم تنبض أغنية
سبعينية بصوت قحطان العطار: «يمه العمر وياح، خير وشناشيل يا
يمه، خير وشناشيل».

نسرين تتقدمهم، نخلة عراقية شامخة في وجه الخراب. عيناها
محيط يتلاطم فيه حزن الأمهات مع غضب الشائعات، وأصابعها
تمسح الدموع بطرف عباءتها السوداء - تلك العباءة التي صارت
جزءاً من روحها، لباس الحداد الأبدي الذي اختارته قدراً.

في أعماقها، همست للطفل الغائب: «لم أحمله رضيعاً يرضع
من ثديي، حملته جنيئاً في رحمي وشهيداً في ذاكرتي».

عند المقبرة، يتوقف الزمن. الهواء يحبس أنفاسه. الفجر يؤجل شروقه. يحفرون في الأرض مكاناً جديداً للحلم. كل معول يضرب التراب يصنع نشيداً، كل حفنة تراب تُرفع تحمل معها وعداً. بجوار قبور أطفال المدينة دُفن مظلوم، وقلادة أم راضي توسطت عنقه. وكُتب على شاهدة قبره: «هنا يرقد ابن نسرين وجمال" ضحية أخرى من ضحايا الانتقام والكراهية».

في تلك اللحظة، تحوّل المكان عمّا كان عليه فأصبح قبراً لثائر من أجل امتلاك وطن. صار مزاراً لحلم شعب بأكمله. على جدران، بدأت تتراقص ظلال الزوّار القادمين من كل مكان، يتركون على القبر أمانيتهم كما يترك المؤمنون ندورهم.

شباب يحملون ورداً وأحلاماً، نساء يرتدين السواد متشحات بالدموع، شاب يترك قصيدة حب، فتاة تضع وردة حمراء، أم تنثر دموعها، شيوخ يتكئون على عصيهم ويتلون الفاتحة. وهناك، اصطَفَ رجالُ دين بعمائم حالكَة السواد وناصعة البياض، وجاء بابواتٌ من شتّى الأمصار، تتحدّ أصواتهم لترتل حقيقةً واحدةً خالدة: "هنا الحياة".

كل زائر يترك أثراً: اسمًا، دعاءً، قصيدة، حلمًا. المكان يمتلئ بالحكايات حتى يكاد ينفجر. كل حجر يحفظ رواية، وكل ركن يخفي سرّاً.

وحمدان!!! نعم حمدان، كان هناك طيفاً يقدم للزوّار شيئاً مُهيلاً وقد لَفَّ رأسه بشماغ أبيه دون حربته، يبعث أملاً عظيماً في الشباب

لبلوغ قرص الشمس حيثُ يسكن مظلوم، هذا ما أكدته نسرين لوليد
باتصال هاتفها على الواتساب جمع العمارة بالقاهرة.
وعند كل فجر، وقبل توجههم لمصالحهم كان يتوافد البسطاء
إلى مقام مظلوم حاملين باقات الزهور. منبهرين بتجدد المكان
كأنما مسته يدُ نبي، حيثُ الهواء يعبقُ بالبخور والياسمين. وقفت
نسرين عند المدخل، تشير بطرف عباؤها إلى السماء: «هو حمدان
لا غيره. الغائب الحاضر». وبصوت يرتفع: «حمدان وزوجته
عنيدة وابنهما ريحان: هم سدنة المكان وهم من حوّل القبر إلى
روضة».

وفي الليل، حين يخلو المكان إلا من النجوم، كان القبر يتوهج
كشمعة في ظلام العراق الطويل. تجلس نسرين عند القبر، تسمع
همسات المدينة. من جانبهم بات الشباب الحالم بالتغيير يأتون ليلاً
من كل مكان، بعضهم يحمل الورد، بعضهم يحمل الدموع،
وبعضهم يحمل أحلاماً بغد أجمل. يقسمون يمين الثورة، يضعون
أيديهم على التراب، يعاهدون مظلوم على إكمال الطريق.

وعند عتبة فجر آخر، عادت نسرين إلى جدار المدرسة
الابتدائية، حيثُ نقشت ساعة مغادرتها العراق قبل ثلاثين عاماً.
وبيد ترتعش، أعادت كتابة: «المدينة لا تموت. تتغير فقط. مثل
قلوبنا» وما أن يتنفس النهار أنفاسه، حتى تأخذ نسرين دورها
المعتاد - أمٌ تكلّي بشعلة متقدة حاملةً صورة ابنها الشهيد كأنها
تحمل قلب العمارة النابض، فتغيب وسط جموع المحتجين.

من وسط الهتافات والنحيب لنهر بشري متماوج، وعلى غير المتوقع ظهرت "سيلفي" الصحفية الفرنسية التي واجهت نسرین بقاء صحفي قبل عقود في باريس، قادمة من هناك لكشف الحقيقة للعالم، شقّت طريقها بين الحشود متطلعة في الوجوه بانبهار كبير وتساؤل يطرق في وعيها بالباح «أي روح قوية تحملون يا أبناء العراق؟» وعندما وقفت أمام نسرین، التقت عيناها في لحظة عبرت فيها جسور الزمن.

«مدام نسرین، ساره، جميلة، عنيدة، صوفي، ماري... جميع من تلبست روحها روحك ماذا تريدین؟ أو بالأحرى، ماذا تريدون، أنت وهذه الحشود؟» تأملت وجهها الذي لم يتغير كثيراً عن سابقه طويلاً، ثم انطلق صوتها كرعد في سماء المدينة: «نريد استعادة وطننا الذي سرق منا على حين ذلة!»

كان صراخها يحمل صدى صوت كل أم فقدت ابناً على مذبح الحرية، وكل حلم تكسر، وكل أمل يأبى الموت. في تلك اللحظة، التقت عيون الحاضرين عند صورة مظلوم، حاملاً إبريق الشاي. والابتسامة الخالدة المرسومة على شفتيه كأنها نبوءة كانت تلهب حماس الحاضرين بغد أجمل ووطن حر سعيد. أمسكت سيلفي بيد نسرین مخافة ألا تخرج من عندها دون كلمة للتاريخ، للعالم، لشعوبه المضطهدة «وماذا بعد يا نسرین؟» حينها سمع الجميع خطاب الحرية يتردد بلسان مظلوم وأمه فتردده الجماهير بحماس كبير: «لا تتوقفوا عن أحلامكم، أحلم، أو أموت!»

المؤلف في سطور

أديب وفنان عراقي، من مواليد العمارة/ الماجدية عام ١٩٦٨.
بكالوريوس أكاديمية الفنون الجميلة - قسم الإخراج المسرحي.
بكالوريوس هندسة حاسبات.
مارس التمثيل والإخراج، والنقد المسرحي والتلفزيوني.
كتب نصوصًا للمسرح، وسيناريوهات لأفلام قصيرة، وقصائد
نثرية، وقصصًا قصيرة.
نشرت قصصه وقصائده في العديد من الصحف والمجلات
العربية.

عضو عامل في نقابة الفنانين العراقيين منذ عام ١٩٨٨.
عضو اتحاد المسرحيين العراقيين.
عضو اتحاد الأدباء العرب للقصّة القصيرة.
عضو اتحاد الكتّاب والأدباء في العراق.

الإصدارات

إيولا: مجموعة قصصية - دار الحضارة العربية للنشر والتوزيع.
القاهرة، ٢٠١٨.

كاتم الصمت: نصوص مسرحية - دار الرياض للنشر والتوزيع.
القاهرة، ٢٠١٩.

النّهام: نصوص مسرحية - دار الرياض للنشر والتوزيع. القاهرة،
٢٠١٩.

الرب طفل يتيم: قصائد نثرية - دار أضواء للنشر والتوزيع.
القاهرة ٢٠٢٠.

الطيران على جناح ذبابة: مجموعة قصصية - مؤسسة شمس
للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٤.

معلومات التواصل

البريد الإلكتروني: kazemzaid@gmail.com

